كمال الصليبي

منطلق تاريخ لبنان

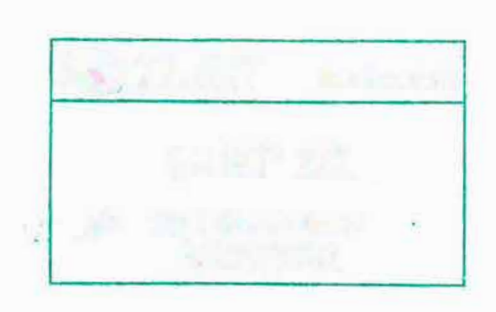


نوفل

كمال الصليبي

مُنطلق تاريخ لبنان

٦٣٤ - ١٥١٦ م





هؤلاء من غرس الملوك الأوائل ، ان كان فيهم نفعٌ فقد استحقّوا به اقطاعهم ، وان لم يكن فيهم نفعٌ فحاشا الله ان يكون معروفٌ اسدوه الملوك الاوائل يبطل في أيام الامير الكبير !

القاضي ابن فضل الله العمري

الطبعة الاولى ١٩٧٩
منشورات كارافان، نيويورك

الطبعة الثانية
١٩٩٢



بناية نوفل ــ شارع المعماري
تلفون: ٣٥٤٨٩٨ ــ ٣٥٤٣٩٤ ــ تلكس ٢٢٢١٠ نوستن
ص. ب ١١/٢١٦١ ــ بيروت ــ لبنان

المحتويات

الخرائط

تمهيد

اعتمدت في ضبط أسماء الأعلام والأماكن الواردة في هذا الكتاب الشكل الذي وردت فيه أصلاً في المصادر العربيّة . ولم أستثن من ذلك أسماء الأعلام والأماكن غير العربيّة ، حيث أوردتها بشكلها العربي مع الإشارة اليها بالتهجئة اللاتينيّة عند اللزوم حسب لغة الأصل .

أمّا فيما يتعلّق بالمصادر والمراجع ، فقد أشرت الى العربية منها في النصّ عند الضرورة ، وأشرت الى غيرها في الحواشي في لغة الأصل حسب الأُصول المرعيّة .

ولا بدّ لي من أن اتوجّه بالشكر الى كلّ من أسهم في اخراج هذا الكتاب . وأخصّ بالذكر زاهي خوري الذي سهر على طبع الكتاب وصمّم له الغلاف ، وعبد الرحيم ابو حسين الذي راجع النصّ الأصلي وساعدني في تصحيح الملازم وجمع الفهرس ، وانطوان كسّاب الذي راجع النص المطبوع ، ووَاهة هانسيان الذي رسم الخرائط ، وسيّدة نعمة التي أعدّت النصّ المخطوط للطبع .

المؤلّف

مقـَـدّمـَة

اردت أن اجمع شيئاً يستفيد منه الخلف من معرفة اخبار السلف... ، لأني لا اريد متغالياً في السلف يصفهم بأزيد ممّا فيهم ، لا ولا حسوداً فينعتهم بما ليس فيهم....

صالح بن يحيى

التاريخ علم يبحث في حقيقة الماضي ويتحرّى اخباره. وهو في الوقت ذاته فكر يرمي الى فهم اوضاع الازمنة الغابرة، وفن يهدف الى تصويرها ورواية احداثها بطريقة مترابطة، معقولة، تبعثها حية في الاذهان. ورواية التاريخ – من حيث هو فكر وفنّ – تنطلق من العلم بالواقع. وللمؤرخين فيها أساليب ومذاهب وتحاليل وأراء قابلة للاخذ والردّ، وفيها اتفاق واختلاف. ولقارىء التاريخ آخر الامر ان يكون هو الحكم، فيعتمد من الروايات التاريخية في هذا الموضوع او ذاك ما يجده مقنعاً في الجزء او في الكلّ، ويرفض منها ما يجده غير مقنع. ولمّا كانت التصرّفات البشريّة – وهي في اساس الاحداث التاريخية – تنطلق من دوافع معقّدة يصعب بل يستحيل حصرها، ويتعذّر البتّ المطلق في امرها، يصبح لزاما على المؤرّخ ان يتحاشى الجزم في معالجة موضوعه، وان يكون دائم الاستعداد لاعادة النظر في تحليله وتصويره للماضي، آخذاً اراء الآخرين بعين الاعتبار اذا كانت هذه الآراء خالية من الغرض. وقد يكون للقارىء العادي في بعض الأحيان رأي في القضايا التاريخية اصوب من آراء أهل الاختصاص. لذلك يجدر بالمؤرّخ المدقّق ان يجلّ رأي القارىء العادي وان لا يتردّد عن الأخذ به اذا كان مصيباً. فالتاريخ، من الناحية الفكرية، مشاع لكلّ من يهتمّ به. والكلمة الفصل غير واردة في موضوعه، مهما كان مصدرها.

اما التاريخ كعلم يتحرّى المعرفة المجرّدة عن الرأي، فله اصول لا يجوز الخروج عليها على الاطلاق. والاصول هذه ترتكز على الخبرة في معرفة المصادر التاريخية والدربة على استعمالها. وهي تتطلّب الجدّ في البحث عن الواقع، والتدقيق في ضبطه وتحديده، والقبول بما ثبت منه على حاله وحقيقته بالتجرّد الكامل عن الاغراض والاهواء، ودون اي زيادة او تنقيص، والوعي المستمرّ للفرق بين الأكيد منه والمرجّح، وبين المرجّح منه والمعقول، وبين الأدلّة التاريخية المباشرة والادلّة الظرفية

وسواها من الأدلّة غير المباشرة. فاذا اختلف مؤرّخان في الرأي، فلكلّ منهما الحقّ في رأيه ان هما تساويا في المعلومات. امّا إذا اختلفا على الجزم في واقع ما، فلا بدّ من ان يكون احدهما او كلاهما على خطأ. لان العلم سعي الى المعرفة، وقد يخطيء الساعي في سعيه او يصيب. وعلى صاحب الخطأ في أيّ علم ان يعود عن خطئه وان يعترف بالصواب عند ثبوته. امّا صاحب الصواب الثابت، فعليه ان يتمسّك بصوابه بما تيسّر له من الجرأة، ودون اية مساومة او مصانعة. لان المعرفة امانة لدى صاحبها، ولا يجوز له التصرّف بها الّا بوعي تام لما تقتضيه المسؤولية العلمية.

وقد يكون التمسّك بالصواب التاريخي في بعض الأحيان اصعب من الاعتراف بالخطأ والعودة عنه. وذلك على الأخصّ عندما يكون الخطأ التاريخي جزءاً هاماً من اسطورة موروثة أو موضوعة يقوم عليها المجتمع. وهناك في العالم مجتمعات تتمسّك باساطيرها التقليدية تمسّكاً تلقائياً. وهناك مجتمعات اخرى تُفرض عليها الاساطير الملائمة للاوضاع السياسية القائمة فرضا من قبل الانظمة أو الفئات السياسية المتحكِّمة بأمرها. وقد يحول التمسّك بالاسطورة، في كلتا الحالتين، دون جهر المؤرّخ بما يعرفه من الواقع. فيجبر صاحب المعرفة التاريخية في احيان كثيرة إمّا على السكوت، او على ما هو أشدّ من السكوت، وهو المشاركة في تحوير الحقائق التاريخية أو طمسها كليا. وقد نجحت عملية تحوير الحقائق أو طمسها في بعض المجتمعات الى حدّ جعل الوصول الى الصحيح المجرّد من تاريخها امراً في غاية الصعوبة. والامثلة على ذلك لا تحصى عدداً.

امّا فيما يتعلّق بموضوع لبنان، فمن المعروف ان الشعب الذي جمعته الظروف عام ١٩٢٠ في الوطن اللبناني بحدوده الحاضرة لم يلتق بعد على اسطورة تاريخية واحدة مقبولة من جميع فئاته، وذلك على الرغم من جهد الجاهدين — من هذه الناحية او تلك — لاختلاق مثل هذه الاسطورة

وفرضها على البلاد بشكل لا يقبل الردّ. بل بالعكس، فقد أصرّ كلّ فريق من اللبنانيين، منذ قيام «دولة لبنان الكبير» (١٩٢٠) التي اصبحت فيما بعد «الجمهورية اللبنانية» (١٩٢٦)، على اختلاق اساطير خاصة به، وعلى رسم صورة تاريخية للوطن الجديد تتلاءم مع اغراضه واهوائه. فهناك في البلاد اليوم اساطير تقول بازلية الكيان اللبناني، بل وبأزلية الأمّة اللبنانيّة، فتجعل للبنانها تاريخاً مفترضاً يعود في قدم عهده — على الأقلّ حسب ادّعاء بعض الغلاة — الى أوّل ظهور البشر على وجه البسيطة. وهناك اساطير تتمسّك بصورة «لبنان الملجأ» التي رسمها المستشرق الاب هنري لامنس اليسوعي في كتابه الشهير «مختصر تاريخ سورية»[1]، فتعتبر ان لبنانها كان منذ البدء — وعلى الأخصّ في العصور الإسلامية — حصناً طبيعياً منيعاً لجأت إليه العناصر الدينية والطائفية الهاربة من الضغط والاضطهاد في الأقطار المجاورة، جيلا بعد جيل. هذا من ناحية. ومن ناحية اخرى، فهناك الاساطير التي تتحدّث عن انتفاضات «الشعب اللبناني» أو «الشعب العربي في لبنان» ضد جور المماليك وبني عثمان في العصور الاسلامية المتأخرة، فتعزو ظهور أولى البوادر التاريخية للكيان اللبناني الى وعي اللبنانيين للبنانيتهم، أو لعروبتهم، في الزمن التي كانت البلاد العربية خاضعة فيه لحكم الاتراك — وهو زمن لم يكن فيه بالحقيقة وعي في هذه البلاد لاي نوع من الانتماء القومي بالمفهوم الحديث، وان كان فيه قدر من الوعي للفارق العنصري بين الاتراك والعرب. وهناك الاساطير التي لا تعترف للبنان بأي تاريخ صحيح خاص به قبل قيام «متصرفية جبل لبنان» عام ١٨٦١، أو «دولة لبنان الكبير» عام ١٩٢٠، فلا ترى في الوجود اللبناني الحالي الّا كيانا مصطنعاً اكمل الاستعمار الغربي خلقه لخدمة مصالحه واغراضه عقيب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى. هذا بالنسبة الى الاساطير اللبنانية

١ Henri Lammens, *La Syrie; précis historique*, Beyrouth, 1921.

«الكبرى» (اذا صحّ التعبير) التي يحاول اصحابها تفسير الواقع اللبناني الحاضر تفسيراً شاملاً. وهناك، بالاضافة الى هذه الاساطير «الكبرى»، اساطير اخرى «صغرى» تعني بالتفاصيل: منها ما يختصّ باصول بعض الطوائف اللبنانية كالموارنة والدروز، ومنها ما يختصّ ببعض المؤسسات التاريخية في البلاد كـ«الامارة» و«الاقطاع»، او بحوادث معيّنة كـ«العاميّات» و«الحركات» وغير ذلك، ومنها ما يتعلّق بتاريخ بعض الأسر والشخصيات التي لعبت دورا بارزا في ما درجت تسميته بتاريخ لبنان.

ومن حسن الحظ ان ما من اسطورة «كبرى» أو «صغرى» تتعلّق بتاريخ لبنان الّا وتعكس أغراضاً خاصة في البلاد تقابلها أغراض أخرى مناقضة لها. ولذلك يبقى المجال مفتوحاً امام المؤرخ المجرّد عن الغرض لتحرّي ما تيسّر من واقع الماضي بالطرق العلمية، وبقدر كبير من الحرّية — هذا الّا في حالات قليلة جدّاً قد يتّفق فيها اصحاب الاساطير المختلفة على طمس بعض الحقائق التي من شأنها أن تفضح جميع الاساطير أو معظمها. والواقع هو ان اصحاب الاساطير في لبنان، على اختلاف نزعاتهم، يخادعون الناس ولا يخدعون الّا انفسهم وبعض المتفقين معهم في هذا الغرض او ذاك. اذ ما من لبناني عادي، ممن يهتم بالاطّلاع على ما يكتب حول موضوع تاريخ لبنان، الّا ولديه من حسن الفطرة والادراك ما يمكنه ان يفرّق تلقائياً، وبكلّ سهولة، بين الحقيقة والزغل، وبين الرأي الصادق المعقول والرأي المغرض المشوّش. هذا مع العلم بان حبل الاسطورة (وهي ضرب من الكذب) قصير، وان وعي الحقيقة التاريخية المجرّدة من قبل الخاصة والعامة هو — في نهاية المطاف — خير اساس يبنى عليه المجتمع السليم. ولعلّ الامعان في تزوير التاريخ اللبناني من قبل المتمسّكين بالاساطير على انواعها — وجميعها اساطير تفرّق اللبنانيّين ولا تجمعهم — هو من اهمّ الاسباب التي ما زالت تعمل على تمزيق المجتمع

اللبناني وتفتيته. ولعلّ قول الحقيقة التاريخية البسيطة في الموضوع، وابداء الرأي الصريح فيها مع الاعتراف الكامل بحدود الصواب في الرأي، هو خير علاج لما نتج حتى الآن في البلاد عن التزوير التاريخي من ضرر.

وما القصد من وضع هـذه الدراسة الّا الإسهام في نقل صورة لبنان التاريخية من نطاق الاسطورة الى نطاق الحقيقة، وذلك عن طريق تعقّب مختلف العوامل المحلّية والاقليمية والخارجية التي آلت آخر الامر الى ظهور الكيان اللبناني بحدوده الحالية، وتحكيم العقل في هذه العوامل بغضّ النظر عن كل ما قيل في الموضوع من قبل. وقد فرض عليّ واقع الامر أن ابدأ برواية القصّة اللبنانية من القرن الميلادي السابع، عندما تمّ انهيار الأوضاع التاريخية القديمة في بلاد المشرق على اثر الفتوحات الإسلامية، وقامت فيها اوضاع تاريخية جديدة ما زالت مستمرّة الى اليوم الحاضر، على ما طرأ عليها عبر الأجيال من تطوّر وتغيّر. وقد خصّصت القسم الأوّل من دراستي للموضوع — وهو الكتاب الذي اضعه بين يدي القاريء اليوم — لمعالجة اوضاع الجبل اللبناني وجواره في فترة «العصور الوسطى»، اي في الفترة التي تبتدىء في بلاد المشرق مع ظهور الاسلام، وتنتهي بزوال دولة المماليك في بلاد الشام ومصر على أثر الفتح العثماني لهذين القطرين في اوائل القرن السادس عشر. والمعروف ان هذه القرون الستّة في تاريخ لبنان هي اكثر الفترات غموضاً، وذلك بسبب ضآلة المعلومات الثابتة المتوفّرة لدينا عنها، ممّا جعل اصحاب الخيال ينسجون حولها من القصص ما لا يمتّ الى الواقع بصلة.

وقد سبق لي أن عالجت بعض النواحي التاريخية من هذه الفترة في كتاب وضعته بالانكليزية بعنوان «المؤرخون الموارنة وتاريخ لبنان في العصور الوسطى»[٢]، وفي عدّة مقالات وضعتها كذلك بالانكليزية ونشرتها تباعاً في مجلتي *Arabica* و *Oriens Christianus*. وهناك بالاضافة

٢ *Maronite historians of mediaeval Lebanon*, Beirut, 1959.

مقال عن « محمد بن الحنش ، مقدّم البقاع » وضعته بالفرنسيّة بالاشتراك مع الزميل الأب فرنسيس هورس اليسوعي ، ونشر عام ١٩٦٨ في مجلة جامعة القدّيس يوسف *Mélanges de l'Université Saint-Joseph* الصادرة في بيروت . وقد عمدت في جميع هذه المؤلفات الى اثبات المصادر والمراجع التي استقيت منها المعلومات والى تعليل النتائج التي توصّلت اليها بالتفصيل عند الحاجة. غير اني لم اتجرأ قبل اليوم على رواية قصّة لبنان في هذه الفترة بشكل كامل متسلسل لان صورة الموضوع لم تكن بعد قد ترابطت واتّضحت في ذهني الى الحدّ الادنى المطلوب.

والقصة التي أقدم على روايتها في الفصول التالية لا بدّ من أن يكون فيها نقص قليل او كثير في الحقائق المثبوتة ، والرأي في هذه الحقائق هو بطبيعة الحال قابل للجدل ، وكذلك الاستنتاجات المبنية عليها . وجلّ ما يجوز لي أن اؤكّده للقارىء هو أنّي حاولت الجهد في تصفية ذهني من رواسب الاساطير المتضاربة حول الموضوع قبل الإقدام على معالجة أيّ جانب منه ، واني حاولت ايضاً ان اثبت كلّ ما وقفت عليه من الحقائق التاريخية بشأنه دون أي تحوير أو تحريف مقصود. هذا بالاضافة الى اعادة النظر النقدية الكاملة في كلّ ماكتبته شخصياً في الموضوع من قبل ، وفي كلّ ما كتبه غيري .

ولما كانت الكتابة العلمية الصرفة تورث الملل للقارىء بما فيها من تفصيل في الإسناد والتعليل ، فقد آثرت في الدراسة الحالية ان الوذ بالايجاز في الإشارة الى المصادر وفي اظهار الحجّة العلمية والفكرية على ما اقوله . ولمن يهمّه امر هذه التفاصيل ان يراجع كتابي عن « المؤرّخين الموارنة . . . » المذكور آنفاً ، وكتابي عن « بلاد الشام في العصور الإسلامية »[٣] ، والمقالات التي نشرتها في السابق حول موضوع الكتاب الحالي ، وهذه قائمة بها :

---

٣ *Syria under Islam; empire on trial, 634–1097*, Delmar, N.Y., 1977.

١ – « موارنة لبنان تحت حكم الفرنجة والمماليك »
"The Maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk rule, 1099–1516", in *Arabica*, IV (1957), pp. 290–296.

٢ – « الكنيسة المارونية في العصور الوسطى واتحادها مع رومية »
"The Maronite church in the Middle Ages and its union with Rome", in *Oriens Christianus*, Band 42 (1958), pp. 92–104.

٣ – « آل بحتر امراء بيروت والغرب في العصور الوسطى »
"The Buḥturids of the Ġarb, medieval lords of Beirut and of southern Lebanon", in *Arabica*, VIII (1961), pp. 74–97.

٤ – « التقليد الماروني في كتابة التاريخ »
"The traditional historiography of the Maronites", in *The historians of the Middle East*, edited by Bernard Lewis and P.M. Holt (London, 1962), pp. 212–225.

٥ – « مقدّمو بشرّي ، زعماء الموارنة في جبل لبنان الشمالي »
"The *Muqaddams* of Bšarrī: Maronite chieftains of the northern Lebanon, 1382–1621", in *Arabica*, XV (1968), pp. 63–86.

٦ – « محمّد بن الحنش ، مقدّم البقاع »
Francis Hours, S. J., et Kamal Salibi, "Muḥammad ibn al-Ḥanaš, *Muqaddam* de la Biqāᶜ, 1499–1518; un épisode peu connu de l'histoire libanaise", in *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, XLIII (1968), pp. 3–23.

أضف الى ذلك ما يتعلّق بعهد المماليك في المقاطع الاولى من مقالاتي التالية :

٧ – « لبنان الشمالي في ظلّ امارة غزير »
"Northern Lebanon under the dominance of Ġazīr, 1516–1591", in *Arabica*, XIV (1967), pp. 144–166.

٨ – « بنو سيفا وايالة طرابلس »
"The Sayfās and the *eyalet* of Tripoli, 1579–1641", in *Arabica*, XX (1973), pp. 25–52.

٩ – «سرّ البيت المعني»

"The secret of the house of Maʿn", in *International journal of Middle Eastern studies*, IV (1973), pp. 272–287.

ولا بدّ هنا من كلمة مقتضبة حول انواع المصادر التي يتوجّب اعتمادها في دراسة التاريخ المتعلّق بجبل لبنان وجواره في «العصور الوسطى». فمن هذه المصادر ما يتعلّق مباشرة بتاريخ لبنان، ومنها ما يتعلّق بتاريخ الشام وبلاد المشرق على وجه العموم، مع بعض الإشارة هنا وهناك الى الاوضاع «اللبنانية».

ويكاد النوع الأول من المصادر ان يقتصر على التواريخ المارونية، والتواريخ الدرزية، والوثائق الموجودة في محفوظات الفاتيكان عن العلاقات بين الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وطائفة الموارنة. واهمّ المصادر المارونية، على الرغم من التحفظ بشأن قيمتها العلمية بحدّ ذاتها، هي مؤلّفات المطران جبرائيل ابن القلاعي الذي عاش في اواخر الفترة التي نحن بصددها (توفي عام ١٥١٦)، وعلى الاخصّ زجليته التاريخية الشهيرة «مديحة[٤] على جبل لبنان». وقد قام بنشر هذه الزجلية الاب بولس قرألي، مع مقتطفات من اصول مارونيّة أخرى تتعلّق بموضوعها، تحت عنوان «حروب المقدّمين، ١٠٧٥ – ١٤٥٠» (بيت شباب، ١٩٣٧). ثم تأتي المؤلفات التاريخيّة التي وضعها البطريرك اسطفان الدويهي (توفي عام ١٧٠٤)، ومن أهمّ هذه المؤلفات «تاريخ الطائفة المارونيّة» (نشره رشيد الخوري الشرتوني، بيروت، ١٨٩٠)، و«تاريخ الأزمنة، ١٠٩٥ – ١٦٩٩» (نشره الاب فردينان توتل اليسوعي، بيروت، ١٩٥٠). وقد بحثت بالتفصيل في القيمة التاريخية لمؤلّفات ابن القلاعي والدويهي في كتابي عن «المؤرّخين الموارنة ...»، حيث عالجت ايضاً ما ورد عن فترة «العصور الوسطى» في تاريخ لبنان في كتاب «اخبار الاعيان في جبل لبنان»

٤. المديحة في العرف الكنسي الشرقي هي الترنيمة، من الجذر السرياني «مدح»، اي رنّم.

(بيروت، ١٨٥٥ – ١٨٥٩) الذي وضعه طنّوس الشدياق في أواسط القرن التاسع عشر. ولمن يهمّه امر التواريخ المارونية بشكل عام ان يراجع المواد المتعلّقة بالموارنة في الفهرست الذي وضعه جورج غراف بالالمانية في خمسة مجلدات عن «تاريخ الادب العربي المسيحي».[٥]

وتقتصر المصادر الدرزية المتعلّقة بفترة «العصور الوسطى» على مؤلّفين لا غير، وهما تاريخ صالح بن يحيى، الامير البحتري المتوفّى في أواسط القرن الخامس عشر، وتاريخ حمزة بن الفقيه احمد بن سباط العاليهي، احد اتباع الامراء البحتريّين، المتوفّى عام ١٥٢٣. وكلا المؤرخين كان معاصراً للفترة المتأخرة من عهد المماليك، وقد شهد الثاني منهما بداية العهد العثماني. وكان أوّل من قام بتحقيق تاريخ صالح بن يحيى ونشره بقدر من التصرّف الاب لويس شيخو اليسوعي، وذلك تحت عنوان «تاريخ بيروت واخبار الأمراء البحتريّين من بني الغرب» (بيروت، ١٩٠٢، ١٩٢٧). ثم اشتركت شخصياً في اعادة تحقيق الكتاب ونشره كاملاً، دون تصرّف، مع الأب فرنسيس هورس وبعض الزملاء الآخرين تحت العنوان ذاته، مع الاشارة الى العنوان الاصلي وهو «اخبار السلف من ذرية بحتر بن علي امير الغرب ببيروت» (بيروت، ١٩٦٩). امّا تاريخ ابن سباط، وهو المكمّل لتاريخ صالح بن يحيى، فلم ينشر بعد. والجزء الأوّل منه مفقود. امّا الجزء الثاني، فمنه نسخة مخطوطة في الجامعة الاميركية في بيروت، ونسخة في مكتبة الفاتيكان، ونسخ اخرى لا مجال لذكرها هنا. وهناك أيضاً بعض الاشارات المفيدة الى امور تتعلّق بالتاريخ اللبناني في الرسائل الدرزية، وقد لفت نظري اليها الزميل الدكتور سامي مكارم، من دائرة اللغة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت.

٥ Georg Graf, *Ceschichte der christlichen arabischen Literatur*, Città del Vaticano, 1944–53.

امّا فيما يختصّ بمحفوظات الفاتيكان، فقد عني الاب طوبيا العنيسي بنشر بعض محتوياتها المتعلّقة بتاريخ الموارنة في كتاب بعنوان «الرسائل المارونية»[٦]، وهي تشمل النصّ اللاتيني الاصلي لرسائل احبار رومية الى بطاركة الموارنة واعيانهم ابتداء بعام ١٢١٣ م.

وتجب الإشارة، بالنسبة الى الاصول اللبنانية، الى ان هناك فروقات هامة في النهج بين التواريخ الدرزية من جهة، والتواريخ المارونية من جهة اخرى. فالتواريخ الدرزيّة تركّز اهتمامها على الأوضاع السياسية في المناطق الجنوبية من جبل لبنان، ولا تعنى بالامور الدينية على الاطلاق (فيما عدا ما يذكره ابن سباط عن سيرة الامير السيّد جمال الدين عبد الله التنوخي وتلاميذه – انظر الفصل الرابع من الكتاب الحالي). وتتّصف رواية صالح بن يحيى وابن سباط للاحداث التي يعنيان بها بالدقّة والأمانة العلميّة الى حدّ يصعب نظيره، على الرغم من بعض التحيّز الظاهر لغرض آل بحتر في بعض المقاطع. وقد اثبت صالح بن يحيى في تاريخه المناشير والمراسيم والحجج وغيرها من الوثائق المتعلّقة بتاريخ اسرته بنصوصها الحرفية في بعض الاحيان، وباختصار في بعضها. ولم يتوان عن اثبات الوثائق التي تتضمّن قدرا من الادانة لموقف اسرته بالنسبة الى بعض القضايا السياسية الحسّاسة، ومنها تعامل بعض افرادها البارزين، ولو اضطراراً، مع اعداء الدولة الاسلامية في زمانهم، من فرنجة ومغول. امّا التواريخ المارونية، فالتركيز فيها – بالنسبة الى «العصور الوسطى» – هو اكثر ما يكون على قضية علاقة الموارنة بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وقد اكّد كلّ من ابن القلاعي والدويهي قدم هذه العلاقة، حتى أنّ الدويهي جعل منها الاساس التاريخي لانفصال الطائفة المارونية عن الطائفة الملكية في الشام في غضون القرن السابع (انظر الفصل الثاني من الكتاب الحالي). وقد جهد كلا المؤرّخين في تكذيب المصادر والادلّة

---

٦ Tobiae Anaissi, *Bullarium Maronitarum*, Romae, 1911.

التي تشير الى ان الموارنة لم يخضعوا لسلطة احبار رومية قبل القرن الميلادي الثاني عشر على أبعد تحديد. امّا من ناحية الدقّة، فهناك فرق شاسع بين النهج الذي يعتمده ابن القلاعي في روايته الزجلية لتاريخ الموارنة، والنهج الذي يعتمده الدويهي سواء في رواية تاريخ طائفته، او في رواية تاريخ البلاد الشامية، بما فيها المناطق اللبنانية. فبينما يتّصِف تاريخ ابن القلاعي بالنمط الاسطوري الواضح الغرض، يتميّز تاريخ الدويهي بالنمط العلمي المفصّل، المعلّل، الوافي الإسناد، وذلك بغضّ النظر عن المواقف الجدلية التي يتخذها في كتابه «تاريخ الطائفة المارونية»، وهي مواقف لا إجماع عليها. ويلاحظ ان الدويهي تحاشى هذه المواقف الجدلية في كتابه «تاريخ الأزمنة». والكتاب الأخير هذا من أهم المصادر التي تعني بتاريخ البلاد الشامية، مع التركيز على المناطق اللبنانية، من اواخر القرن الميلادي الحادي عشر حتى عصر المؤلف.

وهكذا يصبح لزاماً على المؤرخ اليوم، في اعتماده على الاصول اللبنانية، ان يتحاشى الاسناد الى ما يرد في كتابات ابن القلاعي دون الامعان في التدقيق النقدي، كما عليه ان يأخذ بعين الاعتبار محاباة صالح بن يحيى وابن سباط لغرض آل بحتر دون الاسر المناوئة لهم في المناطق الدرزيّة، وأن يضع في حسابه المنطلق الجدلي الذي ينطلق منه الدويهي في كلامه عن أصل الموارنة.

هذا بالنسبة الى المصادر التي تعنى مباشرة بتاريخ المناطق والطوائف اللبنانية، وهي كما ذكرنا قليلة على الرغم من عظم اهميتها. اما المصادر الرديفة التي تشير الى التاريخ اللبناني بشكل غير مباشر، فهي من الكثرة بحيث يستحيل حصرها وعدّها. ومعرفة الباحث بها تزداد بشكل مستمرّ، لا حدود له، عن طريق الخبرة والمراس. فمن هذه المصادر المؤلّفات والمصنّفات الإسلامية التي تركّز بعض الاهتمام او كثيره على البلاد الشاميّة، وفي جملتها المناطق اللبنانيّة. وهذه المؤلّفات والمصنّفات لا

تحصى عدداً ، ومنها ما لم ينشر بعد . فهناك كتب الاخبار التي وضعها المؤرّخون من امثال البلاذري ، والطبري ، والمسعودي ، وابن عساكر ، وابن القلانسي ، وابو شامة المقدسي ، وابن شدّاد ، والمقريزي ، وابن تغري بردي ، وابن طولون الصالحي الدمشقي . وهناك كتب الرّحالة ، من أمثال ناصر خسرو وابن جبير ، والجغرافيين ، من امثال المقدّسي ، والادريسي ، وابو الفدا ، وياقوت الحموي . وهناك كتب التراجم والطبقات التي وضعها ابن خلّكان ، والكتبي ، والصفدي ، وابن حجر العسقلاني ، والسخاوي ، وابن تغري بردي ، والغزّي ، وابن العماد الحنبلي ، وكثيرون غيرهم . وهناك المصنّفات الادارية التي وضعها ابن فضل الله العمري والقلقشندي وامثالهم . ومن المصادر الرديفة ايضاً مصادر غير اسلامية : منها تواريخ الروم ، وتواريخ الأرمن ، والتواريخ السريانية ، والتواريخ العربية المسيحية غير المارونية (كتاريخ سعيد بن بطريق ، وتاريخ يحيى الانطاكي) . ومنها أيضاً تواريخ الفرنجة في بلاد المشرق ، وقد نشرت هذه التواريخ — مع غيرها من المصادر اليونانية والارمنية والعربيّة المتعلّقة بفترة «الحروب الصليبية» — في «مجموعة مؤرّخي الحروب الصليبية» التي صدرت في باريس بين عام ١٨٤١ و١٩٠٦ .[٧] وهناك ايضاً كتب الرحّالة الاجانب — من مسيحيّين ويهود — الذين قاموا بزيارة بلاد الشام في الفترة التي نحن بصددها . اضف الى ذلك الكتابات والوثائق المتعلّقة بالارسالية الفرنسيسكانية في بلاد المشرق (انظر الفصل الرابع من الكتاب) ، وقد قام الاب جيرولامو غولوبوفيتش بنشر هذه الكتابات والوثائق في مجموعة خاصة تتألف من عدّة مجلّدات .[٨] ولعلّ هناك مصادر غربية غير معروفة بعد ، واخرى معروفة ولم تستعمل حتى الآن الى الحدّ الكافي في البحث عن تاريخ لبنان وبلاد الشام في «العصور الوسطى» . واخصّ بالذكر

٧ *Recueil des historiens des Croisades*, Paris, 1841–1906.

٨ P. Girolamo Golubovich, *Biblioteca bio-bibliographica della Terra Santa e dell' Oriente francescano*, Firenze, 1931.

هنا محفوظات البندقية التي اعتُمدت الى جانب المصادر العربية في الدراسة التي وضعتها بالاشتراك مع الاب هورس عن «محمد ابن الحنش ...» . والواضح الأكيد ان جميع هذه المصادر الرديفة ، ومنها ما هو هام جدّاً ، لم تستنفد بعد في دراسة موضوعنا ، بل ولن تستنفد الى وقت طويل لعظم حجمها ، ان لم يكن لاسباب اخرى كثيرة .

ومجرّد الوقوف على هذه الاصول اللبنانيّة والمصادر الرديفة ، مهما بلغت درجته ، ليس كافياً بحدّ ذاته لكتابة تاريخ لبنان في «العصور الوسطى» . اذ يتوجّب على المؤرخ ، قبل الخوض في الموضوع ، ان يكون متعمّقاً في معرفة احوال تلك الفترة في بلاد المشرق على وجه العموم ، وبلاد الشام على وجه الخصوص ، ضمن اطارها التاريخي الكامل ، ومع وعي اهمية العوامل الجغرافية الضابطة لهذه الاحوال . لان تاريخ لبنان ، في ذلك الوقت على الأقلّ ، لم يكن إلّا جزءاً من تاريخ بلاد الشام ، ومن تاريخ بلاد المشرق — هذا مع العلم بما كانت لهذه البلاد في مختلف الازمنة من علاقات سياسية واقتصادية وحضارية مع سائر انحاء العالم . فهناك روافد كثيرة تصب في مجرى التاريخ اللبناني في كلّ عصر . وعلى المؤرّخ ان يفهم طبيعة هذه الروافد ، وطريقة اتّصالها بالمجرى ، ومدى تأثيرها عليه ، قبل ان يتمكّن من فهم طبيعة المجرى بالذات .

وجلّ ما أتمنّاه هو ان تكون دراستي التمهيديّة هذه جزءاً من منطلق لدراسات اخرى اوفى منها في العمق والتفصيل ، سواء في موضوع تاريخ لبنان او في تاريخ المنطقة التي ما زال الكيان اللبناني اليوم مرتبطاً بها ارتباطا عضويا من جميع النواحي .

كمال سليمان الصليبي

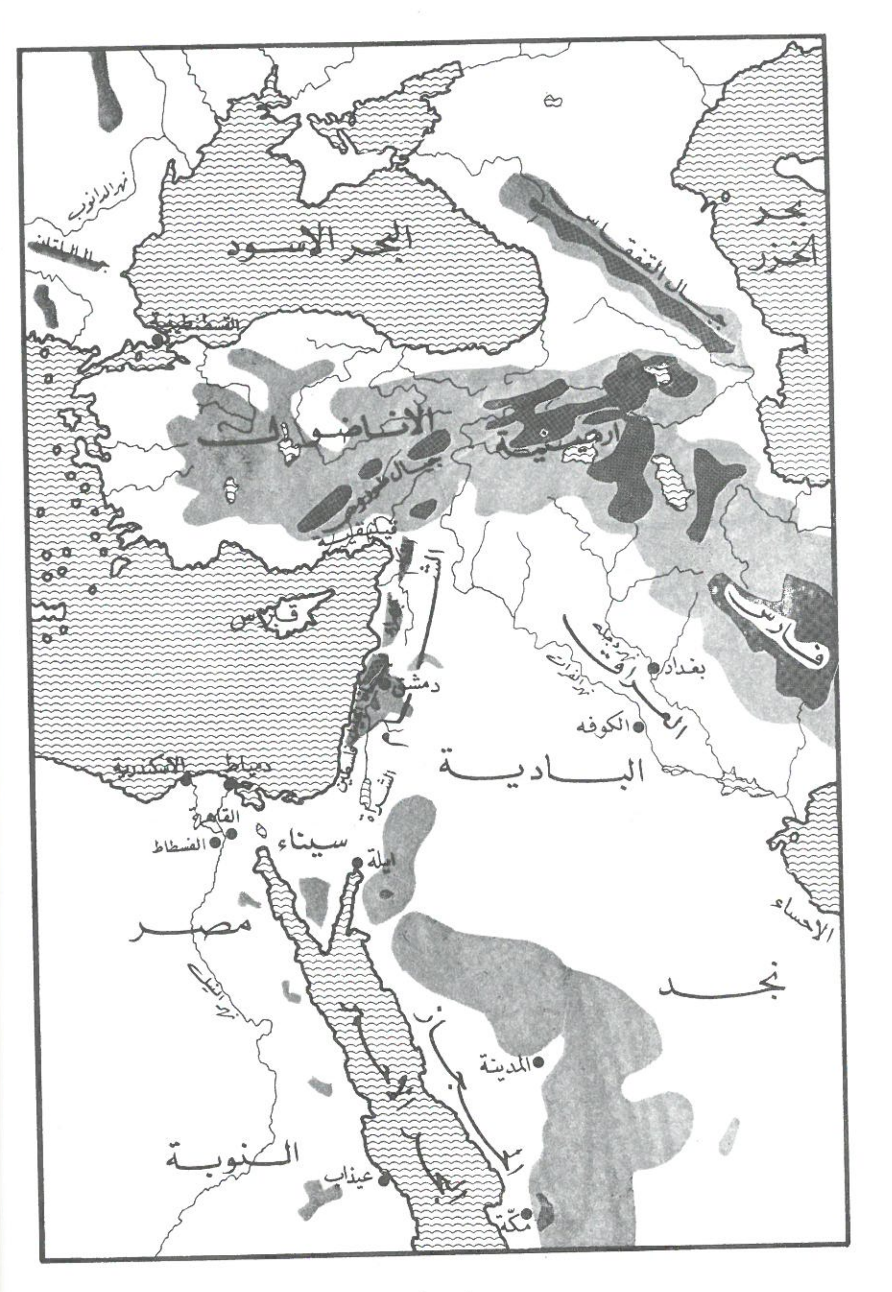
الجامعة الاميركية في بيروت
٣١ كانون الثاني ١٩٧٩ .

الفَصل الأوّل

"لبنان"
وَ"الشّام"
وَ"العرب"

وان جهلت جهّال قومي فضائلي   فقد عرفت فضلي معدٌّ ويعُربُ
ولا تعتبوني اذ خرجت مغاضباً   فمن بعض ما في ساحل الشام يُغْضَبُ
وكيف التذاذي ماء دجلة مُعْرِقاً   وامواهُ لبنانٍ الذُّ وأَعْذَبُ

احمد بن الحسين بن حيدرة الطرابلسي
المعروف بابن خراسان

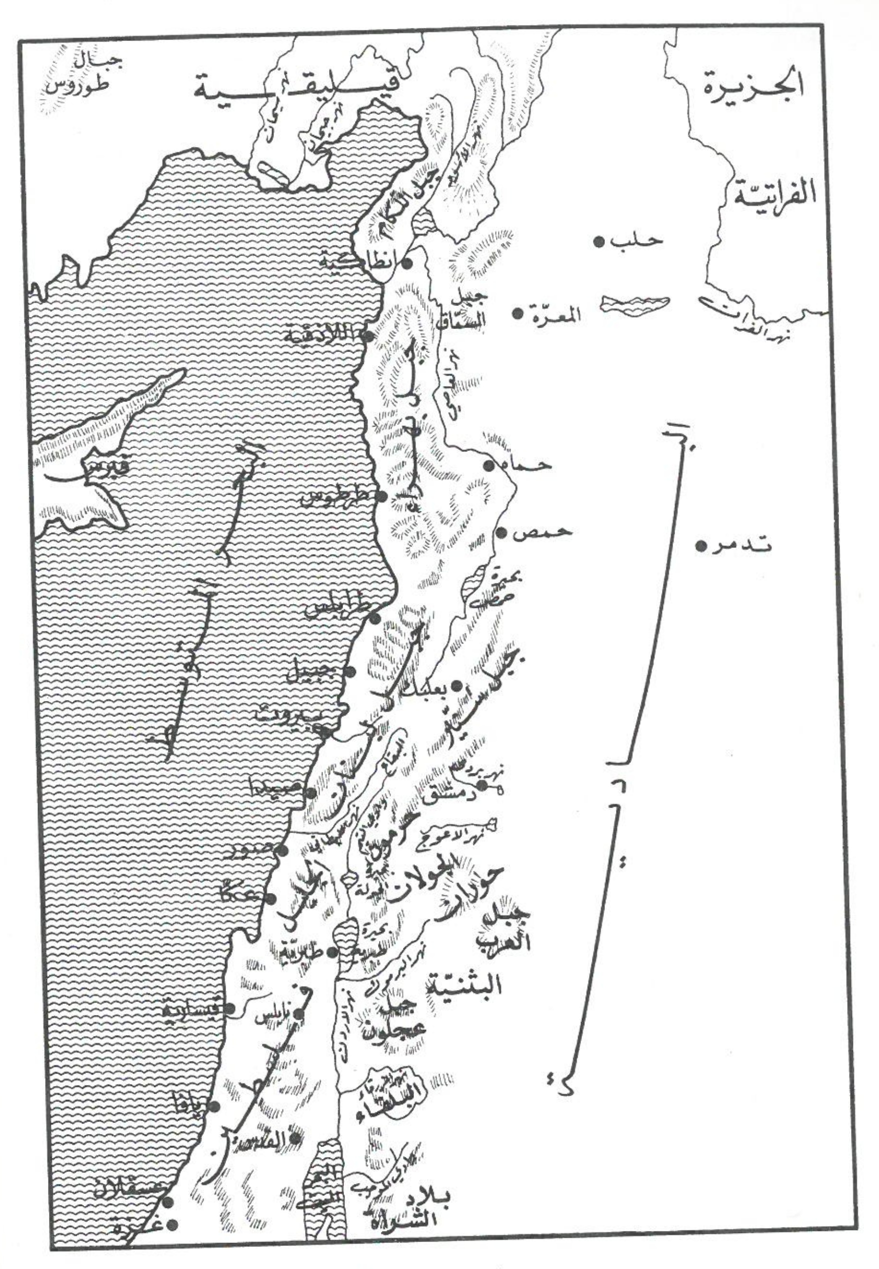


١ . بلاد المشرق

١

«لبنان» عبارة جغرافية اطلقت منذ القدم على منطقة جبلية محاذية لساحل «بلاد الشام». ومفاد لفظة «لبنان» (من الجذر السامي «لبن») هو البياض. والإشارة هي، ولا شك، الى بياض الثلوج التي تكسو القمم اللبنانية وتبرزها عن جوارها في فصل الشتاء. اما عبارة «بلاد الشام» فهي الاسم الذي اطلقه العرب، على الاقل منذ القرن الرابع او الخامس للميلاد، على عموم الارض الممتدّة من الفرات شرقاً الى البحر المتوسّط غرباً، ومن حدّ برّ الأناضول عند جبال طوروس Taurus شمالاً الى حدّ سيناء ومشارف الحجاز ورمال النفوذ جنوبا. وكان العرب القدماء يميّزون، على ما يبدو، بين مواطنهم «الشامية» (أي «الشمالية») ومواطنهم «اليمنية» (أي «الجنوبية»)، والفاصل بينها رمال النفوذ وما يليها من البادية الى الشرق والغرب.

ولم يكن لـ«بلاد الشام» في البدء اسم شامل تعرف به. واستمرّ الامر كذلك حتى جاء الإغريق، ومن بعدهم الرومان، فأطلقوا عليها اسم «سورية» Syria . والاسم هذا مأخوذ من لفظة Assyria ، أي «اشور». وكان يطلق قبلا على اجزاء شمالية من بلاد الشام خضعت في سابق الزمن للدولة الاشورية التي كان مركزها في شمال العراق. فأخذ الإغريق والرومان اسم الجزء وعمّموه على الكلّ. كما استحدث الإغريق والرومان أيضاً اسماء اخرى لتمييز بعض اجزاء البلاد الشامية عن غيرها. فاطلقوا اسم «قيليقية» Cilicia على السهل الساحلي الواقع بين جبال طوروس وجبل اللّكام Amanus في الشمال، واسم «فينيقية» Phoenicia على ما يلي «قيليقية» من الساحل الى الجنوب حتى مسقط جبل الكرمل، واسم «فلسطين» Palestina على البلاد الساحلية والجبلية



٢ . المرتفعات الشاميّة

الواقعة الى الجنوب من مسقط الكرمل ، واسم « سورية المجوّفة » Coelesyria على وادي نهر الاسود ووادي نهر العاصي (وربّما ايضاً وادي نهر الليطاني) الى الشرق من « قيليقية » و« فينيقية » ، واسم « العربية الصخرية » Arabia Petraea على المرتفعات المقابلة لـ « فلسطين » عبر غور نهر الاردن والبحر الميت وبادية وادي عربة. هذا بالاضافة الى أسماء تفصيلية أخرى لا مجال لذكرها هنا.

وكان الإغريق والرومان يطلقون اسم « العربية » Arabia (ومنها « العربية الصخرية » المذكورة) على كامل ما اعتبروه في زمانهم « بلاد العرب » ، وهي البلاد الممتدة من بادية الشام في الشمال الى أقاصي ما سميّ فيما بعد بـ« الجزيرة العربية » في الجنوب. ولفظة « عرب » (على الارجح بمعنى « شعب » أو « مجموعة قبائل ») لفظة مشتركة بين اللغات « السامية » اطلقت في الاصل على مجمل الناطقين باللهجات « العربية » من قبائل البادية المحيطة برمال النفوذ. ولربّما كانت هذه البادية الموطن الاساسي ليس فقط للعرب ، بل لكافة الشعوب الناطقة باللهجات « السامية » (ومنها « الامّورية » و« الكنعانية » و« الآرامية » و« العربية »). و« السامية » نسبة الى سام بن نوح المذكور في سفر التكوين من التوراة ، وهو الجدّ المفترض لجميع هذه الشعوب. و« العرب » هم آخر من خرج من البادية من الشعوب « السامية » هذه. وكان بدء نزوحهم الكثيف الى الحواضر المجاورة من بلاد الشام والعراق ، والى الاطراف الجبلية والساحلية من « الجزيرة العربية » ، في فترة حكم الإغريق والرومان في بلاد المشرق. فاشتقّ هؤلاء اسم الارض من اسم الشعب وعمّموه على كافة الاقطار التي حلّ بها العرب.

نعود الى « لبنان » ، آخذين بعين الاعتبار هيئة الارض التي عرفها الإغريق والرومان بـ« سورية » ، والعرب بـ« بلاد الشام » ، فنلاحظ ان المنطقة اللبنانية ، من الناحية الجغرافية ، هي الجزء الأوسط من الاطراف

الغربية الجبلية لهذه البلاد. وقد جعلت الطبيعة من مجمل الأطراف الجبلية الشامية هذه حاجزاً يفصل بين الساحل والداخل، ويلتقط الجزء الأكبر من الامطار التي تحملها الرياح الغربية باتجاه المشرق في فصل الشتاء، فلا تصل المناطق الداخلية الّا امطار قليلة. ويتميّز القسم اللبناني من هذا الحاجز المائي «الشامي» بكونه الجزء الأعلى والامنع منه، ممّا يجعل السفوح اللبنانية، وعلى الأخصّ الغربية منها المطلّة على البحر، أنزه المناطق الشامية وأوفرها مياها. والجدير بالذكر ان معظم الانهار التي تروي المناطق الداخلية من بلاد الشام (وأهم هذه الأنهار العاصي، والليطاني، والاردن، وبردى، والاعوج) تنبع امّا من جبل لبنان، او من سفوح جبل سنّير وجبل حرمون المقابلين لجبل لبنان من جهة الشرق. و«سنّير» هو جبل «لبنان الشرقي» الذي عرفه الإغريق والرومان باسم Anti-Libanus. اما «حرمون»، فهو الجبل المعروف اليوم باسم «جبل الشيخ».

وممّا لا شكّ فيه ان وفرة المياه في الاطراف الغربية من بلاد الشام كانت منذ اقدم العصور عاملا اساسياً في اجتذاب النزوح البشري إليها من قبل الشعوب «السامية» في البادية. والدليل على ذلك ان اسماء الاماكن في هذه الاطراف (ومنها اسم «لبنان») واسماء القرى اللبنانية والمدن «الفينيقية») هي بأكثريتها الساحقة اسماء سامية – امّورية، أو كنعانية، أو آرامية، أو عربية.[1] ويبدو ان الشعوب الناطقة بهذه اللغات كانت تخرج من البادية، كل شعب بدوره، فتستقرّ وتتحضّر امّا في داخل العراق، أو في الاطراف الشامية، أو في المناطق الجبلية والساحلية العريقة في الحضارة من «الجزيرة العربية». ويبدو ان العرب، في القرون الاربعة أو الخمسة السابقة للميلاد، كانوا آخر من تبقّى من الشعوب

١. انظر انيس فريحة، اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، بيروت، ١٩٥٦؛ ايضاً Stefan Wild, *Libanesishe Ortsnamen; Typologie und Deutung*, Beirut, 1973.

«السامية» في البادية، فلم يطل الوقت حتى بدأوا ينزحون بدورهم الى مختلف الجهات. فمنهم من نزح جنوبا واستقرّ في الحجاز، وبلاد حمير (وهي اليمن)، وحضرموت، وظفار، وعُمان، وساحل الاحساء المعروف قديماً بـ«البحرين» (وهو الاسم الذي اطلق فيما بعد على جزيرة «اوال» المقابلة لهذا الساحل). ومنهم من أمّ العراق فاستقرّ في «السواد» على ضفاف الفرات. ومنهم من نزح باتجاه الأطراف الشامية فتغلغل في جبالها وأوديتها حتى بلغ الساحل. ويرجح البعض ان هذا الخروج العربي من البادية ابتدأ على نطاقه الواسع في غضون القرن الميلادي الأوّل، أي بعد أن تمّت السيطرة للرومان على بلاد المشرق. وما ان جاء القرن الميلادي الرابع او الخامس حتى كان العنصر العربي قد طغى على اجزاء كبيرة من البلاد الشاميّة، ومنها اجزاء من المنطقة اللبنانيّة. وذلك في الوقت ذاته الذي تمّ فيه تعريب مناطق واسعة من العراق، والجزء الأكبر من حواضر «الجزيرة العربية». والواقع ان تعريب بلاد الشام لم يأت نتيجة لخروج بعض العرب من الجزيرة العربية واستقرارهم في المناطق الشامية في زمن الفتح الإسلامي، بل ان تعريب كلّ من الجزيرة العربية، والعراق، والشام، حدث في آن واحد، وذلك قبل الإسلام بزمن طويل.

وبسبب هذا النزوح العربي الكثيف، خلال القرون الخمسة الأولى بعد الميلاد، من البادية الداخلية الى الاطراف «الشامية» و«العراقية» و«اليمنية» المحيطة بها، بدأت اللهجات العربية تنتشر آنذاك بشكل لم يسبق له نظير، وأخذت تطغى على سائر اللهجات «السامية» التي كان ينطق بها سكّان هذه الأطراف من قبل. فحلّت محلّ اللهجات «المهرية» (ويسمّيها العرب «الحميرية») في جنوب «الجزيرة العربية»، وحلّت في الوقت نفسه تقريباً محلّ اللهجات الآرامية في مناطق كثيرة من العراق والشام. وكانت اللهجات العربية قد بدأت تمتزج باللهجات الآرامية، وربّما بما سبقها من اللهجات «السامية»، في بعض الارياف والحواضر

العراقية والشامية ، فأطلق العرب الاقحاح على الناطقين بهذا المزيج اللغوي اسم «النبط» ، أو «النبيط» ، او «الأنباط» (على الأرجح بمعنى «الفلاحين») . ويبدو ان «النبط» هؤلاء كانوا في «سواد» العراق وأطراف الشام طلائع «العرب المولّدة» ، أي العرب الذين خرجوا عن البداوة منذ القدم ، وعلى الأخصّ بعد القرن الميلادي الأوّل ، فامتزجوا بالحضر من أبناء الأرياف الشامية والعراقية ، وتركوا الرعي ، وامتهنوا الفلاحة والصناعة والتجارة ، وانقطعت العلاقة بينهم وبين القبائل العربية التي كانوا ينتمون اليها في الأصل . وما ان اقبل القرن الميلادي الخامس أو السادس حتى ظهرت اللغة العربية «الفصحى» كلغة أدبية مشتركة بين العرب «العاربة» في البادية والنبط «المستعربة» في أطرافها ، تلقى بها الخطب في المناسبات الرسمية ، وتنظم فيها غرر القصائد . وكانت اللغة «السريانية» ، في المقابل ، فصحى الآرامية ولغة الطقس الكنسي في العراق والشام ، وربّما كذلك في بعض انحاء «الجزيرة العربية» .

٢

لا نعرف الخبر الأكيد عن بداية امر العرب في الاطراف الغربية من بلاد الشام . وجلّ ما يمكننا ان نستعين به للوقوف على شيء من هذا الامر هو اسماء بعض المناطق من هذه الاطراف كما كانت معروفة منذ العصور الإسلامية الأولى . ومن أوضح هذه الأسماء «جبل عاملة» في الجليل الأعلى ، و«جبل بهراء» (وهو جبل العلويّين اليوم) بين اللّكام ولبنان ، و«وادي تيم الله بن ثعلبة» (اي «وادي التيم») عند اسفل جبل حرمون من ناحية الغرب . والمعروف ان «عاملة» و«بهراء» و«تيم الله بن ثعلبة» هي اسماء لقبائل من عرب «اليمن» . وقد استمرّ بنو «ثعلب»

او «ثعلبة» ، من بين هذه القبائل الثلاث ، يقطنون بعض المناطق المجاورة لـ«وادي تيم الله بن ثعلبة» ، ويعرفون باسمهم القديم ، حتى أواخر القرن الميلادي الثالث عشر على الأقلّ (انظر صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت . . . ، ص ٥٤ ، ٧١ ، ٨٥ ، حيث يرد ذكر «بني ثعلب» في مشغرا ، على السفوح اللبنانية المطلّة على أسفل البقاع ، والقريبة من وادي التيم ، في أخبار عام ١٢٨٨ م ، وكذلك ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٢٢ ، حيث يرد ايضاً ذكر «امير ثعلبة» و«العربان الثعالبة» في مشغرا) .

ومن الأدلّة التاريخية على قدم الوجود العربي في الشام ما يتعلّق بقيام ممالك «النبط» في البتراء ، من «العربية الصخرية» (من الاسم اليوناني Petra ، والاسم العربي في الاصل «سلع» ، بمعنى «الشقوق الصخرية») ، ثم في تدمر ، بين حمص والفرات (من الجذر السامي «دمر» ، كذلك بمعنى «صخر» ، واسمها الروماني Palmyra بالاشارة الى نخيلها) . والمعروف ان ملوك «نبط» البتراء سيطروا في زمانهم على اجزاء كبيرة من جنوب الشام ، بما فيها دمشق ، وذلك على الاخصّ في اوائل فترة الحكم الروماني في البلاد . ثم جاء دور ملوك «نبط» تدمر ، فتمكّنوا في عهد الزبّاء (وهي «زنوبيا») ، في اواخر القرن الميلادي الثالث ، من مدّ سيطرتهم على كامل المناطق الشامية الشمالية ، ونقلوا قاعدة ملكهم فترة من الزمن الى حمص ، في وادي العاصي . ولم يطل الوقت حتى جاء دور ملوك «غسّان» ، من بني جفنة ، وهم عرب اقحاح من «اليمن» ،[٢] فسيطر هؤلاء على كامل البلاد التي كانت من قبل لملوك «نبط» البتراء ،

٢ . غسّان اسم ماء في بلاد «اليمن» . ولعلّ الغساسنة كانوا في الأصل من عرب البادية الذين نزحوا جنوباً الى «اليمن» واستقرّوا هناك فترة من الزمن ، في القرون الميلادية الاولى ، ثم عادوا فنزحوا شمالاً الى مشارف الشام . ولعلّهم كانوا من سكّان «اليمن» القدامى الذين استعربوا مع الزمن ، ثم نزحوا الى الشام .

وربّما على مناطق اوسع . ويبدو ان الجليل الأعلى ، ووادي التيم ، والبقاع ، وربّما كذلك الاجزاء الجنوبية من جبل لبنان ، كانت جميعها مناطق تابعة في زمن الحكم الروماني لملوك « نبط » البتراء ، ثم لملوك « غسّان » ، ممّا يشير الى ان معظم سكّان هذه المناطق كانوا في ذلك الحين امّا من « النبط » ، وأمّا مزيجا من « النبط » وأقحاح العرب .

وكان بدء انتشار المسيحية في بلاد الشام في عهد « الرسل » ، اي في القرن الميلادي الأوّل . واخذت المسيحية تنتشر في الوقت ذاته في مختلف الاقطار ، ومنها « الجزيرة العربية » . ثم تحوّلت الدولة الرومانية الى المسيحية في القرن الميلادي الرابع ، ابتداء بعهد الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦–٣٣٧ م) الذي نقل قاعدة ملكه من رومية الى القسطنطينية . وما أن أشرف هذا القرن على النهاية حتى طغى الدين المسيحي على كامل البلاد الرومانية ، بما فيها بلاد الشام ، وذلك في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩–٣٩٥ م) . فدان العرب و« النبط » في الشام بالمسيحية كما دان بها الآراميون وغيرهم من بقايا الشعوب القديمة في مختلف انحاء البلاد . وأصبحت « السريانية » ، وهي كما ذكرنا فصحى الآرامية ، لغة الطقس الكنسي لدى الجميع ، فيما استمرّ العرب و« النبط » والآراميون من أهل الشام يحافظون على لغاتهم الخاصة كلهجات محكية . وهناك مجال للافتراض بأن التعامل بين هؤلاء العرب و« النبط » والآراميين فرض عليهم ، في احيان كثيرة ، ان يتكلّموا العربية و« النبطية » والآرامية على حدّ سواء . وفي هذا الافتراض ما يفسّر سرعة انتشار العربية كلغة محكية في كافة انحاء البلاد عندما اكتملت سيطرة العرب عليها بعد الفتح الإسلامي .

٣

وكان بدء ظهور الإسلام في مكة ، وهي قاعدة عرب « قريش » في الحجاز ، حوالي عام ٦١٠ للميلاد . وانتقلت قاعدة الدين الجديد عام ٦٢٢ (وهو عام الهجرة)[3] الى يثرب ، وهي « المدينة » ، فلم يمض زمن يسير حتى تحوّلت القبائل العربية بمعظمها الى الإسلام ، ومنها بعض القبائل المنتشرة في أجزاء من بلاد الشام . وتمّ الفتح الإسلامي للشام بين عامي ٦٣٤ و ٦٤١ للميلاد ، اي في عهد ابي بكر الصدّيق (٦٣٢–٦٣٤ م) وعمر بن الخطّاب (٦٣٤–٦٤٤ م) ، وخرج « الروم » (وهو الاسم الذي اطلقه العرب على الرومان) من البلاد . فأوكل تدبير الشام أوّل الأمر لأبي عبيدة الجرّاح ، ثم ليزيد بن أبي سفيان ومن بعده لأخيه معاوية ، من بني أميّة . فجعل هؤلاء قاعدة حكمهم في دمشق . وعندما صفت الخلافة لمعاوية (٦٦١–٦٨٠ م) بعد مقتل علي بن أبي طالب في الكوفة ، اصبحت دمشق قاعدة الدولة الإسلامية . واستمرّت كذلك طيلة عهد « بني أميّة » . ثم جاء دور « بني العبّاس » عام ٧٥٠ م ، فنقل هؤلاء مركز الخلافة الى العراق .

وما ان انتهى المسلمون من فتوح الشام حتى بادروا في اتّخاذ التدابير اللازمة لضبطها ، فقسموها الى أربع مقاطعات سميّت بـ« الأجناد » ، وهي جند حمص ، وجند دمشق ، وجند الاردن (وقاعدته طبريّة) ، وجند فلسطين (وقاعدته الرملة) . ثم فصل جند قنّسرين عن حمص عام ٦٨٠ م ليشمل المناطق المتاخمة لبلاد الروم في الشمال ، فأصبح عدد الاجناد خمسة . وكان جبل لبنان والجزء المحاذي له من الساحل ، من

---

٣ . كان بدء اعتماد التقويم الهجري في الدولة الاسلامية في عهد عمر بن الخطّاب عام ١٦ هـ / ٦٣٧ م . انظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك (القاهرة ، ١٩٦٩) ، ج ٤ ، ص ٣٨ – ٣٩ ، ٢٠٩ .

طرابلس الى صيدا، من المناطق التابعة لجند دمشق. وكذلك بلاد بعلبك، والبقاع، ووادي التيم. امّا جبل عاملة، من الجليل الأعلى، فأتبع مع ثغر صور بجند الاردن. وكان نهر «القاسمية»، وهو الجزء الأسفل من الليطاني، الحدّ الفاصل بين جند دمشق وجند الاردن عند الساحل.

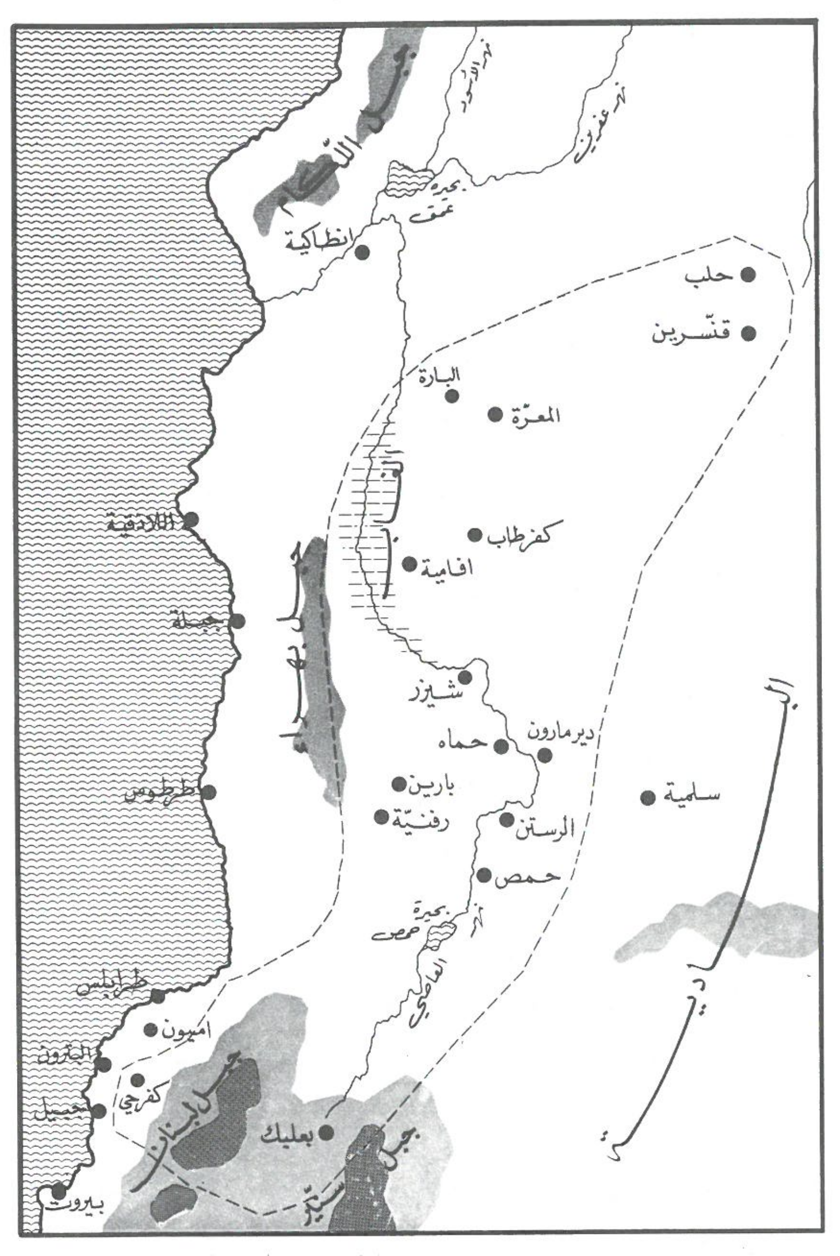
وانتشر الإسلام منذ وقت مبكّر جداً بين «النبط» والعرب وغيرهم من سكّان الاجزاء الجنوبية من جبل لبنان، وكذلك في سائر المناطق الجبلية من جند دمشق وجند الاردن. وما أن جاء القرن الميلادي الثامن او التاسع (الثاني والثالث للهجرة) حتى صفت هذه المناطق للدين الجديد او كادت. وهذا ما يستخلص من مضمون كتب الأخبار بشأنها. امّا الأجزاء الشمالية من جبل لبنان، فبقي اهلها على المسيحية (او «النصرانية»، كما أسماها العرب). وكان النصارى في الشام على نوعين. منهم «الملكية»، او «الملكانية» (نسبة الى «ملك» الروم في القسطنطينية)، وهم اتباع كنيسة «الروم» من اهل البلاد. ومنهم «اليعاقبة» الذين حذوا حذو الارمن في بلادهم، والاقباط في مصر، ورفضوا الانصياع الى مذهب «الروم»، فانشقّوا عنهم في غضون القرن الميلادي السادس وانتظموا في كنيسة «سريانية» مستقلّة بقيادة المدعو يعقوب البردعي، او البرادعي، ولذلك عرفوا بـ«اليعاقبة». وكان «الروم» وأتباعهم من الملكية في الشام ومصر يقولون بـ«الطبيعتين» في المسيح، فيعتبرونه في الجوهر إلهاً وإنساناً في آن واحد. اما اليعاقبة من نصارى الشام، فكانوا يقولون مع الارمن والأقباط بـ«الطبيعة الواحدة»، ويعتبرون ان الله أصبح انساناً في المسيح، لكنه بقي في جوهره إلهاً كاملاً منزّهاً عن الناسوت، حتى عند اتخاذه صورة البشر. وحاول الروم في غضون القرن السابع ان يوفّقوا بين مذهبهم القائل بالطبيعتين، ومذهب الأرمن والاقباط واليعاقبة القائل بالطبيعة الواحدة. فاقترحوا حلّاً وسطاً في المعتقد يقرّ من ناحية بأن في المسيح طبيعتين، ويشدّد من ناحية أخرى على ان انصهار هاتين الطبيعتين في

شخص المسيح يجعل منهما مصدراً لفعل واحد و«مشيئة واحدة». غير ان اليعاقبة والأرمن والاقباط لم يقبلوا بهذا الحلّ، واستمرّوا يقولون بالطبيعة الواحدة في المسيح، فباءت محاولة التوفيق في المذهب بينهم وبين الروم بالفشل. وما ان ثبت هذا الفشل حتى عاد الروم الى القول بالطبيعتين والمشيئتين في المسيح، فالتأم «المجمع المسكوني السادس» في القسطنطينية عام ٦٨٠ م وكفّر القول بـ«المشيئة الواحدة» والقائلين به.

ويبدو ان نصارى المناطق الشمالية من لبنان في زمن الفتح الإسلامي كانوا بمعظمهم على مذهب الملكية، وليس على مذهب اليعاقبة. والظاهر ان فريقاً كبيراً منهم كان ينتمي الى مجموعة خاصة ضمن طائفة الملكية عرفت بـ«المارونية» نسبة الى مارون الناسك، وهو قدّيس نشط في شمال الشام في اواخر القرن الميلادي الرابع واوائل القرن الخامس. فأنشأ اتباعه من الرهبان ديراً يحمل اسمه في وادي العاصي، الى الشرق من حماه. وسرعان ما تعاظم شأن رهبان «دير مارون» عن طريق انتصارهم لمذهب الملكية ضدّ اليعاقبة، فانتظم الملكيون من نصارى وادي العاصي والمناطق المجاورة—ومنها مناطق شمال لبنان—تحت قيادتهم وصاروا يعرفون بـ«المارونية» او «الموارنة». والمرجّح ان معظم هؤلاء الموارنة كانوا، من ناحية العرق، من «نبط» الشام، يقطنون المناطق الزراعية في الأرياف ويعملون في الفلاحة. وكان من بينهم بعض الرعاة من ابناء العشائر في الجبال، وربّما كان هؤلاء من اقحاح العرب.[4] والمعروف ان ناحية وادي العاصي كانت في العهد الروماني من مواطن «النبط»، وذلك على الأقلّ منذ عهد الزبّاء، ملكة تدمر، في اواخر القرن الميلادي الثالث.

---

٤. استمرّ انقسام العشائر المارونية في العاقورة، في جبل لبنان، بين الغرض «القيسي» (اي غرض عرب «الشمال») والغرض «اليمني» (اي غرض عرب «الجنوب») حتى القرن السادس عشر على الاقلّ. ولعل في ذلك ما يشير الى عراقة هذه العشائر، وربما غيرهم من الموارنة، في العروبة.



٣ . مناطق تواجد الموارنة في الشام حتى أواسط القرن الميلادي العاشر

وكانت القبائل العربية تنزل في بعض المناطق من الجوار القريب ، ومنها «جبل بهراء» منزل عرب بهراء من «اليمن» . ولم تكن اللغة العربية ، على كل حال ، غريبة عن اهل تلك الأطراف . ومن الأكيد ان الموارنة كانوا يتكلّمون العربية ويكتبون بها ، وليس بغيرها ، على الأقلّ ابتداءً بالقرن الميلادي التاسع .

ولم يكن الموارنة في زمن الفتح العربي قد تنظّموا بعد في كنيسة مستقلّة . بل كانوا تابعين لبطريرك الملكية الجالس على كرسي «انطاكية وسائر المشرق»[٥] . غير ان العلاقة بين الموارنة والكرسي الانطاكي لطائفة الملكية لم تكن حسنة ، على ما يظهر . فالموارنة كانوا ، كما سبق وذكرنا ، نصارى الأرياف من «النبط» وغيرهم ، من ابناء وادي العاصي وجواره . اما المتسلّطون على الكرسي الانطاكي ، وبالتالي على الكنيسة الملكية الرسمية ، فكانوا ينتمون على الأرجح الى طبقة الأعيان في المدن . ويبدو ان هؤلاء كانوا امّا من الروم المقيمين في الشام ، او من ابناء الأسر المحلّية من المختلطين بالروم والمتخلّقين بأخلاقهم والمجيدين للغة اليونانية ، وهي لغة اهل الحكم . ولا بدّ ان الفوارق الاجتماعية العميقة بين اتباع رهبان دير مارون من الفلّاحين والرعاة من جهة ، والقيّمين على الكرسي الانطاكي من اعيان المدن وأثريائها من جهة أخرى ، كانت من العوامل الأساسية التي نشأت على أثرها الخلافات بين الموارنة والكنيسة الملكية الرسمية . غير ان استمرار حكم الروم في الشام حتى اواسط القرن الميلادي السابع لم يسمح للموارنة بالانفصال التام عن الكنيسة الملكية . اذ لم يكن في مصلحة الروم ان تنشأ في البلاد كنيسة جديدة مستقلّة عنهم ، خاصة

٥ . كانت انطاكية بين القرن الرابع والأوّل قبل الميلاد قاعدة الدولة السلوقية المشتلمة في الأصل على الشام والعراق وبلاد فارس ، وفي ذلك ما يفسّر عبارة «سائر المشرق» للدلالة على المناطق الملحقة بالكرسي الانطاكي في العرف الكنسي المسيحي .

بعد ان عانوا الأمرّين من جرّاء انفصال اليعاقبة وغيرهم عن «الكنيسة المسكونية» (اي كنيسة الدولة الرومانية) في السابق.

والواضح ان هذا الوضع لم يتغيّر حتى تمّ الفتح الإسلامي لبلاد الشام. فخرج الروم منها على الاثر، ولم يعودوا قادرين على التحكّم الكامل بأمور الطائفة الملكية فيها عن بعد. حتى ان بطاركة الملكية بالذات لم يتمكّنوا من البقاء في انطاكية لفترة من الزمن، بل خرجوا منها. والمعروف ان البعض منهم استقرّ في ذلك الوقت في القسطنطينية، ولم يعد له من رئاسة الكنيسة الملكية في الشام الّا الاسم. وهكذا انهار التنظيم المركزي لطائفة الملكية في الكرسي الانطاكي، وقوي من جرّاء ذلك نفوذ رهبان دير مارون في مناطقهم.

وانعقد «المجمع المسكوني السادس» في القسطنطينية عام ٦٨٠ م، وقام بطريرك انطاكية المدعو مكاريوس Makarios، وهو المقيم آنذاك في القسطنطينية، يدافع عن مذهب «المشيئة الواحدة». فما أن أقرّ المجمع المذكور تكفير هذا المذهب حتى صدر الأمر بإقالة مكاريوس واستبداله على الكرسي الانطاكي بالمدعو ثاوفانس Theophanes الذي استمرّ مقيماً هو أيضاً خارج الشام، وعلى الأرجح في القسطنطينية. وتمنّع رهبان دير مارون، على ما يظهر، عن القبول بالبطريرك الجديد المفروض على الكنيسة الملكية في الشام من قبل الروم، واعتبروا مركزه خالياً. وربّما شجّعهم على ذلك بقاء البطريرك الجديد خارج البلاد. فنصّبوا رئيسهم، وهو المدعو يوحنا مارون، بطريركاً على كرسي «انطاكية وسائر المشرق»، واعترف الموارنة دون غيرهم من الملكية برئاسة هذا البطريرك. وهكذا تمّ الانشقاق في الكنيسة الملكيّة في الشام بين الملكيّين الموالين للروم، والموارنة من أتباع رهبان دير مارون، في العام الأوّل او الثاني من خلافة يزيد ابن معاوية (٦٨٠ – ٦٨٣ م) من بني أميّة في دمشق. وتقول التواريخ المارونية التقليدية ان البطريرك يوحنا مارون استمرّ مقيما في ديره في وادي

العاصي حتى عام ٦٨٥ م، عندما اضطرته الظروف ان ينقل مركزه الى جبل لبنان، كما سيأتي.[6]

وتفيد المصادر القديمة ان الكنيسة المارونية في بداية عهدها بقيت متمسّكة بمذهب المشيئة الواحدة – وهو المذهب الذي اعتمدته «الكنيسة المسكونيّة» منذ عام ٦٣٨ م – حتى بعد صدور قرار المجمع السادس بالعدول عنه وتكفيره. غير ان علماء الموارنة يرفضون هذا القول رفضا باتاً، ويعتبرونه افتراء مغرضاً على الطائفة لا يستند الى ايّ اساس من الصحّة. يبقى المهمّ، وهو ثبوت استقلال الطائفة المارونية عن الملكية في الشام في اواخر القرن السابع، ووجود الموارنة في المناطق الشمالية من جبل لبنان منذ أوائل هذا القرن. وهذان الأمران لا شكّ فيهما على الاطلاق.

وكان يقطن منطقة جبل اللّكام في ذلك الوقت، بين مدينة انطاكية وسهل «قيليقية» المحاذي لبلاد الروم، قوم من النصارى عرفهم العرب باسم «الجراجمة» (نسبة الى قاعدتهم في بلدة «جرجومة»)، وعرفهم الروم باسم Mardaite، وتعريبه «المردة».[7] ويبدو ان هؤلاء «الجراجمة» او «المردة» كانوا في الأصل عشائر من برّ الأناضول او ما يليه شرقاً من بلاد آسيا الصغرى، جاء بهم الروم الى جبل اللّكام في زمن متأخّر ووطّنوهم هناك كرديف عسكري للاستعانة بهم في حروبهم ضدّ الفرس أوّل الأمر، ثمّ ضدّ المسلمين. والواقع ان هؤلاء «الجراجمة» او «المردة» استمرّوا مقيمين في تلك المنطقة بعد الفتح الإسلامي للشام، وبقوا في الوقت ذاته على صلة عسكرية بالروم بعد جلائهم عن البلاد. فتكرّرت

---

٦. انظر ص ٤٣.

٧. لا يرد هذا التعريب للفظة Mardaite في المصادر العربية القديمة. والمرجح ان البطريرك اسطفان الدويهي كان اوّل من اخذ هذا الاسم عن المصادر اليونانية فضبطه بالعربية على هذا الشكل.

غاراتهم على وادي العاصي، ولبنان، وغير ذلك من الاطراف الشامية في عهد الخلفاء المتقدّمين من بني اميّة، ممّا وضع هؤلاء الخلفاء في حرج شديد بسببهم. وتفيد المصادر الإسلاميّة (البلاذري) وتواريخ الروم (Theophanes Confessor) بأن «الجراجمة» او «المردة» كانوا يخرجون من جبل اللّكام الى الشام، فينضم اليهم الكثيرون من ابناء البلاد من الأنباط، والأسرى، واللصوص، واباق العبيد، ويغيرون معهم على مواقع المسلمين. وقد بلغت هذه الغارات اشدّها في عهد يزيد بن معاوية، وابنه معاوية الثاني (٦٨٣ م)، ثم في عهد نسيبه مروان بن الحكم (٦٨٣–٦٨٥ م)، عندما كانت الخلافة الأموية منشغلة بثورة الحسين بن علي في العراق (٦٨٠ م)، ثمّ بثورة عبدالله بن الزبير في الحجاز (٦٨٠–٦٩٣ م). وصدفت وفاة ملك الروم المدعو قسطنطين «الملتحي» Pogonatos، وهو قسطنطين الرابع، عام ٦٨٥ م، فخلفه ابنه يوستنيانوس الثاني الذي عرف فيما بعد بـ«الأخرم» Ioustinianos Rhinotmetos. وفي العام ذاته توفّي مروان بن الحكم وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان (٦٨٥–٧٠٥ م). ففاتح عبد الملك يوستنيانوس بأمر «الجراجمة» او «المردة» على أن يردّ ملك الروم شرّهم عن المسلمين، فيدفع له الخليفة «الف دينار كلّ جمعة» (على حدّ قول البلاذري) لقاء ذلك. وهكذا تمّ الصلح بين الفريقين، فأخرج يوستنيانوس الثاني معظم «الجراجمة» او «المردة» من جبل اللّكام وفرّقهم في بلاده. وتمكّن المسلمون من القضاء على سطوة من تبقّى منهم في «جرجومة» وجوارها في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥–٧١٥ م)، فخرّبوا مدينتهم عام ٧٠٨ م ووزّعوهم على مناطق مختلفة من شمال الشام. ولم يعد لهم بعد ذلك شأن يذكر.

وذهب بعض المتأخّرين من المؤرّخين الموارنة، ومنهم البطريرك اسطفان الدويهي، الى ان الموارنة هم في الأصل من «المردة»، أي «الجراجمة». ووافقهم في ذلك الى حدّ ما بعض المستشرقين المعروفين،

ومن هؤلاء الأب هنري لامنس اليسوعي (توفّي ١٩٣٧). وليس هناك ما يثبت اي علاقة بين الفريقين الاّ الموافقة في الزمن، وواقع توغّل «الجراجمة» او «المردة» في الأطراف الجبلية من الشام (ومنها لبنان) عندما كانوا يقومون بغاراتهم على البلاد. ولعلّ عناصر منهم بقيت مستقرّة في بعض هذه الاطراف، كما يفترض القائلون بصلة الموارنة بـ«المردة»، والله اعلم.

٤

ويستخلص من اخبار رواها اسطفان الدويهي المذكور في كتابه «تاريخ الطائفة المارونية» عن اصول مفقودة ان البطريرك يوحنا مارون نقل مركزه عام ٦٨٥ م الى جبل لبنان، واستقرّ في قرية كفرحيّ من بلاد البترون، هرباً من الغارة التي شنّها عسكر الروم في ذلك العام على دير مارون في وادي العاصي. وتضيف هذه الأخبار ان الروم تمكّنوا في هذه الغارة من تخريب دير مارون وقتل خمسمئة نفر من رهبانه. ثم لحقوا بالموارنة الهاربين الى لبنان مع بطريركهم، فهزمهم هؤلاء في أميون، على مقربة من طرابلس، حيث سقط قائدان من الروم هما موريق Maurikios وموريقان Markianos. فدفن الأوّل منهما هناك وشيّدت كنيسة على قبره. والواضح من كلام الدويهي ان هذه الكنيسة شيّدها الملكية من انصار الروم، وليس الموارنة. والمعروف ان منطقة اميون—وهي «الكورة»—كانت وما زالت حتى اليوم مأهولة من الملكية. ويضيف الدويهي ان قائد الموارنة في واقعة أميون كان مقدّم «المردة» المدعو إبراهيم، وهو ابن اخت البطريرك يوحنا مارون.

ويستنتج من هذه الأخبار—وليس لدينا ما يثبتها قطعاً—ان عسكر الروم الذي ارسله يوستنيانوس الثاني، بناء على طلب عبد الملك بن مروان،

لإخراج «المردة» من جبل اللّكام بعد صلح عام ٦٨٥ م استغلّ فرصة وجوده في الشام للاقتصاص من الموارنة المنفصلين حديثاً عن الكنيسة الملكية الموالية للقسطنطينية. وفي ذلك ما يفسّر الحملة التي شنّها هذا العسكر على دير مارون (على حدّ قول الدويهي)، ممّا اضطر البطريرك يوحنا مارون ان يلجأ الى حصن الموارنة المنيع في جبل لبنان. غير ان الموارنة بقوا مقيمين في وادي العاصي بعد هذه الحملة بمدّة طويلة تزيد على الثلاثة قرون. ولعلّهم اعادوا هناك بناء دير مارون الذي خرب فيما بعد (كما يقول المسعودي) بسبب «تواتر الفتن من الاعراب وحيف السلطان» (المسعودي، كتاب التنبيه والإشراف، بغداد، ١٩٣٨، ص ١٣١–١٣٢). أما قول الدويهي بأن «المقدّم ابراهيم»–وهو قائد الموارنة المفترض في واقعة اميون–كان ابن اخت البطريرك الماروني من ناحية، ومقدّم «المردة» من ناحية أخرى، فهو من اجتهاد المؤرّخ المذكور في محاولته للربط بين تاريخ الموارنة وتاريخ «المردة». والمعطيات الظرفية التي اوردناها سابقا حول اصل الموارنة لا تتّفق مع هذا الاجتهاد.

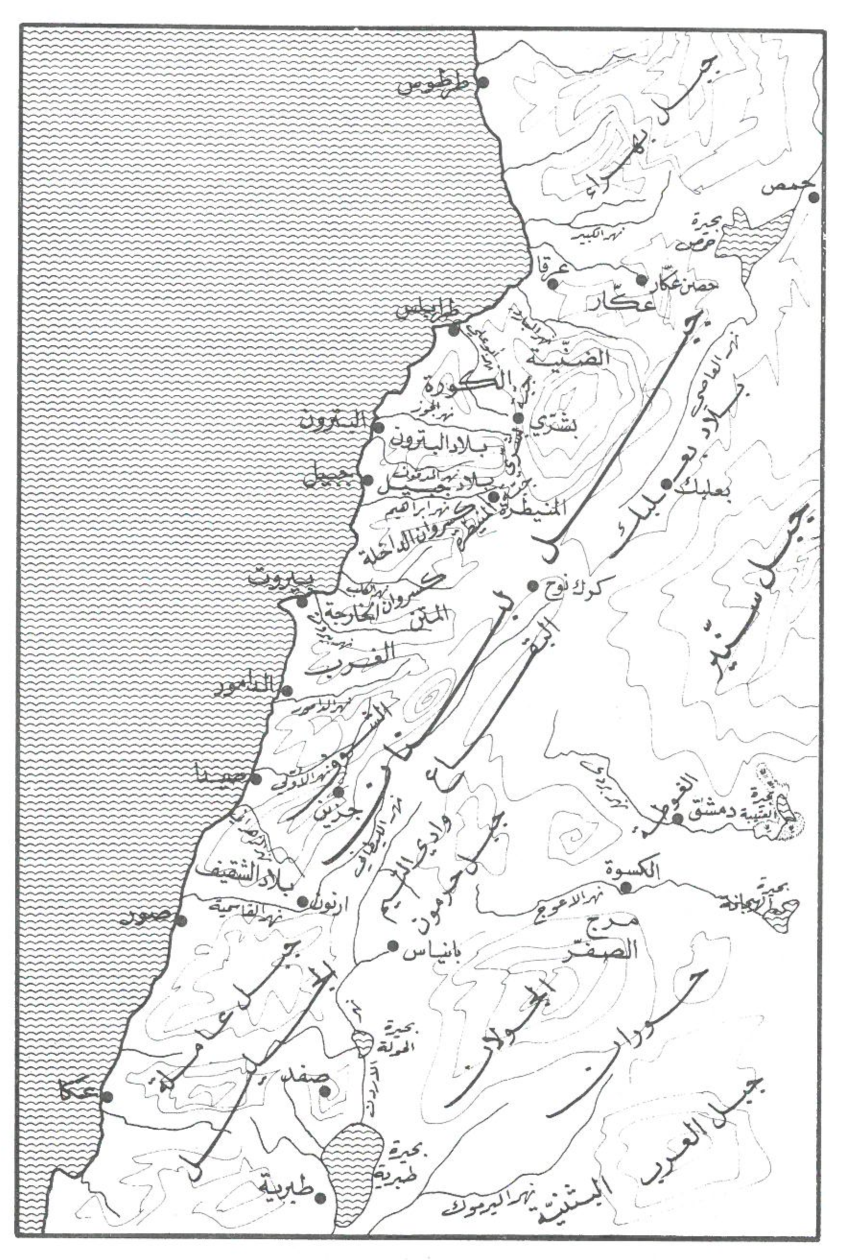
٥

كان الموارنة، كما ذكرنا، من النصارى المتواجدين في جبل لبنان في اواخر عهد الروم، فاستمرّوا على دينهم هناك بعد الفتح الإسلامي، بينما تحوّل سكّان المناطق اللبنانية الجنوبيّة الى الاسلام، بشكل أو بآخر، في ظرف قرن او قرنين. والمرجّح ان الحدّ الفاصل بين مواطن النصارى القدامى في الشمال، والمناطق التي تحوّل أهلها الى الإسلام في الجنوب، كان وادي نهر الجعماني المعروف عند مصبّه بـ«نهر بيروت». وكانت المناطق الى الشمال من نهر الجعماني، وحتى نهر ابراهيم، تعرف بـ«جبل كسروان». ومنها «الخارجة» بين نهر الجعماني ونهر الكلب،

و«الداخلة» بين نهر الكلب ونهر ابراهيم. ولفظة «كسروان» من الفارسية، وهي جمع لاسم العلم «كسرى». ولعلّ الفرس جاؤوا بعشائر من بلادهم تحمل هذا الاسم، فوطّنوها في المناطق المذكورة في اوائل القرن السابع، عند احتلالهم لبلاد الشام في غضون الحرب الأخيرة التي قامت بينهم وبين الروم بين عامي ٦٠٣ و ٦٢٨ م. والمعروف أن عشائر اخرى من الفرس توطّنت في تلك الفترة في بعلبك وفي مواضع غيرها من الاطراف الشامية. وكانت المناطق الى الشمال من «جبل كسروان» تعرف بشكل خاص باسم «جبل لبنان». ومن هذه المناطق جبّة[٨] المنيطرة، وبلاد جبيل، وبلاد البترون، وجبّة بشرّي. امّا المناطق الى الجنوب من «جبل كسروان»، فكانت تعرف بـ«الشوف»، او جمعاً بـ«الاشواف»، بمعنى «الأرض المرتفعة». ومن هذه المناطق «المتن»، بين نهر الجعماني و«درب المغيثة» (وهي عقبة «ضهر البيدر» حيث تمرّ الطريق من بيروت الى دمشق اليوم)، يليها «جبل بيروت» وهو «الغرب»، ثم «جبل صيدا» وهو «الشوف» بالتحديد، والفاصل بينهما وادي نهر الصفا المعروف عند مصبّه بـ«نهر الدامور».

امّا المدن الساحلية المحاذية للجبل اللبناني وجبل عاملة، فكانت منذ القدم مراكز تجارية مزدهرة. وكانت لبيروت في العهد الروماني مكانة مميّزة بين هذه المدن، وقد اشتهرت على الاخصّ كمركز لتعليم الحقوق. فلمّا اخذت الأعمال التجارية في حوض البحر المتوسّط تتضعضع وتتقلّص بسبب اجتياح القبائل الجرمانية لبلاد اوروبا الغربية وشمال افريقية في غضون القرن الميلادي الخامس، تأثرت مدن الساحل الشامي بالازمة الاقتصادية العامة التي نشأت عن هذا الوضع وبدأت معالم الازدهار تزول عنها شيئاً فشيئاً. ثم قامت الحروب بين الروم والفرس بعد وفاة

٨. «الجبّة»، في العرف المحليّ، هي المنطقة الجبليّة التي تتّخذ شكل زاوية.



٤ . لبنان وجواره مع الأسماء التقليديّة للمناطق

الامبراطور يوستنيانوس الأوّل الملقّب بـ« الكبير » عام ٥٦٥ م ، فزادت هذه الحروب في تدهور الاحوال في بلاد المشرق على وجه العموم ، وفي مدن الساحل الشامي على وجه الخصوص . وجاءت زلازل القرن الميلادي السادس في تلك الاثناء ، فدمّرت مدينة بيروت بشكل خاص حتى أصبح معظمها خراباً . ثم جاء الفتح الإسلامي ، وخرجت جاليات الروم من جميع هذه المدن ، وخرج منها كذلك انصار الروم من الأهالي . ودخلها المسلمون ، فاستقدموا إليها جماعات من اتباعهم ، وشحنوها بالمقاتلة لردّ هجمات الروم المتكرّرة على الساحل الشامي في الفترة التي تلت . ولهذا السبب فإن طرابلس ، وبيروت ، وصيدا ، وصور ، وغيرها من ثغور هذا الساحل تحوّلت في وقت قصير الى مدن يغلب عليها الطابع الإسلامي ، كما تحوّلت الأرياف المحاذية لها والقريبة منها — فيما عدا شمال لبنان — الى مناطق إسلامية . وذلك على عكس ما حصل في دمشق وحمص وغيرها من مدن الداخل الشامي وأريافه ، حيث بقي النصارى يشكّلون جزءاً هامّاً من مجموع السكّان لوقت طويل .

وهكذا أصبحت مدن الساحل من الشام ، بعد الفتح الإسلامي ، مراكز للجهاد . ولم يعد لها لفترة من الزمن شأن يذكر من الناحية التجارية ، وذلك بسبب استمرار الحروب بين المسلمين والروم ، ممّا ادّى الى توقّف الحركة التجارية منها واليها عن طريق البحر . وزالت معالم ازدهارها البائد مع الوقت ، وانقطعت الصلة التاريخية فيها بين الماضي الروماني والحاضر الاسلامي . ولم يبق من قديمها الّا الأسماء ، وبعض الابنية القديمة والأطلال التي أعاد المسلمون بناءها ، فجعلوا منها حصوناً وقلاعاً لمن حلّ بها من المرابطين والمقاتلة . ولعلّ المسلمين اتخذوا ايضاً من بعض المواقع في « جبل بيروت » ، و« جبل صيدا » ، وجبل عاملة المتّصل بصور ، مراكز للمرابطة الدينية والعسكرية تساند الحاميات القائمة في ثغور الساحل ، فنتج عن ذلك الانتشار السريع للإسلام في هذه المناطق .

من هذه الاوضاع الجديدة التي نشأت في بلاد الشام بعامل من الفتح الإسلامي ينطلق تاريخ المناطق اللبنانية وغيرها من المناطق الشامية في العصور التالية. اذ سرعان ما طغت هذه الاوضاع الجديدة على الاوضاع التي كانت قائمة في البلاد من قبل، فتبدّدت معالم الأزمنة الغابرة فيها، ولم يبق منها—فيما عدا الاطلال الدارسة—الّا الأثر القليل. ولم يمض وقت طويل حتى دخل ماضي البلاد، فيما سلف من الازمنة، طيّ النسيان بعد ان تغلّب عليه الحاضر. واستمرّ تاريخاً منسيّاً على الصعيد المحلّي حتى بعث من جديد، ابتداءً بالقرن التاسع عشر، على يد علماء الآثار وغيرهم من اهل الاختصاص في التاريخ القديم.

وفي الفصول التالية تفصيل لبداية التاريخ الجديد في جبل لبنان وجواره في العصور الإسلامية الاولى، وذلك انطلاقاً من المعطيات الاساسية التي اوجز تحديدها في هذا الفصل.

الفصل الثاني

لبنان وجواره في عهد الخلفاء ٦٣٤ - ١٠٧٠ م.

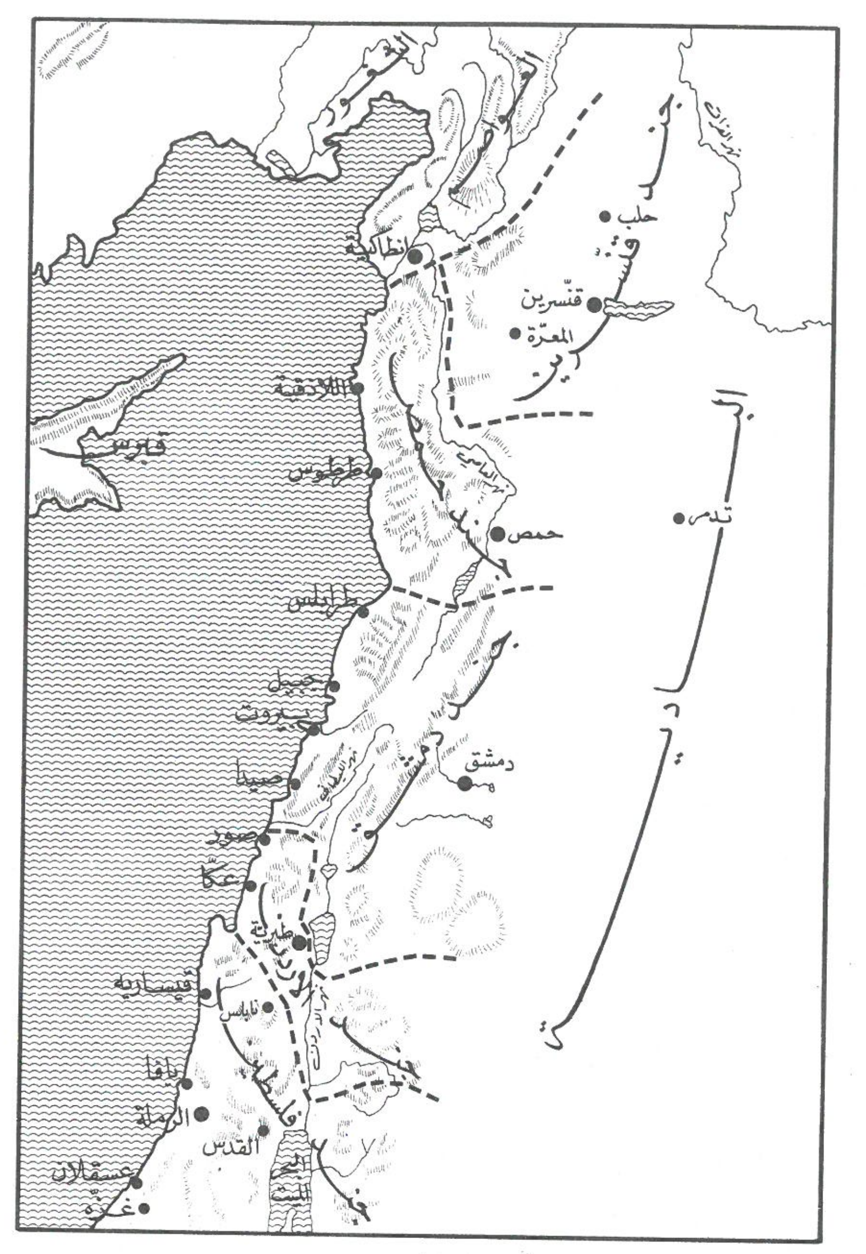
اثارهم تنبيك عن اخبارهم حتى كأنّك بالعيان تراهم
تالله لا يأتي الزمان بمثلهم ابداً ولا يحمي الثغور سواهم

ابيات من الشعر القديم

١

لم يطل الوقت بعد واقعة اليرموك في صيف عام ٦٣٦ م حتى تمّت السيطرة للمسلمين على اجزاء كبيرة من الشام ، بما فيها لبنان وما جاوره من المناطق . ثم اقام المسلمون في البلاد نظام الأجناد ، كما ذكرنا . فأتبعوا بلاد بعلبك والبقاع ووادي التيم وجبل لبنان ، وكذلك الثغور الساحلية من طرابلس الى صيدا ، بجند دمشق . وصاروا يوكلون الى « عامل » بعلبك مهمّة السهر على هذه المناطق . واتبعوا في الوقت ذاته جبل عاملة ، مع سائر الجليل وما يليه من الساحل ، بجند الاردن ، وجعلوا قاعدة هذا الجند مدينة طبرية . وقد اكتملت هذه الترتيبات في عهد معاوية ابن أبي سفيان ، أوّل الخلفاء الأمويين في دمشق . واهتمّ الخلفاء الأمويّون المتأخّرون بأمر صور ، من ثغور جند الأردن . وجعلها هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣ م) مركزاً لصناعة السفن ، فأصبحت لها بالتالي مكانة خاصة بين ثغور الساحل الشامي . وقد كانت هذه المكانة من قبل لعكّا ، وذلك منذ عهد معاوية . وكما اهتمّ الخلفاء الأمويّون بثغور جند الاردن ، كذلك اهتمّوا بثغور جند دمشق ، فجعلوا من جميعها مواقع بحريّة حصينة .

وبسبب الارتباط الاداري والعسكري في جند دمشق بين الثغور الساحلية وبعلبك ، انتقل العديدون من سكّان هذه المدينة الداخلية وجوارها الى الساحل وحلّوا فيه . وقد اشتهر من بين هؤلاء الإمام عبد الرحمن بن عمرو المعروف بالاوزاعي ، نسبة الى قبيلة « أوزاع » من عرب « اليمن » المتوطّنين في بلاد بعلبك . وكان مولد الاوزاعي في مدينة بعلبك في أوائل القرن الميلادي الثامن ، اي في عهد عبد الملك بن مروان . ونشأ في البقاع ، ثم تنقّل بين مختلف أقطار المشرق الاسلامي واستقرّ

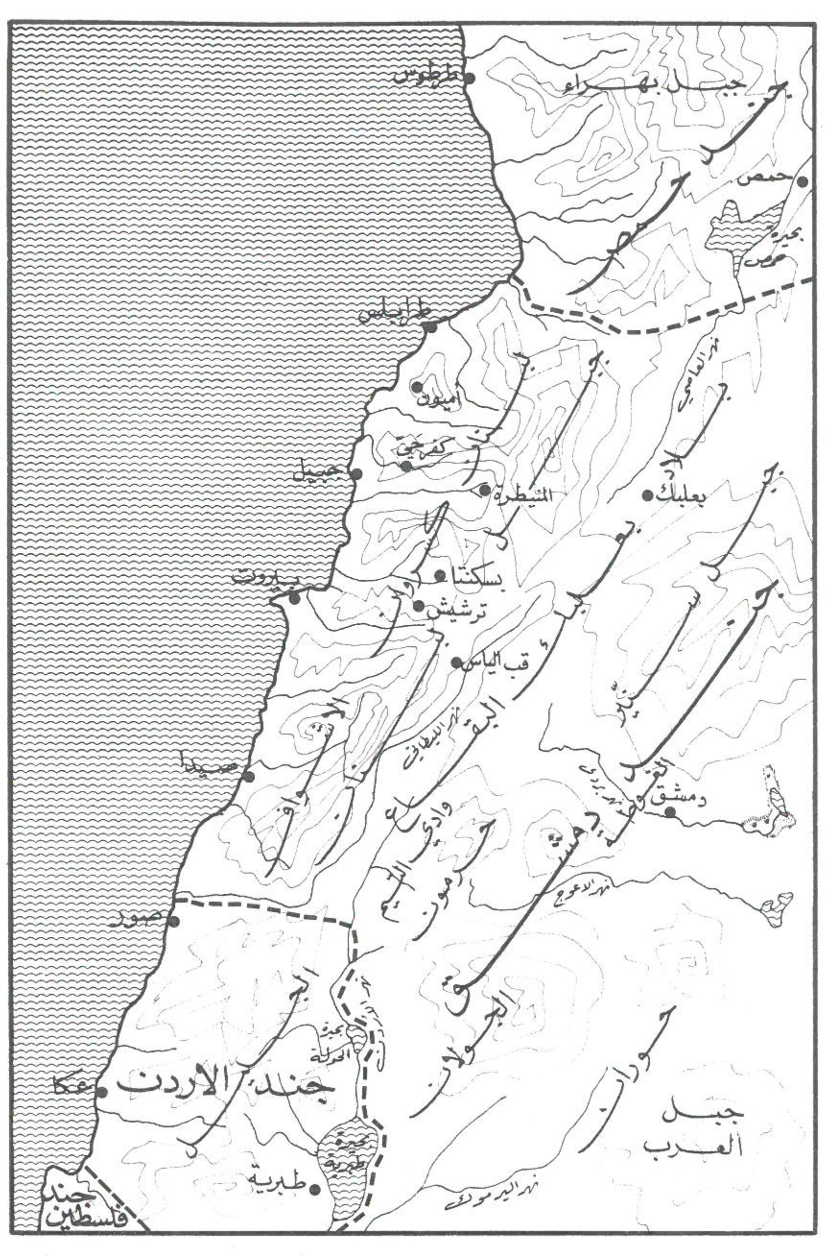


٥ . الأجناد الشاميّة بعد عام ٦٨٠ م

آخر الأمر في بيروت ، فرابط فيها الى أن توفّي عام ٧٧٤ م ، في أواخر عهد أبي جعفر المنصور (٧٥٤–٧٧٥ م) ، ثاني الخلفاء من بني العبّاس. ودفن الاوزاعي في حنتوس ، الى الجنوب من بيروت ، فصارت هذه القرية تعرف باسمه ، وهي اليوم ضاحية من ضواحي المدينة. وكان الاوزاعي في زمانه «امام أهل الشام» («صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت... ، ص ١٣). ويقال انه اجاب في سبعين ألف مسألة شرعية ، وكان امره في الشام «أعزّ من امر السلطان» (أي أعزّ من امر الدولة). وقد عمل بعض الفقهاء بمذهبه في الشام حتى اواسط القرن الميلادي العاشر. وعُمل بمذهبه في الاندلس ايضاً مدّة يسيرة.

وما كاد الاوزاعي يستقرّ في بيروت حتى انتزع بنو العبّاس الخلافة من بني اميّة عام ٧٥٠ م ، فأبادوا معظمهم ونقلوا قاعدة الدولة الإسلامية من دمشق الى الكوفة ، ثم الى بغداد. وكانت بلاد الشام في العهد الأموي مركز الثقل السياسي والنشاط الاجتماعي والاقتصادي في عالم الإسلام ، فتضاءلت اهميتها في العهد العبّاسي عندما اصبحت منطقة تابعة للعراق. وقد جمعها ابو العبّاس السفّاح (٧٥٠–٧٥٤ م) ، وأخوه المنصور من بعده ، مع مصر في ولاية واحدة ، وعيّنا ابن عمّهما المدعو صالح بن علي (توفّي ٧٦٤ م) حاكماً على القطرين. وبقي الحكّام العبّاسيون ، من سلالة صالح بن علي هذا ، يتولّون امر الشام ومصر مدّة من الزمن.

وحافظ الخلفاء العبّاسيّون الاوائل على نظام «الاجناد» في الشام. وخصّوا ثغور الساحل–ومنها ثغور جند دمشق التابعة لعامل بعلبك–بالاهتمام ، فعمدوا الى زيادة تحصينها وشحنها بالمقاتلة. وربّما كان الداعي لذلك استفحال امر الروم في عهد قسطنطين الخامس (٧٤٠–٧٧٥ م) وتجدّد غاراتهم على بلاد الإسلام. غير ان الاحوال الاقتصادية في هذه الثغور لم تتحسّن عمّا كانت عليه في عهد بني أميّة. بل لعلّها ازدادت ضعفاً بعد زوال الدولة الأموية ، وذلك تمشّياً مع الإنهيار



٦ . المناطق اللبنانيّة ونظام الأجناد

الاقتصادي العام الذي حلّ بالبلاد الشامية في بداية العهد العبّاسي بسبب تحول المسالك التجارية الكبرى من الشام ومصر الى بلاد فارس والعراق.

وحاول الخلفاء العبّاسيّون الاوائل ضبط الأرياف الشامية كما ضبطوا ثغور الساحل وبعض المدن الكبرى في الداخل، لكنهم لم ينجحوا في ذلك. وكانت الفوضى قد عمّت هذه الأرياف منذ اواخر عهد الأمويّين عندما ظهر التفكّك في دولتهم وبدأ شأنها ينهار، فاستغلّ البدو هذه الفرصة وأخذوا يغيرون على المناطق الزراعية المحاذية للبادية ويقلبون اجزاء كبيرة منها الى مراع للمواشي. واستمرّ البدو في التعدّي على المناطق الزراعية بعد زوال الدولة الاموية، ولم يتمكّن العبّاسيّون من ردّ هذا التعدّي على أنّهم حاولوا ذلك مراراً في عهد المنصور، ثم في عهد الرشيد (٧٨٦–٨٠٩ م) والمأمون (٨١٣–٨٣٣ م). وقد حاول كلّ من المنصور والمأمون «روك» البلاد الشاميَّة، اي ضبطها عن طريق المساحة، لتحديد ملكيّة الاراضي فيها تأميناً للمصالح الزراعيّة من ناحية، وتسهيلاً لجباية «الخراج» و«العشر» من ناحية أخرى. فاصطدم كلاهما – على ما يظهر – بمقاومة ضارية من قبل البدو المتعدّين على بعض هذه الاراضي. واصطدما بمقاومة مماثلة من قبل اصحاب الاملاك الزراعية المتخوفين من الزيادة الحتمية للضرائب عن طريق «الروك». ومن هؤلاء ابناء العشائر من الفلّاحين في الاطراف الجبلية.

ولعلّ محاولة «الروك» الاولى التي قام بها المنصور في الشام أثارت حفيظة بعض النصارى في جبل لبنان كما اثارت حفيظة غيرهم من اهل الشام. ففي عام ٧٥٩–٧٦٠ م تقدّم اهالي جبّة المنيطرة بشكوى ضدّ عامل بعلبك بشأن «الخراج» – أي الضرائب المفروضة على الاملاك. فلم يلقوا منه ما ارادوا. وصادف في ذلك الوقت ان عسكراً من الروم نزل ثغر طرابلس. فتشجّع اهالي جبّة المنيطرة على الاثر، وأخذوا يقومون بأعمال التحدّي ضد عامل بعلبك. هذا في الوقت الذي كان فيه

صالح بن علي العبّاسي « الهاشمي » والياً على بلاد الشام ومصر من قبل ابن عمّه المنصور. وتجمّع فريق من أهالي المنيطرة وجوارها حول شاب من تلك القرية اسمه بندار، وجعلوه « ملكاً » عليهم. فحصّن بندار نفسه في القرية، و « لبس التاج »، ورفع راية « الصليب » (كما يقول ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٣٣٠–١٣٣٢ هـ، ج ٥، ص ٣٤١). وأخذ هو وجماعته يغيرون على قرى المسلمين في البقاع ويعملون فيها قتلاً ونهباً. وكاتبوا عامل بعلبك بالتهديد والوعيد، فاستدرجهم هذا الى وسط البقاع حيث اوقع بهم الهزيمة، ثم لحق بهم الى المنيطرة وأخذ حصنها. ففرّ بندار هارباً الى الروم (ولعلّهم الروم النازلين آنذاك في طرابلس). وأصدر الوالي صالح بن علي الأمر بإخراج أهالي المنيطرة من الجبل وتشتيتهم في البلاد، ووضع اليد على اموالهم، وقتل منهم من قتل. ثم عفى عن البعض، فعاد هؤلاء الى مواطنهم، وبقي غيرهم مشرّدين. ويبدو أن جماعة ممّن بقوا خارج الجبل شكوا أمرهم الى الإمام الاوزاعي في بيروت، طالبين منه التوسّط لدى الوالي في القضية. فكتب الاوزاعي بشأنهم رسالة طويلة الى صالح بن علي قال فيها:

> وقد كان من اجلاء أهل الذمّة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم، ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم؟ وحكم الله تعالى « لا تزر وازرة وزر اخرى »، وهو أحقّ ما وقف عنده وأقتدي به. وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فإنّه قال: « من ظلم معاهدا وكلّفه فوق طاقته، فأنا حجيجه » (عن البلاذري، فتوح البلدان، ليدن، ١٨٦٣–١٨٦٦، ص ١٦٢).

ولعلّ قصّة بندار، قائد ثورة جبّة المنيطرة ضد « عامل خراج بعلبك »، هي الأساس التاريخي للاسطورة التي يرويها المطران جبرائيل ابن القلاعي (توفّي ١٥١٦) في زجليّته الشهيرة « مديحة على جبل لبنان ». والاسطورة

هذه تتحدّث عن « ملك بسكنتا »، وهي قرية من « الخارجة » (« المتن الشمالي » اليوم) في جبل كسروان لا تبعد كثيراً عن المنيطرة. ولا تذكر الاسطورة اسم هذا « الملك »، كما انها لا تذكر هربه الى الروم. بل تفيد بأنه كان يميل بطبعه الى السكر والعربدة، فاستغلّ « السلطان » هذا الضعف فيه وأرسل اليه الى قب الياس، من أعمال البقاع، من ينادمه ويقتله بخدعة (ابن القلاعي، حروب المقدّمين...، ص ١٣):

سكن الملك في بسكنتا، — وأرسل عساكر في بغته،
نهب البقاع في فرد نكته، — وقتل رجاله مع النسوان.
وطلع وسكن في قب الياس — ورتّب عساكر مع حرّاس:
البقاع تحت حافر خيله انداس، — وطلعت اخباره للسلطان.
بعت له خلعه مع قصّاد، — اطمنّ وأكل معهم زاد،
وعساكر وراهم بتتجرّد — كبسوه في تلك الاطمان.
قتلوه وانقتل من العساكر، — وانتقل كثير من الاوخار،[1]
واعطون في قب الياس نار، — وملكون البقاع من تلك الآن.
سبب ذلك كان المسكر، — ورقصت صبيّة في المحضر:
سمعوا مقدّمين العسكر — وخلعوا الطاعة مع الايمان.
تخلّوا عنه حتى قتلوه — وجسده في قب الياس دفنوه،
واسمه في التواريخ ليس كتبوه — لاجل انه مات وهو سكران.

٢

لا نعرف عن ثورة « الملك بندار » في جبل لبنان الّا ما يقوله عنها البلاذري وابن عساكر. ويفترض البعض ان بندار وجماعته كانوا من الموارنة. ولعلّهم كانوا من الملكية، ممّا يفسّر هرب بندار بعد هزيمته

١. « الأُخر »، اي الفريق الثاني.

الى الروم. وقد كان هؤلاء حماة الملكية وليس الموارنة من نصارى الشام. غير ان الامر هذا لا جزم فيه. ويبدو ان الولاة العبّاسيّين همّوا بعد القضاء على ثورة اهالي المنيطرة الى ردّ نصارى لبنان عن المناطق المسيطرة على الدروب الجبلية بين الساحل والداخل، فحثّوا جاليات من المسلمين على التوطّن في منطقة «الخارجة» ابتداء بقرى «زرعون» و«ترشيش» و«الوادي». وفي ذلك يقول ابن القلاعي في زجليّته (المصدر ذاته، ص ١٢):

زرعون وترشيش والوادي ‏ ‏ ‏ ‏ سكنوا فيها الاسيادي[2]:
فرسان وأبطال وأجنادي ‏ ‏ ‏ ‏ تشرف على تلك البلدان.[3]

وهناك في مطلع زجلية ابن القلاعي هذه مقاطع كثيرة تردّد صدى الحروب التي قامت في جبل كسروان في تلك الفترة بين النصارى والمسلمين. ولعلّ هذه الحروب استمرّت مدّة طويلة حتى تمّت السيطرة للمسلمين على كامل المناطق الكسروانية، او معظمها على الأقلّ، في وقت ما بين القرن الميلادي التاسع والحادي عشر.

٣

كانت ثورة «الملك بندار» في جبّة المنيطرة واحدة من ثورات كثيرة قامت في الشام ضدّ الدولة العبّاسيّة في القرنين الأوّلين من عهدها. ولم تختلف عن غيرها من هذه الثورات الّا بالطابع المسيحي الواضح الذي تميّزت به، وبكونها حصلت على الأرجح بدعم او ربّما بايعاز من الروم، وذلك في زمن المنصور عندما كان الحكم العبّاسي في الشام على اقواه.

٢. لعلّ الاشارة هنا هي الى متوطّنين في تلك القرى من «السادة» الاشراف، من المنتسبين الى البطون القرشية.

٣. الاشارة هنا هي الى «فرسان» و«ابطال» و«اجناد» نصارى المنطقة.

وقد ذهب المستشرق هنري لامنس الى ان ثورة نصارى لبنان في عهد المنصور، والثورات الاخرى التي قامت في مختلف الاجناد الشامية في عهد الرشيد، والامين (٨٠٩–٨١٣ م)، والمأمون، والمعتصم (٨٣٣–٨٤٢ م)، لم تكن الّا انتفاضات شعبية محقّة ضدّ جور بني العبّاس. لكن الواضح من كتب الاخبار ان الداعي لكلّ من هذه الثورات كان اصرار اهل الشام على مقاومة ابسط التدابير التي حاول الخلفاء العبّاسيّون ادخالها على البلاد لفرض الأمن والحدّ من الفوضى السائدة فيها. وكان اهل الشام في ذلك الوقت، على ما يبدو، ممعنين في حبّ الفوضى. وقد وصفهم الرشيد في زمانه بأنهم «جند سوء»، اي «جماعة سوء» (ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣، ص ٢٧٦). واضطرّ ابنه المأمون الى القدوم شخصياً الى الشام ثلاث مرات على الأقلّ لضبط امورها عن كثب. كما ان المتوكّل (٨٤٧–٨٦١ م) حاول نقل مركز الخلافة في عهده من العراق الى دمشق، ربّما لهذه الغاية بالذات.

ومهما كان الأمر، فمن الواضح ان أهل الشام لم يأنسوا للحكم العبّاسي على الاطلاق. ولم يكن المسلمون منهم اقلّ عداء للدولة العبّاسية من النصارى. وجاء انتشار التشيّع بين مسلمي الشام في غضون القرن الميلادي التاسع يعكس هذا العداء. وكان مذهب الخوارج قد انتشر الى حدّ ما في بعض الأنحاء الشامية قبل ذلك الوقت، كما هو واضح من كلام نسبه بعض المؤرّخين الى المأمون (الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٢٥٦). غير ان امر الخوارج في الشام لم يدم طويلاً. وما ان اقبل القرن الميلادي العاشر او انتصف حتى كان فريق كبير من مسلمي جند حلب (وهو جند قنّسرين سابقاً)، وجند حمص، وجند دمشق، وجند الاردن، قد تحوّل الى مذاهب شيعية. ولم يصفُ لمذهب السنّة والجماعة—وهو مذهب الدولة العبّاسية—الّا مسلمو جند فلسطين ومدينة

دمشق. وربّما لم يبق له بين سكّان سائر المدن والمناطق من المسلمين الّا جيوب متفرّقة.

وكان المسلمون في المناطق اللبنانية وجبل عاملة في جملة المتحوّلين الى المذاهب الشيعية. فمنهم من تحوّل الى المذهب «الاثنا عشري» او «الإمامي». وهؤلاء اهل جبل عاملة وبعض اهل جبل كسروان. ومنهم من تحوّل الى مذهب «النصيرية»، او الى مذهب «الاسماعيلية». ومن هؤلاء، على ما يبدو، جماعة من اهالي وادي التيم، وكذلك جماعة من اهالي «الاشواف» وكسروان من جبل لبنان. وظهر في اواخر القرن التاسع مذهب «القرامطة» في «سواد» العراق وساحل «البحرين» (اي بلاد الاحساء) من الجزيرة العربية. وانتشر هذا المذهب بين القبائل العربية في تلك النواحي. وبدأ «القرامطة» من ابناء القبائل ومن لحق بهم يغيرون على الشام عام ٩٠٢ م، فحاصروا دمشق، واجتاحوا غوطتها. ثم دخلوا البقاع، وردّهم بنو طولون[٤] –وهم في ذلك الوقت ولاة مصر والشام من الترك– عن قرية كوكبا، فتحوّلوا شمالاً الى بعلبك وفتكوا بأهلها. وهكذا استمرّوا في التوسّع حتى خرج اليهم الخليفة المكتفي (٩٠٢–٩٠٨ م) من بغداد، فانزل بهم الهزيمة في ناحية وادي العاصي، الى الجنوب من بلدة شيزر، في اواخر عام ٩٠٣ م. وتفيد المصادر ان الكثيرين من أهالي المناطق الشاميّة التي اجتاحها القرامطة في غارتهم الأولى هذه تحوّلوا الى مذهبهم. وتكرّرت غارات القرامطة على الشام في غضون القرن العاشر حتى ردّهم الخلفاء الفاطميون عن البلاد نهائياً عام ٩٧٧ م. ولا بدّ ان اتباعهم ازدادوا عددا في تلك الفترة في المناطق الشامية التي تكرّر دخولها تحت سطوتهم. ومن هذه المناطق غوطة دمشق ووادي التيم وربّما «الاشواف» من جبل لبنان في جند دمشق، وبعض الأطراف الجبليّة من اجناد حلب، وحمص، والاردن، وربّما أيضاً فلسطين.

---

٤. انظر ص ٦٢–٦٣.

وكان «الامامية»، و«النصيرية»، و«الاسماعيلية»، و«القرامطة» جميعهم من الشيعة. وقد اختلف من سميّ بـ«الشيعة» في الاصل عن «جماعة» المسلمين بسبب «تشيّعهم» لعلي بن أبي طالب واعتباره صاحب الحق الأوحد في «الإمامة» (اي الخلافة الصحيحة). فلم يعترفوا بامامة ابي بكر وعمر وعثمان، وهم الثلاثة الأول من «الخلفاء الراشدين»، كما أنهم لم يعترفوا بحق بني أميّة، ومن بعدهم بني العبّاس، في الخلافة. ولذلك وجد الشيعة أنفسهم منذ البدء، وعلى الأخصّ بعد مقتل علي بن أبي طالب (وهو رابع الخلفاء الراشدين)، في صفوف المعارضة. وكان الخوارج –وهم الرافضون لحصر الإمامة في قريش– كذلك من المعارضين للدولة الإسلامية القائمة في العهد الأموي، ثم في العهد العبّاسي. والتفّ حولهم في البدء معظم الناقمين على السياسة الأموية، ثم على السياسة العبّاسية، في الشام والعراق. فما كاد الخلفاء العبّاسيون ينجحون في استئصال شأفة الخوارج في هذين القطرين حتى اصبح التشيّع فيهما مذهب المعارضة السياسية دون منافس. وقد حصل ذلك، كما ذكرنا، ابتداء بالقرن الميلادي التاسع على الأرجح.

ولم يطل الوقت حتى بدأ الشيعة ينقسمون الى فرق، ومنها «الامامية» و«الاسماعيلية». وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم حول هوية الامام السابع من سلالة علي بن أبي طالب. فقال «الامامية» انه موسى الكاظم بن جعفر الصادق. وقال «الاسماعيلية» انه اخوه الأكبر المدعو اسماعيل. وذهب «الامامية» الى ان الامام الثاني عشر، من سلالة موسى الكاظم –وهو الامام محمد المهدي المنتظر (اختفى عام ٨٧٤ أو ٨٧٩ م)– هو آخر الائمة، وقالوا بحتمية عودته بالذات من «الغيبة»، فعرفوا بـ«الاثناعشرية». اما «الاسماعيلية»، فدعوا الى الولاء لائمة «الستر» من سلالة الامام اسماعيل بن جعفر الصادق. وكان آخر ائمة «الستر» هؤلاء عبيد الله المهدي الذي ظهر في افريقية، في البلاد التي دعيت فيما بعد «تونس»،

فأصبح هناك أوّل الخلفاء «الفاطميّين». والمعروف ان الخلفاء الفاطميين دخلوا مصر عام ٩٦٩ م، ثم بنوا مدينة القاهرة ونقلوا اليها قاعدة ملكهم عام ٩٧٣ م، وذلك في عهد الخليفة المعزّ لدين الله (٩٥٢–٩٧٥ م). ويعتقد بعض الضالعين في تاريخ المذاهب الإسلامية (ومنهم المستشرق لويس ماسينيون)[٥] ان «النصيرية» هم في الاصل من «الامامية». وهناك من يعتقد ان «القرامطة» هم فريق من «الاسماعيلية». ولا جزم في أي من الامرين.

٤

بدأ التشيّع ينتشر في الشام بعد عهد المتوكّل، من الخلفاء العبّاسيّين، وذلك في الوقت الذي خضعت فيه البلاد لولاة مصر من بني طولون (٨٦٨–٩٠٥ م). وكان احمد بن طولون، وهو أوّل هؤلاء الولاة، من امراء الجند من الاتراك في العراق، فأرسل الى مصر لضبط البلاد، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً. فأضيفت الاجناد الشامية الى ولايته، وهمّ في ضبطها قدر الإمكان. وبفضل حسن التدبير الذي تميّز به حكم احمد بن طولون في مصر، اخذت الحياة الاقتصادية هناك تعود الى الازدهار. وكان «بنو زياد»، منذ عهد المأمون، قد أقاموا لأنفسهم دولة قوية في زبيد، قرب ساحل البحر الأحمر من اليمن. فما ان تسلّم احمد بن طولون زمام الامر في مصر حتى أمنت مسالك هذا البحر من طرفيه، وعادت تجارة الشرق تسلك طريقه الى مصر، ومنها الى بلاد الروم عن طريق الساحل الشامي. وأخذ النشاط التجاري يعود بالتالي الى ثغور هذا الساحل، ومنها الى بعض المدن في الداخل. وكان لبيروت حصتها من هذا النشاط، على ما يبدو. وتملّك الجشع من تجّارها،

٥. Louis Massignon, *Opera Minora* (Beirut, 1963), pp. 619–624, 640–649

فاضطّر الحسن بن مكحول عام ٩٣٢ م، وهو كبير فقهاء البلدة في زمانه، الى تذكير اهلها بالحديث الشريف الذي ينهى عن «استقبال الركب»، وبحديث آخر ينهى عن «النجش». و«استقبال الركب» و«النجش» من الحيل التي كان التّجار يلجأون اليها لرفع اسعار السلع في الاسواق بشكل غير مشروع.[٦]

وسقطت الدولة الطولونيّة في مصر بعد ان أخفقت في ردّ القرامطة عن الشام. ولم يمض زمن طويل حتى تعيّن وال جديد من امراء الترك على مصر، وهو محمد بن طغج المعروف بـ«الإخشيد». فأحسنت الدولة «الاخشيدية» ضبط مصر وأجناد دمشق والاردن وفلسطين من الشام من عام ٩٣٥ م حتى وفاة كافور الخصيّ، وهو خادم الاخشيد والقائم بتدبير الدولة من بعده، عام ٩٦٨ م. ولم يتمكّن الاخشيديون من فرض سيطرتهم على جند حمص وجند حلب بسبب قيام الدولة الحمدانية هناك في تلك الفترة. وكان بنو حمدان في حلب على مذهب الشيعة الامامية، بينما كان الاخشيديون، والطولونيون من قبلهم، متمسّكين بمذهب السنّة. وربّما كان بسبب تمسّك الطولونيين والاخشيديين بالسنّة ان جماعات من سكّان مدن الساحل تمكّنت من الاستمرار على هذا المذهب في وقت كان فيه التشيّع ينتشر في معظم انحاء الشام، فيما عدا دمشق وفلسطين كما سبق وذكرنا.

وتمكّن الاخشيديّون في زمانهم من ردّ القرامطة عن بلاد الشام، كما تمكّنوا من الحفاظ على سيادة الخلافة العبّاسيّة السنّية على مصر. وما ان توفي كافور عام ٩٦٨ م حتى ظهر الضعف في الدولة الاخشيدية، فدخل الفاطميون مصر في العام التالي، وعاد القرامطة الى غزو الاجناد

٦. «استقبال الركب» هو شراء السلع من القوافل قبل وصولها الى الاسواق، بقصد احتكارها. و«النجش» هو اطراء البضائع بقصد اغراء الغير بشرائها ورفع اسعارها من قبل من لانيّة له بالشراء.

الجنوبية من الشام. وقامت في هذه الاجناد على الأثر دويلات من قادة «الاحداث» (اي عصابات الرعاع) في دمشق، ورؤساء القبائل والعشائر في الأرياف، وعمّت الفوضى في البلاد الى حدّ يصعب تصويره. وزاد في هذه الفوضى عودة الروم الى غزو الشام بقيادة ملكهم نقفور فوقا Niképhoros Phokas (٩٦٣–٩٦٩ م) وخلفه يوحنا بن الشمشقيق Iohannès Tzimiskès (٩٦٩–٩٧٦ م). وتعاون نصارى الشام من الملكية مع الروم في بعض هذه الغزوات، فجرّ ذلك الى تصادمات عنيفة بينهم وبين المسلمين في مناطق كثيرة من البلاد. وتمكن الروم عام ٩٦٩ م من دخول انطاكية، وبقوا فيها حتى عام ١٠٨٥ م. وقام عسكرهم المتمركز في انطاكية بغزو وادي العاصي وغيره من مناطق جند حمص وجند حلب في تلك الفترة. والمرجّح ان غزوات الروم المتكرّرة لهذه المناطق آنذاك كانت السبب في جلاء الموارنة نهائياً عن مواطنهم القديمة في نواحي حمص وحماه وشيزر ومعرّة النعمان. والدليل على ذلك ان الوجود الماروني كان قائماً في تلك النواحي بشكل ملحوظ في زمن المسعودي المتوفّى عام ٩٥٦ م (انظر المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ١٣١–١٣٢). ولم يبق من هذا الوجود شيء يستحق الذكر –على ما يبدو– بعد خروج الروم من انطاكية في اواخر القرن الميلادي الحادي عشر. والظاهر ان بعض موارنة وادي العاصي هرب من الروم في تلك الاثناء ولجأ الى حلب، مستجيراً بامرائها من بني حمدان (٩٤٥–١٠١٥ م) وبني مرداس (١٠٢٤–١٠٨٠ م)، بينما نزح البعض الآخر الى المناطق المارونية الآمنة في شمال لبنان واستقرّ هناك.

ولم تقتصر غزوات الروم في البدء على المناطق الشمالية من الشام. ففي عام ٩٧٥ – ٩٧٦ م قام الملك يوحنا بن الشمشقيق باجتياح جُندَي حلب وحمص، ثم دخل بعلبك قسراً، وانتقل منها الى دمشق فدخلها بالامان. ثم انتقل من دمشق الى صيدا، فقدّم له أهلها الطاعة. وقاومه

اهل بيروت وجبيل وطرابلس، فأخذ هذه الثغور عنوة وأعمل فيها النهب. وعاد ابن الشمشقيق بعد ذلك الى القسطنطينية وتوفّي هناك. ولم يبق للروم في الشام بعد وفاته الّا انطاكية والجزء الشمالي من وادي العاصي. وقام خَلَفُه الملك باسيل الثاني Basileios II (٩٧٦–١٠٢٥ م) بغارات كثيرة على بلاد حلب وحمص، ومنها الاجزاء الجنوبية من وادي العاصي، الّا انه لم يذهب في غاراته الى أبعد من الحدود الجنوبية لجند حمص، ولم يدخل بالتالي جند دمشق.

٥

وما كاد الفاطميون ان ينتهوا من تركيز حكمهم في مصر حتى بدأوا بغزو الشام، فاصطدموا هناك بالقرامطة وحلفائهم من بني طي في فلسطين والاردن، ورؤساء «الاحداث» في دمشق. فهزم الخليفة العزيز بالله (٩٧٥–٩٩٦ م) القرامطة وبني طي في واقعة الرملة، في فلسطين، عام ٩٧٧ م. ودخلت جيوش الفاطميين دمشق على الاثر، وعيّن فيها العزيز ولاة من قبله. غير ان «الاحداث» استمرّوا يسيطرون على الوضع في دمشق ويعيثون فيها الفساد حتى تمّ القضاء عليهم عام ٩٩٩ م في اوائل عهد الحاكم بأمر الله (٩٩٦–١٠٢١ م).

وفي تلك الاثناء ثار اهالي صور على الفاطميين عام ٩٩٧ م، وأقاموا ملّاحاً من البلدة اسمه علّاقة اميراً عليهم. وأرسل الفاطميون جيوشهم عن طريق البرّ والبحر لقمع هذه الثورة. واستنجد علّاقة بالروم، فأنجدوه بالسفن. غير ان الفاطميين تمكنوا من ردّ الروم عن صور، واستسلم اهل البلدة، فدخلها الفاطميون وألقوا القبض على علّاقة وجماعته واقتادوهم الى مصر. وسلخ علّاقة حيّاً، وعلّق جلده محشوّاً بالقشّ خارج اسوار القاهرة، وضربت اعناق جماعته. وكان صاحب الامر في مصر

في ذلك الوقت برجوان الخادم، وهو الوصي آنذاك على الخليفة الحاكم بأمر الله.

وقتل برجوان الخادم عام ٩٩٩ م، وتسلّم الحاكم بأمر الله أزمّة الدولة، فأظهر من الحزم في تدبيرها ما لم يسبق له مثيل. واهتمّ على الأخصّ بأمر الشام، فحاول طرد الروم من وادي العاصي ولم ينجح. غير انه تمكّن من فرض السيطرة الفاطمية على حلب عام ١٠١٥ م. وكان ذلك بمساعدة المملوك فتح «القلعي»، وهو صاحب «قلعة» حلب في أواخر العهد الحمداني. فأقطع فتح القلعي هذا صور وصيدا وبيروت مكافأة له على مساعدته، وكان «ارتفاع» هذه المدن الساحلية الثلاث آنذاك (أي دخل الجباية منها) ثلاثمئة الف دينار في السنة. وكاتب الحاكم بأمر الله بعد ذلك رؤساء طي وكلب وكلاب، وهي في ذلك الوقت كبرى قبائل العرب في الشام، وحثّهم على التعاون في الدفاع عن حلب مع الوالي الفاطمي هناك. فتمّ الاتفاق على الاثر بين هذه القبائل الثلاث عام ١٠١٩ م وتوقفت الحروب فيما بينها. وهكذا تمّت السيطرة للفاطميين في عهد الحاكم بأمر الله على جميع المناطق الشامية ما عدا المواقع التي بقيت في أيدي الروم، وهي أنطاكية ووادي العاصي الى الجنوب حتى شيزر. وضبطت البلاد كما لم تضبط من قبل في العهد الإسلامي—على الأقلّ منذ سقوط بني أميّة.

واهتمّ الحاكم بأمر الله بأوضاع عشائر «الاطراف» في الجبال الشامية كما اهتمّ بشؤون القبائل في المناطق الداخليّة وفلسطين. وأوكل مهمّة ضبط هذه «الأطراف» الى أحد امرائه من المماليك الأتراك، وهو المدعو أَنُشْتَكين الدِزْبَري.[٧] وتسلّم الدزبري أوّل الأمر ولاية بعلبك حوالي عام ١٠١٧ م، ثم انتقل منها الى ولاية قيسارية، في شمال فلسطين، فأقام

٧. انشتكين Anajtekin الدزبري هذا هو غير انشتكين الدرزي الشهير الذي كان معاصراً له. انظر ص ٦٧، ٦٨.

علاقات متينة مع «ولاة الاطراف» في المناطق الجبلية التابعة لجند دمشق وجند الاردن، وأحسن الحكم فيها الى حدّ لفت الانظار. واستمرّت الدولة الفاطمية تعتمد على الدزبري في تدبير شؤون الشام بعد عهد الحاكم. فتعيّن والياً على الرملة ثم على دمشق في عهد الظاهر (١٠٢١–١٠٣٦ م). واستمرّ على ولاية دمشق ومعظم بلاد الشام في عهد المستنصر (١٠٣٦–١٠٩٤ م) حتى توفّي عام ١٠٤٢ م.

٦

وفي الوقت الذي كان انشتكين الدزبري يقوم بضبط مناطق «الاطراف» في بلاد بعلبك وقيسارية، ظهر في القاهرة مذهب جديد بين فريق من الاسماعيلية ممّن كانوا يعتقدون بمزايا خاصة في الائمة الفاطميين تذهب الى أبعد من ميزة العصمة عن الخطأ—وهي الميزة التي كان يقرّها جميع الفرقاء. وكان دعاة المذهب الجديد على اتّفاق فيما يتعلّق بإجلال شخص الحاكم بأمر الله. غير أنهم اختلفوا في أمور أخرى. فقال بعضهم قولاً في الحاكم لم يلق قبولاً منه، كما انه لم يلق قبولاً من سائر اصحاب المذهب. فكُفِّر أصحاب هذا القول من قبل الآخرين، وقُتل كبير دعاتهم—وهو المدعو أنشتكين (او محمّد بن اسماعيل) الدرزي—على ما يبدو في «كائنة» وقعت في القاهرة عام ١٠١٧ م. وتسلّم داع آخر للمذهب الجديد، وهو حمزة بن علي، زمام الأمر بعد مقتل أنشتكين الدرزي، فهمّ حمزة بتنظيم مذهب التوحيد (كما أسماه أصحابه) وتحديد مبادئه. وكان حمزة ورفاقه يعتبرون ان الحاكم بأمر الله هو الإمام الذي تمثّلت الالوهية من خلال «ناسوته» (أي كيانه البشري) كما يتمثّل المعنى من الكلمة. وأحاط حمزة ورفاقه مضمون المذهب الجديد بالسرّية والكتمان، وذلك خوفاً من نقمة سائر الاسماعيلية وأهل السنّة عليهم. وأخذت العامة

تطلق على أصحاب المذهب الجديد اسم «الدرزية»، او «الدروز»، نسبة الى انشتكين الدرزي الذي افتضح امره في البدء بسبب «الكائنة» التي قتل فيها.

وبفضل حسن العلاقة التي قامت بين الدولة الفاطمية و«ولاة الأطراف» في الشام في اواخر عهد الحاكم، تمكّن دعاة المذهب الجديد من نشره بينهم وبين أتباعهم من أبناء العشائر في مناطق عديدة. وذلك في الوقت الذي كان فيه انشتكين الدزبري والياً على بعلبك، ثم على قيسارية. ولعلّ الذين قبلوا الدعوة الجديدة في هذه المناطق كانوا باكثرهم في الأصل من فرقة القرامطة، وليس من سائر الفرق الشيعية. وممّا يدلّ على ذلك ان القرامطة لم يعد لهم ذكر في الشام بعد انتشار الدرزية فيها، بينما استمرّ الشيعة من الاماميّة والنصيرية والاسماعيلية يتواجدون بكثرة في مناطق مختلفة من البلاد بما فيها معظم مناطق الدروز، بعد اقفال الدعوة الى الدرزيّة في عهد الظاهر او في بداية عهد المستنصر. وكان القيّمون على هذه الدعوة في القاهرة يحثّون «ولاة الاطراف» واتباعهم في الارياف الشامية على الالتحاق بمذهبهم عن طريق المراسلة. وكانوا أيضاً يوفدون اليهم من يرشدهم في الدين. ومن الرسائل التي استلمها بعض رؤساء العشائر في أطراف الشام من القاهرة ما احتفظ به وما زال الى اليوم جزءاً هاماً من كتب الدرزية.

وساد الاعتقاد عند بعض المؤرخين من القدامى والمتأخرين بأن انشتكين الدرزي كان أول من دعا الى المذهب المعروف باسمه في الشام، وبأنه قدم البلاد شخصياً في وقت ما لهذا الغرض. ولعلّ الأمر التبس على هؤلاء المؤرّخين بسبب التشابه في الاسم بين «الدزبري» و«الدرزي»، وكلاهما كان يدعى «انشتكين». والثابت أن الدرزي قتل عام ١٠١٧ م قبل انتشار المذهب الذي عرف خطأً باسمه في الشام، وان سميَّه الدزبري تعيّن والياً على بعلبك ربّما في ذلك العام بالذات، ثم انتقل الى قيسارية، فانتشرت الدرزية في الاطراف التابعة لبعلبك وقيسارية في زمانه.

وهكذا نشأت في الشام في عهد الحاكم طائفة جديدة بين عشائر الأطراف تدين بالولاء الكامل لشخص الخليفة الفاطمي في مصر، وبالتالي للدولة الفاطمية. وكانت هذه العشائر بالذات مصدر الثورات والفتن في مناطقها في العهود السابقة، ممّا جعلها تنضمّ لفترة من الزمن الى القرامطة، حتى انضبطت آخر الامر وانضوت تحت لواء الدولة عن طريق الدرزية. ومن المناطق التي تحوّلت الى المذهب الدرزي في عهد الحاكم جبل السمّاق في بلاد المعرّة، من جند حلب، وناحية طبريّة من جند الاردن، ووادي التيم ومنطقة «الاشواف» في لبنان من جند دمشق، بالاضافة الى بعض قرى الغوطة وجوارها. واستمرّ الدروز يناصرون الدولة الفاطمية في الشام حتى انتهى امرها هناك في اواخر القرن الميلادي الحادي عشر. فتحوّلوا بعد ذلك الى مناصرة الدول الاسلامية السنّية التي تسلّمت البلاد من بعدها، كما سيظهر.

٧

وبدأت احوال الدولة الفاطمية في الشام تضطرب بعد نهاية عهد الحاكم. وكان أوّل ما أفلت منها جند حلب، حيث تمكّن اسد الدولة صالح بن مرداس—وهو رئيس قبيلة كلاب—من تسلّم الحكم عام ١٠٢٣ او ١٠٢٤ م، في بداية عهد الظاهر. وتعاظم امر صالح بن مرداس، وامتدّت سيطرته على حمص وبعلبك، ثم استولى على حصن عكّار في أقصى الشمال من جبل لبنان عام ١٠٢٥ م، وحاول بعد ذلك الاستيلاء على طرابلس وبيروت وصيدا. وتحالف صالح مع المدعو حسّان بن جرّاح، وهو في ذلك الوقت رئيس قبيلة طي في جند الاردن وفلسطين. وكان حسّان هذا من كبار المناهضين للدولة الفاطمية. فأوقع الفاطميون الهزيمة بالحليفين في واقعة الاقحوانة (قرب طبريّة) عام

١٠٢٩ م ، وسقط فيها صالح بن مرداس قتيلاً . وكان قائد العسكر الفاطمي في هذه الواقعة انشتكين الدزبري بالذات ، وهو في ذلك الوقت والي الرملة . وسارع الفاطميون بعد ذلك الى استعادة حصن عكّار من بني مرداس ليقطعوا عليهم الطريق الى ثغور الساحل .

وخلف صالح بن مرداس في حلب ابنه المدعو شبل الدولة نصر . ووجد الروم في الخلاف القائم بين بني مرداس والفاطميين فرصة سانحة لتجديد غاراتهم على بلاد حلب ، فاضطرّ شبل الدولة نصر الى الدخول في طاعة الفاطميين للاستعانة بهم على الروم . وأخذ في الوقت ذاته يصانع الروم بالمباطنة لردّ سطوة الفاطميين عن بلاده . وكان انشتكين الدزبري في تلك الأثناء قد تسلّم ولاية دمشق ، وأخذ يجهد لمدّ سيطرته على حلب . وربّما أوعز الدزبري الى أنصار الدولة الفاطمية من دروز جبل السمّاق أن يقوموا بثورة ضدّ نصر وضدّ الروم المسيطرين على أنطاكية وما يليها جنوباً من وادي العاصي . فهبّ الدروز هناك الى الثورة عام ١٠٣٢ م ، ولم يتمكّن نصر من ردّهم الى الطاعة الّا بالتعاون مع الروم .

وقامت الحرب بعد ذلك بين انشتكين الدزبري وشبل الدولة نصر ، فهُزم نصر وقتل في واقعة تل فاس ، قرب حمص ، عام ١٠٣٨ م . ودخل الدزبري حلب وضمّها الى ولايته . وبقيت حلب تحت الحكم الفاطمي المباشر حتّى توفّي الدزبري عام ١٠٤٢ م ، فعاد بنو مرداس إلى حلب ، وتسلّم حكمها المدعو معزّ الدولة ثِمال ، وهو اخو شبل الدولة نصر . وتضعضعت احوال الدولة المرداسية في عهد ثِمال هذا بسبب فتن بني كلاب في شمال الشام ، فاستدعى ثِمال الفاطميين الى تسلّم شؤون حلب حوالي عام ١٠٥٨ م ، واستعاض عنها باقطاع جبيل وبيروت وعكّا من ثغور الساحل . ثم عاد بعد فترة الى حلب وجعله الفاطميون والياً عليها من قبلهم . واستمرّ الفاطميون يحكمون حلب عن طريق عملائهم من بني مرداس حتى افلتت منهم مجدّداً في عهد الأمير المرداسي عزّ الدولة

محمود بن نصر (١٠٦٥–١٠٧٥ م) . ولم يبق للدولة الفاطمية بعد ذلك من الشام الّا الأجناد الجنوبية ، وذلك فقط حتى عام ١٠٧٠ م .

٨

واهتمّ الفاطميون منذ قدومهم الى مصر بتجارة البحر الاحمر ، على ما يبدو ، كما اهتمّ بها الطولونيّون والاخشيديّون من قبلهم . فأخذوا يتدخّلون في شؤون اليمن ، وهي البلاد المسيطرة على مدخل هذا البحر من الجنوب . وكانت بلاد الحجاز ، إلى الشمال من اليمن ، تابعة لهم ، كما كانت تابعة للدولة الاخشيدية في مصر من قبل . ولم يطل الوقت حتى قامت دولة بني صُلَيح في اليمن ، وهي دولة اسماعيلية دانت بالولاء للخليفة الفاطمي في مصر . فتمّت السيطرة للفاطميين بالتالي على كامل طريق البحر من عدن الى السويس ، مروراً بموانىء الحجاز .

وكانت تجارة البحر المتوسّط قد أخذت تتوسّع في ذلك الحين باتجاه غرب اوروبا ، حيث بدأت ممالك «الفرنجة» تظهر في غضون القرن الميلادي العاشر وتحلّ مكان الفوضى السائدة هناك من قبل . فأصبحت للدولة الفاطمية في اواخر ذلك القرن ، او في اوائل القرن التالي ، تجارة مباشرة مع المدن الايطالية الناشئة في بلاد «الفرنجة» –ومنها البندقية Venezia وجنوة Genova وبيزا Pisa ومَلْف Amalfi – وذلك بالاضافة الى تجارتها المستمرّة مع بلاد الروم . وكان هذا التوسّع الملحوظ في المصالح التجارية للدولة الفاطمية –ولا شك– من الاسباب التي دعتها الى الاهتمام الخاص بثغور الساحل الشامي ، ومنها طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور . فاستمرّت هذه الثغور تضطرد نمواً من الناحية الاقتصادية في العهد الفاطمي .

وكان حظ طرابلس وصور من هذا النمو الاقتصادي ، على ما يظهر ،

أوفر من حظّ سائر الثغور الشامية فيما عدا اللاذقية . فما أن بدأ الحكم الفاطمي في الشام يضعف بعد وفاة انشتكين الدزبري حتى أخذت طرابلس تفكّ ارتباطها المباشر بالحكم الفاطمي . وتسلّم امرها قاضي الشيعة الامامية فيها ، وهو ابو طالب الحسن بن عمّار الملقب بأمين الدولة . وكان بدء استقلال طرابلس عن الدولة الفاطمية عام ١٠٤٨ م . وتبعتها صور عام ١٠٦٣ م ، فاستقل في الحكم هناك قاضي البلدة المدعو عين الدولة ابن أبي عَقيل . وكان ابن أبي عَقيل هذا على مذهب السنّة ، على أن معظم اهالي صور وجوارها كانوا من الشيعة ، وعلى الأرجح من الامامية . وممّا لا شك فيه ان الوضع التجاري القوي الذي تميّزت به طرابلس وصور في ذلك الوقت كان من العوامل الاساسية التي ساعدت على قيام حكم مستقل ناجح في كلّ من الثغرين في ذلك الوقت .

٩

وكانت قبائل « الغُزّ »[٨] من الترك قد دخلت بلاد الاسلام في تلك الأثناء من الشرق ، وعلى رأسها المدعو طُغْرُل بك[٩] ، من آل سلجوق . واستولى هؤلاء على بلاد فارس عام ١٠٤٠ م ، فجعل طغرل بك قاعدة ملكه في مدينة أصفهان . وصار اتباعه من الغزّ يتوغّلون في المناطق التي تلي بلاد فارس الى الغرب ، ومنها شمال العراق ، والجزيرة الفراتية ، وأرمينية ، وبرّ الأناضول من بلاد الروم ، فاستقرّت جاليات كثيرة منهم في تلك الجهات . وكان آل سلجوق وغيرهم من « الغزّ » شديدي التمسّك بمذهب السنّة والجماعة ، على حداثة عهدهم بالاسلام ، فاستدعاهم الخليفة العباسي القائم (١٠٣١–١٠٧٥ م) لنصرته ضد آل بويه ، وهؤلاء اسرة شيعية من بلاد الديلم تغلّبت على بغداد عام ٩٤٥ م ،

٨ . في التركية Oghuz .

٩ . في التركية Toghrul Beg .

واستمرت تسيطر منذ ذلك الوقت على الدولة العباسية هناك . ودخل طغرل بك بغداد لطرد آل بويه منها عام ١٠٥٥ م . ثم عاد اليها عام ١٠٥٨ م لقمع ثورة ضد العباسيين قام بها بعض انصار الدولة الفاطمية في العراق . فتمتّنت العلاقة بالتالي بين آل سلجوق وبني العباس . ونصّب الخليفة القائم حليفه طغرل بك « سلطانا » على بلاد الاسلام ، موكلاً اليه تدبير أمورها في ظل الخلافة العبّاسية .

وتوفّي طغرل بك في أصفهان عام ١٠٦٣ م ، وخلفه في « السلطنة » ابن أخيه ألب أَرْسلان[١٠] (١٠٦٣ – ١٠٧٢ م) . وكان ألب أَرْسلان هذا اول من عبر نهر الفرات ودخل الشام من آل سلجوق ، وذلك في عام ١٠٧٠ م . وفي ذلك العام بالذات اخذت اعداد كبيرة من الغزّ تجتاح البلاد الشامية من الشرق والشمال ، وانهار ما تبقّى من الحكم الفاطمي فيها . فتمّ على الاثر استقلال دولة ابن عمّار في طرابلس ، ودولة ابن أبي عقيل في صور . وقامت الدويلات في أماكن اخرى ، حيث عادت الفوضى الى ما كانت عليه قبل عهد الحاكم بامر الله .

وهكذا انتهى دور كامل من التاريخ في الشام . وهو دور ابتدأ بالفتح الاسلامي على يد الخلفاء العرب ، واستمر حتى ظهور امر الترك في البلاد بزعامة السلاطين من آل سلجوق . ومع نهاية هذا الدور اكتملت لوقت ما صورة لبنان والمناطق المجاورة له من ناحية تركيب العناصر البشرية فيها . فهناك الموارنة في شمال لبنان ، والدروز في بلاد « الاشواف » ووادي التيم ، والشيعة الامامية في جبل عاملة وبلاد بعلبك وكسروان ومناطق اخرى يصعب تحديدها ، بما فيها بعض مدن الساحل على الأقلّ . وهناك ايضا جاليات من السنّة أكثرها في مدن الساحل (وعلى الاخصّ بيروت) ، وبعضها في مناطق اخرى على الارجح . هذا بالاضافة الى ما كان هنا وهناك من الشيعة الاسماعيلية ، والشيعة النصيرية ، وغيرهم .

١٠ . في التركية Alp Arslan .

والواقع ان المناطق « اللبنانية » لم يكن لها في هذا الدور تاريخ يختصّ بها . وقد بقيت هذه المناطق تشكّل اجزاء هامشية من البلاد الشامية ، لا تنفصل عنها ، حتى اواخر القرن الميلادي الحادي عشر . وفي اوائل القرن التالي انطلق الدروز والموارنة من بين الطوائف « اللبنانية » — كلّ فريق على حدة — في مسيرة تاريخية واضحة المعالم . ومع انطلاق هاتين المسيرتين بدأ تاريخ الجبل اللبناني ينتهج نهجه الخاص ، كما سيظهر في الفصلين التاليين .

الفصل الثالث

الموارنة والدروز على المحكّ
١٠٧٠ – ١٢٩١ م

... ورأينا عن يمين طريقنا ... بلاد المعرّة ... ووراءها جبل لبنان وهو سامي الارتفاع .... وجبل لبنان المذكور هو حدّ بين بلاد المسلمين والأفرنج ، لان وراءه انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم ....

ابن جبير

١

شهد القرن الميلادي الحادي عشر تغيّرات هامة في أحوال العالم . وفي جملة هذه التغيرات ما نتج عن ظهور « الفرنجة » – أي شعوب الغرب المسيحي – كقوّة جديدة ناشطة على المسرح السياسي والاقتصادي والعسكري في حوض البحر المتوسّط . ففي غضون القرن العاشر ، بدأت الممالك الفرنجيّة تتكوّن في البلاد التي عرفت فيما بعد بـ « المانيا » و « فرنسا »[١] ، وذلك في الوقت الذي كان فيه أحبار رومية من « البابوات » يعيدون تنظيم الكنيسة « اللاتينية »[٢] ويضبطون تدبيرها تحت اشرافهم المباشر . فاخذت الأوضاع في الغرب المسيحي تستقرّ تدريجياً على الأثر . وأدّى هذا الاستقرار الجديد الى نهضة اجتماعية واقتصادية عامة انعكست أكثر ما يكون في ايطاليا ، حيث ظهرت في حينه اولى المدن الغربية المسيحية المتاجرة ، كما ذكرنا في الفصل السابق . وانبرى أحبار رومية إلى دعم هذه المدن الايطالية المتاجرة ، وكذلك الى دعم الممالك الفرنجية الناشئة . ثم أقدموا ، ابتداء بعام ٩٦٢ م ، على تتويج ملوك الالمان « أباطرة » على بلاد الغرب اللاتيني ، والاعتراف بهم كخلفاء شرعيين هناك لأباطرة الدولة الرومانية البائدة . فاستاء ملوك القسطنطينية من ذلك شديد الاستياء . اذ ان ملوك القسطنطينية

١ . تأسست مملكة الكابتيّين Capétiens في باريس عام ٩٨٧ م ، ولم يطلق عليها اسم فرنسا France رسميا قبل عهد الملك فيليب أوغيست Philippe Auguste، في أواخر القرن الثاني عشر . اما اسم المانيا او « جرمانيا » Germania ، فبقى عبارة جغرافيّة ، لا غير ، حتى تمّ توحيد البلاد على أسس قومية عام ١٨٧١ ، في ظل ملوك بروسية Prussien* من أسرة هوهنزولّرن Hohenzollern ، واطلق عليها اسم Deutschland .

٢ . نسبة إلى لاتيوم Latium ، وهو الاسم الأصلي لمدينة رومية ، قاعدة الكنيسة المسيحية في الغرب .

كانوا يعتبرون أنفسهم وحدهم أصحاب الحقّ في خلافة الأباطرة الرومان في العالم المسيحي ، وان لم تكن لهم سطوة بالفعل خارج بلاد « الروم » إلاّ على أجزاء متفرّقة من ايطاليا . وجاءت منافسة المدن الايطالية للقسطنطينية في حقل التجارة ، في ذلك الوقت ، توسّع شقّة الخلاف بين الروم في الشرق والفرنجة في الغرب . وما لبث هذا الخلاف أن انعكس في تباعد متزايد بين كنيسة الروم في القسطنطينية ، والكنيسة اللاتينية في رومية .

وفي أواخر القرن العاشر بدأ شأن الشعب « النورماندي » Normands يتعاظم في بلاد الفرنجة . وكان النورمانديّون في الأصل قراصنة خرجوا من البلاد الاسكندينافية في أقصى شمال اوروبا ، واستقروا أوّل الأمر في السهول الساحلية الشمالية من المملكة الفرنسية ، فأسسوا هناك « دوقية » (أي امارة) تابعة لهذه المملكة اطلق عليها اسم « نورمانديا » Normandie . ثمّ انطلق النورمانديون من هناك في غضون القرن الحادي عشر ، فاقام فريق منهم مملكة نورمانديّة في جنوب ايطاليا وجزيرة صقلّية ، بعد أن أخرجوا الروم والمسلمين من هناك . وتغلّب فريق آخر منهم بعد ذلك على انكلترا ، فأسّس هناك مملكة نورمانديّة ثانية . وكان أحبار رومية في تلك الأثناء قد بدأوا يتضايقون من نمو سطوة ملوك الألمان – وهم « اباطرة » الغرب – على حساب السلطة البابوية ، فأخذوا يوثّقون علاقاتهم مع ملوك فرنسا والمدن الايطالية ، ويدعمون النورمانديين في ايطاليا للحدّ من امتداد السيطرة الالمانية هناك . وما كاد النورمانديون يستقرّون في البلاد الايطالية ، بالتعاون مع أحبار رومية ، حتى بدأوا يتعاطون الملاحة والتجارة في البحر المتوسط ، وعلى الأخصّ في البحر الادرياتيكي الفاصل بين ايطاليا وبلاد الروم . فاصطدمت مصالحهم هناك مع مصالح الروم . ولم يطل الوقت حتى قامت الحروب الضارية بين الفريقين . وبقيت لدولة الروم في القسطنطينية المكانة الأولى في العالم المسيحي

حتى وفاة ملكها باسيل الثاني عام ١٠٢٥ م . ثمّ اخذت احوالها تتضعضع من جميع النواحي ، في الوقت الذي كان فيه شأن الفرنجة في الغرب « اللاتيني » ينمو ويتقوّى ليس فقط على حساب الروم ، بل أيضا على حساب المسلمين في صقلّية وبلاد « الاندلس » وما بينهما من الجزر ، ومنها « سردانية » و « قرسقة » . وأخذ مركز الثقل السياسي في حوض البحر المتوسّط يتحوّل بشكل ملحوظ من الشرق إلى الغرب ، مع تحوّل مماثل في مركز الثقل التجاري من القسطنطينية إلى المدن الايطالية . فأدى ذلك إلى اشتداد نقمة الروم على الفرنجة . وما كاد القرن الحادي عشر أن ينتصف حتى تمّ الإنفصال بين كنيسة « الروم » في القسطنطينية وكنيسة « اللاتين » في رومية عام ١٠٥٤ م . فجاء هذا الانفصال في حينه يعكس منتهى التدهور في العلاقات بين شطري العالم المسيحي .

٢

وكان الانشقاق قد نشأ في تلك الأثناء في العالم الاسلامي بين الخلافة العبّاسية السنّية في العراق من جهة ، والخلافة الفاطمية الاسماعيلية في « إفريقية » ، ثمّ في مصر ، من جهة اخرى . هذا بالاضافة الى قيام خلافة أموية مستقلّة للسنّة في الاندلس خلال القرن الميلادي العاشر . وظهرت بعد ذلك الدولة السلجوقية في بلاد فارس في اواسط القرن الميلادي الحادي عشر ، وتمّت لها السيطرة على العراق بالتحالف مع الخلافة العباسية هناك . فانبرى « السلاطين » من آل سلجوق إلى محاربة الدولة الفاطميّة منكرين عليها حقّها في الحكم . واستغلّوا في الوقت ذاته ضعف الروم وانحطاط دولتهم ، فأوقعوا بهم هزيمة كاسحة في ملاذكرد Manzikert ، في أرمينية ، عام ١٠٧١ م . وفي خلال عشرة أعوام تمّ لهم احتلال كامل برّ الأناضول ، حيث كانت جاليات كثيرة من

الأتراك « الغزّ » قد استقرّت من قبل . وكان أحد قادة « الغزّ » في الأناضول ، وهو المدعو أَتْسِز بن أُوق ،[3] قد خرج في العام ذاته الى الشام بعسكر كثير من « التركمان » (أي عشائر الترك) . فأغار على فلسطين وأخذ الرملة والقدس ، ثم حاصر دمشق حتى دخلها عام ١٠٧٦ و « خطب » للخليفة العبّاسي فيها (أي ذكر اسمه في خطبة الجمعة مكان اسم الخليفة الفاطمي) . ونصّب أتسز نفسه حاكما على بلاد دمشق والاردن وفلسطين فيما عدا امارة ابن ابي عقيل في صور ، وامارة ابن عمّار في طرابلس ، وبعض ثغور الساحل التي بقيت في أيدي الفاطميين — ومنها بيروت وصيدا . وتلقّب بـ « الملك المعظم » ، وأخذ يتهدّد بني مرداس في حلب والدولة الفاطمية في مصر .

وكان السلطان السلجوقي أَلب ارسلان ، كما ذكرنا ، قد عبر نهر الفرات ودخل بلاد حلب في اوائل عام ١٠٧١م . ثم خرج منها في العام ذاته لملاقاة عسكر الروم في واقعة ملاذكرد . وتوفيّ في العام التالي ، فتسلّم السلطنة في أصفهان ابنه مَلِكشاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢ م) . ولم يرق للسلطان ملكشاه تعاظم أمر أتْسِز بن أُوق في دمشق . فأقطع الشام لأخيه تاج الملوك تُتُش[4] بن أَلب أَرسلان . ودخل تُتُش الشام بجيش عظيم ، واستولى على دمشق عام ١٠٧٨م ، ثم قبض على أتسز بن اوق وأمر بخنقه . وما ان انتهى تتش من أمر دمشق حتى خرج الى الساحل ، فاستولى على صيدا وبيروت وبعض الثغور الاخرى . وبقيت صور وطرابلس في عهدة أمرائها من بني ابي عقيل وبني عمّار .

وتمّت السيطرة للسلاجقة على معظم الشام عام ١٠٨٦م ، عندما استولى تتش على حلب ثمّ سلّمها الى اخيه السلطان ملكشاه . وكان سلاجقة الاناضول قد اخرجوا الروم من انطاكية في العام السابق ،

٣ . اسمه بالتركية Atsiz واسم ابيه Ok .

٤ . اسمه بالتركية Tutush.

فتسلّمها السلطان ملكشاه أيضاً . وولىّ ملكشاه احد قادته — وهو الأمير آقسُنْقُر[5] الحاجب — على حلب ، وولىّ قائداً آخر — وهو المدعو ياغي سيان[6] — على انطاكية . وما كادت سيطرة آل سلجوق تتركز في الشام حتى بدأت قوافل التجّار تنقل اليها السلع من بلاد فارس والعراق . فنشطت بالتالي الحياة الاقتصادية في مدن الداخل الشامي ولا سيّما في حلب وحمص . وصارت ثغور الساحل — وعلى الأخصّ طرابلس — تصدّر البضائع الواردة اليها من الشرق عن طريق البرّ ، بالاضافة الى البضائع الواردة اليها من مصر عن طريق البحر .

والظاهر ان الدولة الفاطميّة امتعضت من عودة تجارة البرّ من بلاد الشرق الى الشام ، وتخوّفت من تأثير ذلك على مصالحها الاقتصادية المعتمدة على تجارة البحر الاحمر . وكان أمير الجيوش الأرمني الأصل ، وهو المدعو بدر (ربّما بدروس Bedros) الجمالي ، قد تسلّم أمر الدولة الفاطمية في مصر منذ عام ١٠٧٤م بسبب ضعف الخليفة المستنصر . فهمّ بدر الجمالي هذا عام ١٠٨٩م الى تنظيم حملة عسكرية لاستعادة ما تيسّر من الساحل الشامي للدولة الفاطمية . فاستعاد معظم ثغور جند فلسطين وجند الاردن ، وأخذ صور من بني أبي عقيل ، وصيدا من السلاجقة ، وجبيل (لفترة ما على الاقلّ) من بني عمّار . ولم يبق لتتش من ثغور جند دمشق ، على ما يبدو ، سوى بيروت (انظر ابن شدّاد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، دمشق ، ١٩٦٢ ، ص ١٠٢) . وخلف بدر الجمالي في تدبير شؤون مصر ابنه الأفضل (١٠٩٤ — ١١٢١م) ، فنجح هذا في استعادة معظم فلسطين من السلاجقة ، بما فيها القدس ، وذلك عام ١٠٩٨م .

٥ . بالتركية Aksunkur .

٦ . بالتركية Yaghi Siyan .

وتوفّي السلطان ملكشاه في أصفهان عام ١٠٩٢ م ، وقام الخلاف بين ابنيه محمود (١٠٩٢ – ١٠٩٤م) وبرقيارُق[7] (١٠٩٤ – ١١٠٤م) على العرش . وخرج تاج الملوك تتش من دمشق طالبا السلطنة لنفسه . وكان آقسنقر الحاجب ، صاحب حلب ، مواليا لبرقيارق بن ملكشاه ، فهزمه تتش عام ١٠٩٤م ، وأمر بقتله ، واستولى على حلب . ثمّ عبر الجزيرة الفراتية وشمال العراق ودخل بلاد فارس ، فهزمه عسكر برقيارق في واقعة الريّ عام ١٠٩٥م ، وسقط تتش في هذه الواقعة قتيلا . واقتسم الشام بعد مصرع تتش اثنان من ابنائه . فتغلّب الأكبر ، وهو المدعو رضوان ، على حلب ، وتغلّب الأصغر ، وهو المدعو دُقاق[8] ، على دمشق وما يليها من البلاد .

وكان رضوان على علاقة سيئة بابن عمّه السلطان برقيارق ، فأخذ يصانع الدولة الفاطميّة في مصر ، ويدعم اتباعها من الاسماعيلية في بلاد حلب . وكان معظم أهالي حلب وجوارها في ذلك الوقت باقين على مذهب الشيعة الامامية ، فأخذ رضوان يتودّد اليهم ويظهر الميل الى التشيّع . واظهر رضوان العداء لأخيه دقاق في دمشق ، فمال دقاق الى السلطان برقيارق ، وأخذ هذا الاخير يدعمه ضد رضوان . وكان دقاق ، على عكس أخيه رضوان ، على جانب كبير من وداعة الخلق . وسلّم تدبير مملكة دمشق الى « أتابكه » المدعو ظهير الدين طُغْتكين[9] . و « الاتابك »[10] في عرف السلاجقة هو الوكيل على امر ابناء الملوك . وكان سلاطين آل سلجوق يعيّنون « اتابكا » من كبار « الامراء » (أي قادة العسكر) لكلّ من ابنائهم ، فيصبح هذا الأتابك بالتالي وصيّاً على

---

٧ . اسمه بالتركية Berkyaruk .

٨ . ربّما كان اسمه بالتركية Tekak .

٩ . بالتركية Tughtekin .

١٠ . بالتركية Atabeg .

هذا الابن . وكلمة « اتابك » في التركية لفظة منحوتة من « أتا » (اي والد) و « بك » (أي أمير) ، بمعنى « الامير الوالد » ، أي الوصيّ . وتزوّج الاتابك ظهير الدين طغتكين والدة دقاق ، وهي « الخاتون » صفوة الملك ، من زوجات تتش . فتوطّدت العلاقة بين الملك والاتابك .

وأحسن دقاق وطغتكين تدبير مملكة دمشق ، وجعلوها ، على عكس حلب ، قاعدة للسنّة في الشام . فرفعوا فيها شعارات الخلافة العبّاسيّة والسلطنة السلجوقية . وكان معظم اهل دمشق وجوارها من المتحمّسين لمذهب السنّة ، فأنسوا لهذه السياسة ودعموها بكامل قواهم . وأظهر طغتكين الاهتمام بأمر « الاطراف » من المملكة ، ولعلّه بادر منذ البدء الى اقامة العلاقات الحسنة مع الدروز في « الاشواف » من جبل لبنان . ولم يطل الزمن ، على كلّ حال ، حتّى أصبح « ولاة الاطراف » من الدروز هناك من اهم العناصر المناصرة للحكم السنّي الجديد في دمشق ، كما سيأتي .

٣

وطمع رضوان بن تتش بمملكة أخيه دقاق في دمشق ، وقامت الحروب بينهما واستمرت حتى عام ١٠٩٨م . وكان سلاجقة برّ الاناضول قد استقلّوا عن سلطنة أصفهان في تلك الاثناء وجعلوا قاعدة ملكهم في مدينة ايقونية Eikonia ، وقد سمّاها الترك « قونية » Konya . فشجّع هذا التفكّك في الدولة السلجوقية طموح الروم الى استعادة برّ الاناضول وانطاكية من الترك . وأخذ ملك القسطنطينية الكسيوس الأول ، من الاسرة الكومنانيّة Alexios Komnènos ، يراسل أحبار رومية طالباً منهم النجدة العسكرية لهذا الغرض .

وكانت العلاقات بين أحبار رومية من البابوات وأباطرة الغرب من ملوك الالمان قد بلغت الحضيض في ذلك الحين ، بعد أن أعلنت رومية « الحرم » على

الامبراطور هنري الرابع للمرّة الثانية . و« الحرم » excommunication ، في العرف الكنسي ، يفرض على المؤمنين عدم التعامل مع الشخص « المحروم » . وكان الامبراطور هنري الرابع منذ تولّيه الحكم قد أمعن في مناهضة رومية وتحدّي سلطة احبارها . وأخذ أحبار رومية بالتالي يترقّبون الفرصة للنيل من الامبراطور الخارج عن طاعتهم . وجاءت هذه الفرصة عندما توجّه ملك القسطنطينية الى رومية بطلب النجدة من المسيحيين الفرنجة في الغرب ضدّ السلاجقة . فهبّ البابا اوربانوس الثاني Urbanus II الى التجاوب مع هذا الطلب ، وقام عام ١٠٩٥م بدعوة الملوك والامراء في بلاد الفرنجة الى الاسراع في نجدة المسيحية المهدّدة في الشرق . وذهب الى أبعد مما طلبه الملك الكسيوس ، فحثّ قادة الغرب المسيحي ليس فقط على مساعدة الروم في استرجاع برّ الاناضول وانطاكية من الترك ، بل أيضا على استرجاع كامل « الاراضي المقدّسة » في فلسطين من المسلمين . وكان القصد السياسي من هذه الدعوة – بغضّ النظر عن مضمونها الديني – وضع كنيسة رومية على رأس حملة مسيحية عارمة ضدّ العالم الاسلامي توحّد صفوف الفرنجة تحت لواء الحبر الاعظم ، وتقصي ملك الالمان – وهو الامبراطور هنري الرابع المحروم – عمّا كان يصبو اليه من القيادة الفعلية للغرب المسيحي .

ووجّه اوربانوس الثاني النداء بشكل خاص الى وجهاء البلاد الفرنسية والنورماندية ، والى اعيان المملكة الالمانية الذين كانوا على خلاف مع الامبراطور . فتجاوب معه فريق كبير من هؤلاء : منهم « صنجيل » ، وهو « قومس »[11] تولوز في جنوب فرنسا .[12] ومنهم « الغندفري » او « جفري » ، « دوق » المنطقة السفلى من اللّورين[13] ، وهي من المناطق التابعة آنذاك للمملكة

١١ . من اللاتينية Comes ، وبالفرنسية Comte .

١٢ . Raymond de Saint-Gilles, Comte de Toulouse

١٣ . Gaudefroy de Bouillon, Duc de la Basse Lorraine

الالمانية . وكان « الغندفري » في ذلك الحين على خلاف شديد مع الامبراطور هنري الرابع الذي كان يتهدّده بالعزل . ومنهم « بغدوين » ، أو « البردويل » ،[14] وهو شقيق « الغندفري » . ومنهم أيضاً « بيمند » Bohemond وابن شقيقه « تنكريد » Tancred ، من الأمراء النورمانديين في جنوب ايطاليا . وكان كلّ من هؤلاء يطمح – لسبب او لآخر – الى انشاء دولة مستقلّة لنفسه في بلاد المشرق . وتجاوبت المدن الايطالية – وعلى الأخصّ جنوة وبيزا – مع نداء الحبر الاعظم . وكانت هذه المدن طامحة الى السيطرة التجارية المباشرة على اسواق المشرق . فوضعت سفنها وملاّحيها على أهبة الاستعداد لنقل جيوش الفرنجة الى بلاد الاسلام ، وللمشاركة في الاعمال الحربية هناك.

٤

وبدأ قادة الفرنجة يتّجهون بجيوشهم نحو القسطنطينية عام ١٠٩٦م ، ثم انطلقوا من هناك الى بلاد الاسلام . فهزموا السلاجقة في برّ الاناضول واستعادوا الاجزاء الغربية منه لملك الروم عام ١٠٩٧م . ثم دخلوا الشام ، وكانت الحرب قائمة هناك بين رضوان بن تتش وحلفائه من جهة ، وأخيه دقاق وحلفائه من جهة أخرى . فنزل فريق من الفرنجة على أنطاكية ، وفريق آخر منهم على الرها Edessa (وهي اليوم « أُورفة ») في الجزيرة الفراتية ، فأخذوا المدينتين في غضون عام ١٠٩٨م . واستقرّ « بغدوين » في الرها وجعل نفسه « قومسا » عليها . ونصب « بيومند » نفسه ، في الوقت ذاته ، « أميرا » Prince على أنطاكية . أمّا الباقون من قادة الفرنجة ، فغادروا انطاكية متوجّهين جنوبا الى القدس ، دون أن يلاقوا في طريقهم مقاومة تذكر .

١٤ . Baudouin de Bouillon

وتوقّف الفرنجة في ربيع عام ١٠٩٩م ليحتفلوا بعيد الفصح في بلدة عرقا ، من أعمال عكّار ، فالتقاهم هناك وفد من موارنة جبل لبنان ليرحّبوا بهم ويعرضوا عليهم المساعدة . وكان الموارنة – كما سبق وذكرنا – على علاقة سيئة مع الروم منذ البدء . ولعلّهم كانوا على علم بالانفصال القائم بين كنيسة « الروم » والكنيسة اللاتينية ، فاستبشروا بقدوم الفرنجة الى بلاد المشرق وأقبلوا على مناصرتهم . وأوعز الموارنة الى قادة الفرنجة أن يتّخذوا طريق الساحل إلى القدس لكونها أفضل من الطرق الداخلية وأقلّ خطرا منها . وتخوّف بنو عمّار في طرابلس من مرور الفرنجة بجوارهم ، فقدّموا لهم المؤن وأمّنوا لهم من يرافقهم في طريقهم الى القدس اتقاء لشرّهم . ووصل الفرنجة الى القدس في صيف ذلك العام ، فأخذوا المدينة من الفاطميين . ثم اعملوا السيف في أهلها من المسلمين وأهلكوا منهم اعداداً كبيرة . وجعل الفرنجة من القدس قاعدة لـ « مملكة أورشليم » ،[١٥] وسلّموا أمرها الى « الغندفري » ، شقيق « بغدوين » صاحب الرها . ثمّ توفّي « الغندفري » في العام التالي ، فانتخب أخوه « بغدوين » خلفا له (١١٠٠ – ١١١٨ م) .

وفي عهد الملك « بغدوين » توسّعت تخوم مملكة اورشليم الفرنجية عن طريق الفتوحات حتى ضمّت كامل جند فلسطين فيما عدا عسقلان وغزّة ، وكامل الجليل من جند الاردن فيما عدا صور ، بالاضافة الى جبل صيدا من بلاد « الاشواف » في لبنان ، والسفوح الشرقية من هذا الجبل حتّى مجرى نهر الليطاني في البقاع . وكانت حروب « بغدوين » في الساحل مع الدولة الفاطمية ، وفي الداخل مع مملكة دقاق في دمشق . وفي عام ١١١٠ م أخذ « بغدوين » مدينة صيدا من الفاطميين وأقطعها مع ما يليها من جبل الشوف الى اسرة « غرينيه » Grenier (ويرد الإسم أيضاً بشكل « غارنيه » Garnier) . فأصبحت هذه المدينة

١٥ . Royaume de Jérusalem

بالتالي قاعدة لمقاطعة من مملكة اورشليم أطلق عليها اسم « سنيورية صيدا » .[١٦] وفي العام ذاته أخذ « بغدوين » بيروت من مملكة دمشق ، بالاضافة الى قرى الساحل القريبة منها دون جبل « الغرب » ، فجعل هناك مقاطعة أخرى أطلق عليها اسم « سنيورية بيروت »[١٧] ، وأوكل أمرها الى اسرة « بريزبار » Brisebarre . وحاول « بغدوين » احتلال صور ، فلم يتمكّن . وبقي هذا الثغر من الساحل الشامي في أيدي الفاطميين حتى أخذ منهم عام ١١٢٤م في عهد « بغدوين » الثاني ، وهو ابن أخت « بغدوين » الأول الذي خلفه على عرش اورشليم عام ١١١٨م . ووضع ملوك اورشليم صور تحت حكمهم المباشر . أمّا جبل عاملة ، فاتبعوا الجزء الشمالي منه بـ « سنيورية » صيدا ، والجزء الجنوبي بـ « امارة » الجليل[١٨] التابعة كذلك لمملكتهم .

وفي تلك الأثناء تمّ للفرنجة الاستيلاء على كامل امارة بني عمّار في طرابلس ، وما يلي هذه الامارة شرقا من جبل لبنان وجبل بهراء . وكان ذلك على يد « صنجيل » (توفّي ١١٠٥ م) ومن بعده ابنه « بلترام » Bertrand الذي وصل الى الشام عام ١١٠٨ م . وحاول بنو عمّار جهدهم أن يصدّوا الفرنجة عن امارتهم بمساعدة الأتابك طغتكين الذي استقل في حكم دمشق بعد وفاة الملك دقاق عام ١١٠٤ . وخرج الأمير فخر الملك بن عمّار (١٠٩٨ – ١١٠٩ م) الى بغداد طالباً النجدة من آل سلجوق في العراق وبلاد فارس ، وأغدق هؤلاء عليه الوعود ولم ينفّذوا شيئاً منها . واستغلّ الفاطميّون غياب ابن عمّار عن طرابلس ، فدخلوا المدينة عن طريق البحر عام ١١٠٨ م وعيّنوا عليها والياً من قبلهم .

١٦ . Seigneurie de Sagette ،لعل هذا الشكل الفرنجي القديم لاسم « صيدا » مأخوذ عن اللفظ الايطالي لاسم المدينة Sajetta (صَيْتا) ، بوضع التاء مكان الدال .

١٧ . Seigneurie de Barut

١٨ . Principauté de Galilée

وكانت الثغور التابعة لامارة طرابلس قد سقطت بمعظمها في أيدي الفرنجة. وأوّل ما سقط منها ثغر جبيل عام ١١٠٤ م. ثم أخذ «صنجيل» ومن جاء بعده يحكمون الطوق على طرابلس حتى تمكّنوا منها وأخذوها من الفاطميّين عام ١١٠٩ م. وبسقوط طرابلس تمّ انشاء الدولة الفرنجية الرابعة في الشام، بعد قومسية الرها وامارة انطاكية ومملكة اورشليم، واطلق على هذه الدولة الجديدة اسم «قومسية طرابلس».[١٩] واستمرت هذه الدولة في عهدة الأسرة التولوزية من آل «صنجيل» حتى انقطعت سلالتهم عام ١١٨٧ م، فتسلّم قومسية طرابلس من بعدهم أصحاب امارة انطاكية.

وهكذا تمّ استيلاء الفرنجة في وقت قصير على أجزاء كبيرة من الشام، ولم يبق للمسلمين في البلاد ممّا يستحقّ الذكر الّا مملكة حلب ومملكة دمشق. وقد تمكّن الفرنجة من الاستيلاء على مدن الساحل الشامي بمساعدة الاساطيل الجنويّة والبيزانية. فأقطع أهالي جنوة وبيزا أجزاء من هذه المدن مكافأة لهم على مساعدتهم. وكان للجنويّين من هذه الاقطاعات الحصّة الكبرى، ومنها «سنيورية جبيل»[٢٠] التي وضعها آل «صنجيل» في عهدة أسرة «الامبرياتشي» Embriaci الجنويّة. فاستمرّ هؤلاء يحكمون هذه المقاطعة ضمن «قومسية طرابلس» طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد.

٥

وما أن تمّ استيلاء الفرنجة على المناطق الساحلية من الشام حتى نشطت تجارة البحر بين الشرق والغرب الى حدّ لم تعرفه منذ العهد الروماني. فازدهرت ثغور قومسية طرابلس ومملكة اورشليم، بما فيها طرابلس

١٩. Comté de Tripoli

٢٠. Seigneurie de Giblet

وجبيل وبيروت وصيدا وصور، وأمّها الناس من جميع الجهات. وانعكس هذا الازدهار في انتعاش المناطق الريفية التي دخلت تحت حكم الفرنجة، ومنها المناطق المارونية في قومسية طرابلس – وعلى الأخصّ المناطق المارونية التابعة لـ«سنيورية» جبيل الجنويّة. فأخذ موارنة القرى القريبة من الساحل يتقرّبون من الفرنجة في المدن، ويتعاملون معهم، ويتأثّرون بهم، ويستفيدون من النهضة الاقتصادية الناتجة عن وجودهم هناك. أمّا موارنة المناطق العالية من الجبل، ومعظمهم من أبناء العشائر، فبقوا متحفظين تجاه الفرنجة، كما كانوا متحفظين من قبل تجاه المسلمين. ويبدو انهم لم يأنسوا للتدابير الادارية التي استحدثها أصحاب قومسية طرابلس لضبط امور الجبل عن طريق التنظيم الاقطاعي، فكانوا بين فترة وأخرى يتحدّون الفرنجة ويثورون عليهم. وهناك ما يشير الى ان عشائر الموارنة في أعالي لبنان تعاونوا مع اتابكة دمشق ضد فرنجة طرابلس عام ١١٣٧ م، وأسهموا في مقتل «بونس» Pons – وهو قومس طرابلس – في ذلك العام. فشنّ رَيْمُند الثاني Raymond II، وهو ابن القومس القتيل، هجوماً عليهم على الأثر وقتل اعداداً كبيرة منهم ثأراً لأبيه.

وأقام الفرنجة على «كرسي» انطاكية و«كرسي» القدس بطاركة من المذهب «اللاتيني»، وذلك فور نجاح ما يسمّيه المؤرّخون بالحملة «الصليبية»[٢١] الأولى (١٠٩٦–١٠٩٩ م). فأخذ بطاركة الموارنة منذ

٢١. استحدث الاوروبيون كلمة Croisades (بالفرنسيّة) او Croisades (بالانكليزيّة، من الجذر اللاتيني Crux (بمعنى الصليب)، للدلالة على الحملات العسكرية التي قام بها الفرنجة على بلاد المشرق ابتداء بأواخر القرن الحادي عشر للميلاد. ولفظة «الصليبية» في العربية، بهذا المعنى، هي ترجمة متأخرة للعبارة الاوروبية، ولم تستعمل قبل القرن التاسع عشر. والاصول العربيّة تطلق على «الصليبيّين» اسم «الفرنجة» او «الافرنج». أمّا الفرنجة الذين كانوا يشتركون في الحملات «الصليبية»، فكانوا يسمّون أنفسهم Chrétiens، أي «مسيحيّين»، أو Pélerins، أي «حجّاج». وكانوا يطلقون على الكيانات التي أقاموها في بلاد المشرق اسم Terre d'Outremer، أي «بلاد ما وراء البحر».

٧ . دول الفرنجة في الشام قبل عام ١١٤٤ م

ذلك الوقت يتقرّبون من بطاركة « اللاتين » في أنطاكية والقدس ، ويظهرون الميل الشديد الى الدخول في طاعة الحبر الأعظم ، وهو رئيس « الكنيسة الرومانية الكاثوليكيّة » في الغرب . وكان اوّل من أظهر هذا الميل البطريرك يوسف الجرجسي . وتفيد المصادر المارونية المتأخرة ان هذا البطريرك كان مقيماً عام ١٠٩٩ م في دير سيّدة يانوح ، في جبّة المنيطرة ، وانه بعث برسالة (ربّما شفوية) الى البابا باسكال الثاني Pascal II (١٠٩٩ – ١١١٨ م) مع الوفد الذي ارسله « الغندفري » الى رومية ليزفّ بشرى احتلال القدس الى الحبر الأعظم . فعاد الوفد في العام التالي حاملاً معه « التاج » و« العصا » ، هديّة من البابا الى بطريرك الموارنة .

وتفيد المصادر المارونية ذاتها ان رؤساء الطائفة المارونية وعلماؤها التقوا « قاصد »[٢٢] البابا اينوشنتوس الثاني Innocentius II (١١٣٠ – ١١٤٣ م) في طرابلس عام ١١٣١ م ، وذلك في عهد البطريرك الماروني غريغوريوس الحالاتي (١١٣٠ – ١١٤١ م) ، فأقسموا هناك على الطاعة للحبر الاعظم والقبول بمذهبه ، ووقّعوا على وثيقة بهذا المعنى . والمعروف ان البابا اينوشنتوس الثاني أرسل قاصداً الى بلاد المشرق عام ١١٣٩ م (وليس ١١٣١ م) ، وان الطائفة الارمنية دخلت في طاعة رومية في ذلك العام على يد هذا القاصد . ولعلّ الكنيسة المارونية حذت حذو الارمن في ذلك الوقت ، فالتقى رؤساؤها القاصد نفسه في طرابلس وأقسموا له الطاعة .

ومهما يكن من الأمر ، فمن الواضح ان الموارنة كانوا على خلاف فيما بينهم بشأن الدخول في طاعة الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة . ولعلّ الموارنة الذين كانوا على صلة مع الفرنجة – ومنهم البطاركة وكبار الأساقفة – كانوا هم بالذات الفريق الذي كان يؤيّد فكرة الاتّحاد مع رومية . ولا بدّ أن الموارنة المتحفّظين تجاه الفرنجة – وهم كما ذكرنا أبناء

٢٢ . « القاصد » في عرف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية هو الممثّل الشخصي للحبر الاعظم .

العشائر في جبّة بشرّي ومرتفعات بلاد جبيل والبترون–كانوا هم بالذات الفريق الرافض لفكرة الاتّحاد هذه . وكان ريْمُنْد الثاني قد قام بحملته التأديبية ضدّ هؤلاء الموارنة من عشائر الجبل في العام السابق لوصول قاصد البابا اينوشنتوس الثاني الى بلاد المشرق .

وتفيد مصادر الفرنجة ، دون المصادر المارونية (والأخيرة جميعها مصادر متأخرة) ، «ان قوماً من السريان[23] في مقاطعة فينيقية ، قرب جبل لبنان ، وهم المقيمين في البلاد القريبة من مدينة جبيل ، أصابهم تحوّل عجيب في قلوبهم .... إذ أنهم ذهبوا (حوالي عام ١١٨٠ م) الى أملريق Amaury ، بطريرك انطاكية – وهو الثالث من بطاركة اللاتين فيها – . . . وعادوا الى وحدة الكنيسة الكاثوليكيّة . وتبنّوا الإيمان الصحيح ، واستعدّوا لقبول تقاليد الكنيسة الرومانيّة ، وأتباعها بكلّ احترام .... وتندّموا على ما كانوا عليه من البدع ، وعادوا الى الكنيسة الكاثوليكية بقيادة بطريركهم وعدد من أساقفتهم» (نقلاً عن تاريخ غليوم الصوري ، توفّي عام ١١٨٥ م).[24]

والواضح من هذه الإفادة الدقيقة ان الموارنة الذين عادوا يؤكدون الطاعة للكنيسة الرومانية قرابة عام ١١٨٠ م ما كانوا الّا فريقاً من الطائفة من سكّان القرى القريبة من ساحل «فينيقية» (على حد تعبير غليوم الصوري ، المعاصر لهذا الحدث) . وكان البطريرك الماروني ، القاطن في قرية يانوح من جبّة المنيطرة ، على رأس هذا الفريق ، وكذلك بعض اساقفة الطائفة الموالين له . ويبدو ان اصرار هذا الفريق من الموارنة على

٢٣ . كان الفرنجة يطلقون اسم «السريان» les Suriens على جميع الطوائف المسيحية في الشام التي كانت تعتمد السريانية في طقسها ، وهي الطوائف الملكية واليعقوبية والمارونية . وقد لاحظ مؤرّخوهم ، من ناحية أخرى ، ان جميع هؤلاء «السريان» – بمن فيهم الموارنة – كانوا يتكلّمون العربيّة فيما بينهم .

٢٤ . Guillaume de Tyr, *L'éstoire de Eracles, Empereur, et la conquêtte de la terre d'outremer*, in *Recueil des historiens des Croisades, historiens occidentaux*, I (Paris, 1896), p. 1076.

تأكيد ولائهم لرومية لم يرق لغيرهم من أبناء الطائفة . فقامت الفتن بين الفريقين على الأثر ، واستمرّت هذه الفتن مدّة طويلة . وتدخّلت الكنيسة الرومانية اخيراً بشكل مباشر لتحسم الأمر . وكان البطريرك الماروني آنذاك إرميا العمشيتي (١١٩٨–١٢١٦ م) .

وكان البابا هذا قد أرسل قاصداً الى بلاد المشرق عام ١٢٠٢ م ، وهو الكاردينال المدعو بطرس الكابوي Pietro di Capua . فالتقى هذا القاصد كهنة الطائفة المارونية وأعيانها في طرابلس في العام التالي ، ودعاهم الى الاجماع على طاعة رومية . وبعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ ، وجّه البابا اينوشنتوس الثالث دعوة خطّية الى البطريرك إرميا العمشيتي لحضور المجمع اللاتراني (اي المجمع المعقود في قصر اللاتران Lateran ، وهو في ذلك الوقت مقام البابوات في مدينة رومية) .[25] فغادر البطريرك الماروني جبل لبنان في اواخر عام ١٢١٥ م ، وحضر الجلسات الافتتاحية للمجمع المذكور ، ثم استأذن الحبر الأعظم بالعودة الى بلاده ، فأذن له . وحمّله الحبر الأعظم رسالة «غفران» الى الطائفة المارونية ما زالت موجودة في محفوظات الفاتيكان . وهذه الرسالة – مع الدعوة التي تسلّمها البطريرك الماروني عام ١٢١٣ لحضور المجمع اللاتراني – هي أقدم الوثائق الثابتة التي ما زالت في متناولنا بشأن تاريخ الكنيسة المارونية . وقد نشر نصّها الاب طوبيا العنيسي ، في الأصل اللاتيني ، مع غيرها من الرسائل البابوية الى الطائفة المارونية ، في مجموعة «الرسائل المارونية» المذكورة في مقدّمة هذا الكتاب .[26]

وتمكّن البطريرك إرميا العمشيتي ، بفضل العلاقة المباشرة التي قامت

٢٥ . استمرّ أحبار رومية يقيمون في قصر اللاتران حتى القرن الخامس عشر ، عندما نقلوا مركزهم الى قصر الفاتيكان (وهو مقامهم الحالي) بعد عام ١٤١٤ .

٢٦ . انظر ص ٢٠ ، ٢٠ حاشية ٦ .

بينه وبين الحبر الاعظم ، من ضبط الكنيسة المارونية في اتحادها مع رومية مدّة حياته . وما ان توفي عام ١٢٣٠ حتى عادت الفتن تشق صفوف الطائفة. ففي زمن خلفه البطريرك دانيال الشاماتي (١٢٣٠–١٢٣٩) ، خرج موارنة جبّة المنيطرة وناحية لحفد ، في أعالي بلاد جبيل ، عن طاعة البطريرك ، وثاروا على « الملك » (على حدّ قول ابن القلاعي ، والمعني على الارجح صاحب « سنيورية » جبيل ، من أسرة امبرياتشي الجنويّة) . ولربّما كان بدء خروج أهالي جبّة المنيطرة ولحفد على البطاركة في اواخر عهد إرميا العمشيتي بالذات ، ممّا اضطرّ هذا البطريرك الى التخلّي عن مقامه الاصلي في يانوح في وقت ما ، والانتقال منه الى دير سيّدة مَيْفوق ، في بلاد البترون ، حيث توفّي . وخلفه البطريرك دانيال الشاماتي في ميفوق ، فاضطرّ هذا بدوره الى الانتقال من هناك الى دير مار قبريانوس في كفيفان ، ثم الى دير مار يوحنا مارون في كفرحيّ ، وكلا القريتين من بلاد البترون ، ثم الى دير مار جرجس الكَفَر ، من قرى جبيل . والواضح ان هذه التنقلات من قبل البطريرك إرميا ، ومن بعده البطريرك دانيال ، كانت بسبب انتشار الفتن بين الموارنة في زمانهما .

وبلغ الانشقاق في الطائفة المارونية ذروته عام ١٢٨٢ م عندما توفّي البطريرك دانيال الحدشيتي (وهو غير دانيال الشاماتي) في ميفوق. فقام الموارنة الخارجين عن طاعة رومية (وكذلك عن طاعة الفرنجة) بانتخاب المدعو لوقا البنهراني (وبنهران قرية من جبّة بشرّي) بطريركا عليهم . واتّخذ البطريرك لوقا من قرية الحدث ، في جبّة بشرّي ، مقرّاً حصيناً له ، وأخذ يناهض الفرنجة في طرابلس ، على ما يظهر ، ويقطع عليهم دروب الجبل. فسارع صاحب سنيورية جبيل—وهو كبير ولاة المقاطعات في قومسية طرابلس—الى استدعاء الاساقفة الموارنة الموالين لرومية والفرنجة ، وحثّهم على انتخاب المدعو إرميا الدملصاوي بطريركاً على الطائفة . وأُرسل البطريرك إرميا الثاني هذا على الفور الى رومية ليأتي بتثبيت لانتخابه

من قبل الحبر الأعظم . ثم عاد واستقرّ في حالات ، من قرى الساحل التابعة لجبيل .

وأغار جماعة من التركمان على جبّة بشرّي في العام التالي ، فخرّبوا الحدث ، وقبضوا على البطريرك لوقا البنهراني ، كما سيأتي ،[27] فانتهى أمره بذلك . واستمرّ منافسه إرميا الدملصاوي وحده بطريركاً على الموارنة في حالات . غير ان الانشقاق في صفوف الطائفة لم ينته على الأثر ، بل استمرّ حتى خروج الفرنجة نهائياً من بلاد المشرق.

ولعلّ الضعف الذي حلّ بالكنيسة المارونية من جرّاء الانشقاق بين الفريق المصرّ على الاتّحاد مع رومية من جهة ، والفريق الرافض لهذا الاتحاد من جهة اخرى ، كان من العوامل التي قوّت مركز « المقدّمين » الموارنة—وهؤلاء زعماء الموارنة في القرى ، ومعظمهم أو جميعهم من القرى النائية في الجبل. وتفيد المعلومات الواردة في زجليّة ابن القلاعي ان بعض هؤلاء المقدمين دخل في طاعة سنيورية جبيل ، وانضوى في صفوف فرسانها المحلّفين. ومن هؤلاء أحد مقدّمي لحفد ، وهو المدعو كامل. وقد روى ابن القلاعي عن لسانه قوله (ابن القلاعي ، حروب المقدّمين .... ، ص ١٩) :

« إن ذلـك زيّ الفرسـان ،   فـي سرّ مخفـى أعلمهـم :
وهـو علّمنـي ركوب الخيـل ،   وانـا فارس ملـك جبيـل ،
لأجـل ذلـك انـا فزعان » .   يسمـع بـي يوّصلنـي الويـل ،

وكثيراً ما كان مقدّمو القرى المارونية ، من أمثال كامل هذا ، يساعدون الفرنجة في حروبهم . وكان الفرنجة يعتبرون الموارنة من أشجع المحاربين ، وأسرعهم حركة ، وأقدرهم على الرمي بالنشّاب . غير ان البعض الآخر من المقدّمين الموارنة لم يتعاون مع الفرنجة ، بل عمل ضدّهم في بعض

٢٧ . انظر ص ١١٩ .

الاحيان. ويرد في زجلية ابن القلاعي ذكر اسماء بعض هؤلاء، ومنهم المدعو سالم، مقدّم بشرّي (المصدر ذاته، ص ٤٧):

وقام بعده ابنه سالم : مقدّم في خلق صارم،
طمّاع، محبّ للمال، ظالم، جضّت منه البلدان.

ويستنتج من مضمون هذه الزجلية نفسها ان كبار مقدّمي الموارنة في ذلك الزمن كانوا يتلقّبون محليّاً بـ«الامراء». وان بعض الأجزاء الشمالية من جبل كسروان، من المناطق الخارجة عن حكم الفرنجة وكذلك عن حكم اتابكة دمشق، كانت تخضع لحكم مقدمين من الموارنة ممّن تحالفوا أحياناً مع أصحاب سنيورية جبيل. ومن هؤلاء المقدّمين من تلقب بـ«الملك» — على حدّ قول ابن القلاعي.

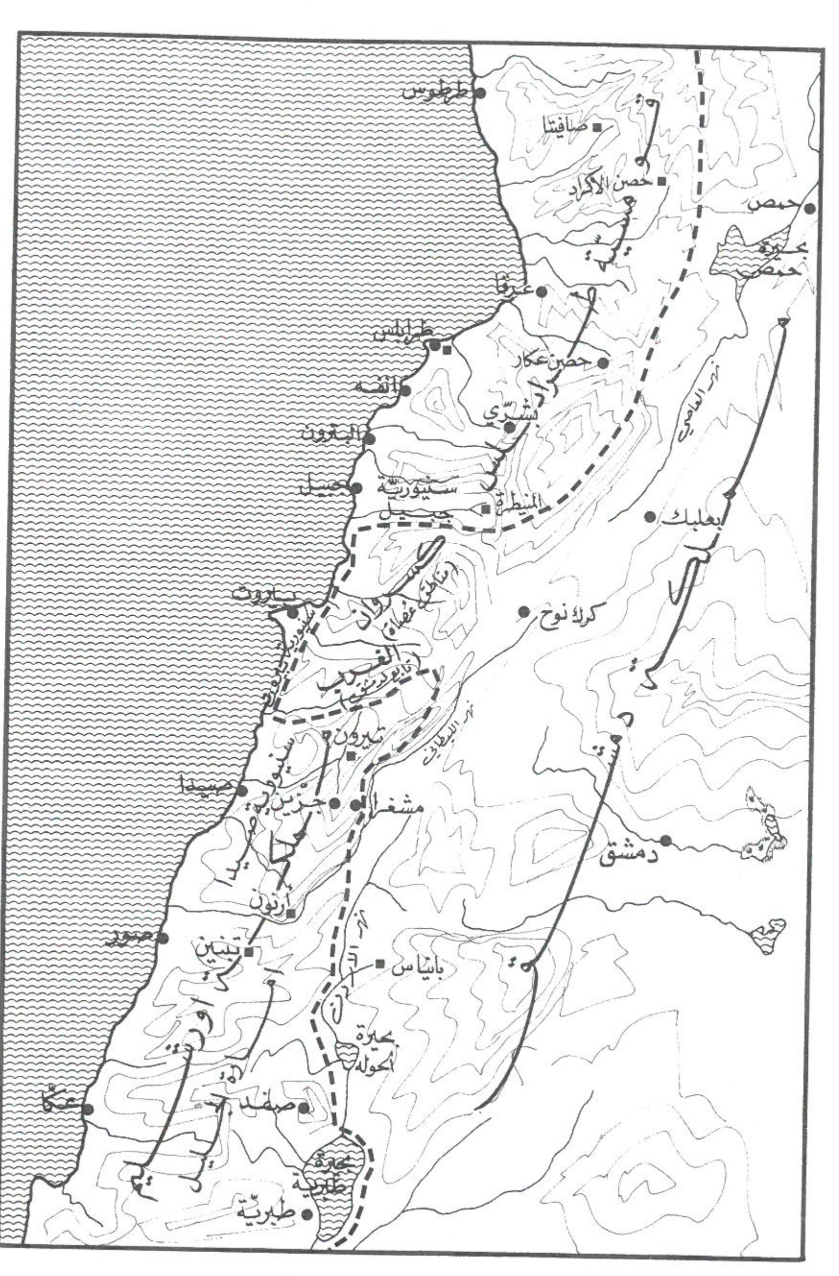
٦

وفي الوقت الذي كانت المناطق اللبنانية المارونية تابعة بشكل أو بآخر لقومسية طرابلس امّا مباشرة، او عن طريق سنيورية جبيل، انقسمت المناطق الدرزية من جبل لبنان وجواره بين مملكة الفرنجة في القدس ومملكة الاتابكة في دمشق. وكانت حصّة المملكة الاتابكية من هذه المناطق «جبل بيروت» المؤلف من منطقتي «المتن» و«الغرب»، بالاضافة الى وادي التيم. امّا «مملكة اورشليم»، فاقتصرت حصّتها على «جبل صيدا»، وهو «الشوف» التابع لـ«سنيورية» صيدا. وكان كبار زعماء الدروز في وادي التيم آنذاك من بني جندل المنتسبين، على ما يظهر، الى عرب تميم. وكان بنو جندل يتلقّبون بـ«المقدّمين»، او بـ«الامراء»، ويسيطرون على جزء من الشوف على الأقل، وقاعدتهم هناك الحصن المعروف بشقيف تيرون، قرب بلدة نيحا (انظر ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨ م، ص ٢٤١). وما زالت «حارة

جندل» او «حارة الجنادلة» — وهي قرية في تلك الناحية من الشوف — تحمل اسمهم الى اليوم. اما زعماء الدروز في «جبل بيروت»، فكان من اعيانهم الامراء من آل عبد الله في الغرب، المنتسبين الى عرب لخم، من التنوخيّين. وقد عرف آل عبد الله فيما بعد بـ«بني بحتر»، نسبة الى الامير بحتر الذي عاصر الدولة الاتابكية في دمشق وتوفّي في اواسط القرن الميلادي الثاني عشر. واتخذ آل عبد الله في الاصل قرية البيرة قاعدة لهم، وهي اليوم أرض زراعية خارج البلدة الحديثة المعروفة بـ«سوق الغرب». وكان جد والد الامير بحتر في البيرة، وهو ابو اسحق ابراهيم بن أبي عبدالله، من «ولاة الاطراف» الذين تسلّموا رسائل الدعوة الدرزية في بداية أمرها. وما زال نصّ الرسالة المبعوثة اليه بهذا الشأن عام ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م)، في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر، موجوداً في الكتب الدرزية الى اليوم.

وكان بنو عبد الله في الغرب، على ما يبدو، موالين للدولة الاتابكية في دمشق. أمّا بنو جندل في وادي التيم، فبقوا على ولائهم القديم للدولة الفاطمية، على الرغم من تقلّص نفوذ هذه الدولة في الشام بعد عام ١٠٩٩ م. وكانت الدعوة الاسماعيلية قد انشقّت في تلك الاثناء بين فريق مؤيّد للدولة الفاطمية القائمة، وفريق مناهض لها عرف اتباعه بـ«الباطنية»[٢٨] — وهؤلاء أتباع نزار بن الخليفة المستنصر الذي أُقصي عن الخلافة في القاهرة بعد وفاة أبيه، وقُتل بأمر أخيه الأصغر وهو الخليفة المستعلي (١٠٩٤—١١٠١ م). وفشلت الدولة الفاطمية بعد ذلك في منع الفرنجة من الاستيلاء على الساحل الشامي، ممّا جعلها عرضة للتعبير من قبل المسلمين بمختلف فئاتهم، ومنهم اتباع المذهب الاسماعيلي. فاستغلّ دعاة

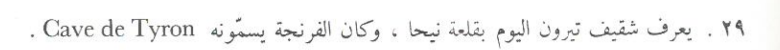
٢٨. اطلق على «الباطنية» فيما بعد اسم «الحشيشية» (نسبة الى حشيشة الكيف) من باب التحقير. ومن «الحشيشية» لفظة Assassins التي تطلقها عليهم المصادر الفرنجية المعاصرة لدورهم.



٨ . لبنان وجواره في عهد الفرنجة (حوالي عام ١١٥٠ م)

الباطنيّة هذا الفشل الفاطمي وأخذوا ينشرون مذهبهم بين الاسماعيلية في مختلف المناطق الشامية ، ومنها مملكة دمشق . فحاول الاتابك طغتكين احتواء الدعوة الجديدة عن طريق التحبيذ والتشجيع . وصار اتباعها يساندونه ضد الفرنجة وضد منافسيه من المسلمين .

وسمح طغتكين لكبير دعاة الباطنية في مملكة دمشق – وهو المدعو بهرام – باتخاذ حصن بانياس ، قرب وادي التيم ، مركزا له عام ١١٢٦ م . وكان موقع هذا الحصن على حدود مملكة اورشليم . ولعلّ طغتكين سمح للباطنية بالتمركز هناك لمساعدته في ردّ الفرنجة عن بلاده بعد أن أخذ هؤلاء صور من الفاطميين عام ١١٢٤ م . غير أن وجود الباطنية في حصن بانياس لم يرق لبني جندل ، وهم زعماء وادي التيم ، على الأخصّ عندما بدأ بهرام ينشر مذهبه في تلك المنطقة بين « جهّال الاعمال ، وسفاف الفلّاحين من الضياع ، وغوغاء الرعاع » (ابن القلانسي ، المصدر ذاته ، ص ٢٢١) . فقام بنو جندل يناهضون بهرام ، وادّى ذلك الى مقتل احدهم ، وهو المدعو برق بن جندل ، على يد الباطنية . فثارت ثائرة اخيه ضحّاك بن جندل ، وهو في ذلك الوقت كبير قومه ، فأخذ يترقّب الفرص للنيل من بهرام ، حتى قبض عليه وقتله عام ١١٢٨ م . وأرسل رأس بهرام ويده وخاتمه الى القاهرة لتبشير الخليفة الفاطمي بهلاكه . وتوفّي الاتابك طغتكين في ذلك العام بالذات ، وخلفه في دمشق ابنه تاج الملوك بوري (١١٢٨ – ١١٣٢ م) ، ثم ابنه الثاني شمس الملوك اسماعيل (١١٣٢ – ١١٣٤ م) . فخرج الاتابك شمس الملوك اسماعيل الى الشوف في خريف عام ١١٣٣ م وانتزع شقيف تيرون « المطلّ على ثغر بيروت وصيدا »[٢٩] من يد ضحّاك بن جندل « المتغلب عليه » (ابن القلانسي المصدر ذاته ، ص ٢٤١) . وفي ذلك ما يشير الى احتراس اتابكة دمشق من ولاء بني جندل المستمرّ للدولة الفاطمية . ولربّما كان بنو جندل قد


٢٩ . يعرف شقيف تيرون اليوم بقلعة نيحا ، وكان الفرنجة يسمّونه Cave de Tyron .

هادنوا الفرنجة في تلك الأثناء، ممّا يفسّر السهولة التي مدّ فيها هؤلاء سيطرتهم على الشوف.

ويبدو ان اتابكة دمشق استمرّوا في دعمهم للباطنية ضدّ بني جندل في وادي التيم، فتمكّن جماعة الباطنية من الثأر لبهرام بقتل ضحّاك بن جندل عام ١١٤٩ م. «وقام مقامه ولده في امارة وادي التيم» (المصدر ذاته، ص ٣٠٣). ولا نعرف شيئاً عن أمر بني جندل في تلك المنطقة بعد ذلك. ولعلّ تضاؤل سطوتهم هناك مع الزمن—ولا سيّما بعد انهيار الدولة الفاطمية في مصر—سهّل على حكّام دمشق تولية آل شهاب، من المسلمين السنّة، على امارة وادي التيم فيما بعد.

وكان أتابكة دمشق في تلك الاثناء قد بدأوا يوثّقون علاقاتهم مع بني عبد الله، من زعماء الدروز في الغرب، وذلك في عهد الاتابك مجير الدين آبق[30] (١١٣٩—١١٥٤ م)، حفيد طغتكين. وكان الداعي لذلك، على الأرجح، وصول الحملة «الصليبية» الثانية الى بلاد المشرق عام ١١٤٧ م، وتصميم قادة هذه الحملة على أخذ دمشق، ممّا حمل الاتابك مجير الدين آبق على مراسلة «ولاة الاطراف» ودعوتهم الى المشاركة في الجهاد. والظاهر ان بحتر بن علي، من بني عبد الله في الغرب، كان في جملة هؤلاء «الولاة». وكان دروز الغرب، على عكس بني جندل في الشوف، قد نجحوا قبل ذلك في ردّ فرنجة بيروت عن مناطقهم، وذلك—ولا شكّ—بالتعاون مع دمشق، ممّا جعل الاتابكة هناك يثقون بهم وبقادتهم. فكاتب مجير الدين آبق الامير بحتر بن علي وأصدر له عام ١١٤٧ م منشوراً بـ«الامارة بالغرب» هذا نصّه:

كتب هذا المثال الشريف للأمير الأجلّ ناهض الدولة أبو العشائر بحتر بن علي ابن ابراهيم بن أبي عبد الله — ادام الله تأييده وتسديده وتمهيده — باجرائه على رسومه المستمرّة وقاعدته المستقرّة من الضياع المنسوبة الى رسمه، المعروفة

٣٠. في التركية Abeg.

باسم والده واسمه. وأن يتناول ما يخصّ الخاص السعيد[31] منها بحيث يصرفه في مصالحه ويتقوّى به على الخدمة. وأجري على معهوده من الإمارة بالغرب من جبل بيروت. وهو معروف منعوت لما عرف من نهضته وكفايته وحسن سيرته وأمانته. والواجب على الرؤساء والفلاّحين — اعزّهم الله تعالى — سماع كلمته والدخول تحت طاعته فيما يلتمسه منهم من استخراج الحقوق السلطانيّة[32] وموافقته على ما يطرأ من الخدم الديوانية. وليحذروا من الخلاف، فيعود عليهم الحيف والاجحاف. وسبيله — ادام الله تأييده — الذبّ عنهم وايصال شكاويهم إلى النوّاب والمتصرّفين والأصحاب، بحيث يجرون على عادتهم من غير تحديد رسماً ولا حادث لحيف اسماً. والواجب على الولاة والنوّاب المستجدّين والأصحاب أجراء الأمير المقدّم ذكره على ما رسمناه. وليعتمد على العلامة الكريمة في أعلاه[33] ان شاء الله (صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ...، ص ٤٠، نقلاً عن الأصل المؤرّخ في أواسط محرّم ٥٤٢ هـ/حزيران ١١٤٧ م).

والواضح من نصّ هذا المنشور ان مجير الدين آبق «اقطع» الامير بحتر دخل الدولة الاتابكية من عدّة قرى من الغرب. وان هذا «الاقطاع» كان قائماً من قبل لبحتر، ولوالده من قبله. وكان «الاقطاع»، ابتداء بالعهد السلجوقي، والى حدّ ما من قبل، يعطي صاحبه حقّ جباية الأموال الأميرية من مناطق محدّدة والتصرّف بها لقاء أتعابه في الخدمة العسكرية. فيدفع صاحب الاقطاع المرتبات المناسبة لجنده من هذه الأموال، ويحتفظ بالباقي لنفسه.

وكانت الاحوال في الممالك الإسلامية من الشام قد تغيّرت في تلك الأثناء، وذلك على أثر تفكّك الدولة السلجوقية في عهد سنجار بن ملكشاه (١١١٧—١١٥٧ م)، وهو آخر من ولي السلطنة من آل سلجوق في بلاد فارس. فقامت ممالك سلجوقية مستقلّة عن السلطنة في مناطق

٣١. أي الاموال الاميرية، من ضرائب ومكوس.
٣٢. كذلك بمعنى الضرائب والمكوس.
٣٣. والعلامة هذه هي الطغرة الأتابكيّة.

مختلفة من العراق (١١١٧ – ١١٩٤ م) وبلاد فارس (١٠٤١ – ١١٨٧ م)، بالاضافة الى الممالك السلجوقية القائمة من قبل في برّ الاناضول (١٠٧٨ – ١٣٠٠ م) وحلب (١٠٩٤ – ١١١٧ م)، ومملكة الأتابكة في دمشق (١١٠٤ – ١١٥٤ م)، وممالك أتابكية أخرى ظهرت مع الوقت في أماكن كثيرة، وفي جملتها مملكة الأتابك عماد الدين زنكي[٣٤] في الموصل. وكان زنكي هذا من أبناء آقسنقر الحاجب الذي تسلّم ولاية حلب في عهد السلطان ملكشاه[٣٥]، وقتل على يد تتش عام ١٠٩٤ م. وقد احتضنه أحد أمراء الدولة السلجوقية بعد مقتل والده، ثم دخل بعد ذلك في خدمة السلطنة، فأصبح عام ١١٢٧ م أتابكاً على الموصل وما يليها الى الغرب من شمال العراق والجزيرة الفراتية. وكانت الفوضى قد سادت في حلب بعد انهيار حكم السلاجقة هناك – من سلالة رضوان بن تتش – عام ١١١٧ م. فدخل زنكي حلب عام ١١٢٨ م وضمّها الى مملكته. وقامت الحروب بعد ذلك بين زنكي والفرنجة في قومسية الرها. فقضى زنكي على هذه القومسية وأخذ مدينة الرها عام ١١٤٤ م[٣٦]. فكان سقوط الرها في ذلك العام الداعي المباشر للحملة «الصليبية» الثانية (١١٤٧ – ١١٤٨ م).

وتوفّي زنكي مقتولاً عام ١١٤٦ م، فخلفه في الموصل ابنه الاكبر سيف الدين غازي، وخلفه في حلب ابنه الثاني نور الدين محمود (١١٤٦ – ١١٧٤ م)[٣٧]. وفي العام التالي وصلت الحملة «الصليبية» الثانية الى بلاد المشرق، فأصرّ فرنجة القدس على أن تتوجّه هذه الحملة الى دمشق بدلاً

---

٣٤. في التركية Zengi.

٣٥. انظر ص ٨١، ٨٢.

٣٦. سقطت آخر معاقل الفرنجة في قومسيّة الرها عام ١١٥١م، في عهد نور الدين محمود بن زنكي الذي خلف والده في حلب، كما سيأتي.

٣٧. راجع التاريخ المفصل لعهد نور الدين محمود بن زنكي في

Nikita Eliséev, *Nūr al-Dīn, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades (511–569 H./1118–1174)*, Damas, 1967.

من حلب. وباءت هذه الحملة بالفشل الذريع، ولم تتمكّن من الاستيلاء على دمشق. غير أن الفرنجة استمرّوا في غاراتهم على حوران ومناطق أخرى من مملكة دمشق بعد أن أخفقوا في أخذ المدينة، حتى اضطرّ الأتابك مجير الدين آبق الى مهادنتهم آخر الأمر. فضعفت هيبته بين المسلمين على الأثر، وذلك في الوقت الذي كانت هيبة الاتابك نور الدين محمود بن زنكي في حلب تتعاظم بسبب جهاده المتواصل ضدّ الفرنجة في بلاد الرها وانطاكية. وفي عام ١١٥٤ م خرج نور الدين محمود من حلب الى دمشق، وأخذها من مجير الدين آبق، واستقرّ هناك. وأصبح بالتالي ملكاً على جميع المناطق الشامية الخارجة عن حكم الفرنجة، وتلقّب بـ«الملك العادل».

وتسلّم الاتابك نور الدين محمود قيادة الجهاد ضدّ الفرنجة بعد استيلائه على دمشق، وتبع سياسة مجير الدين آبق في استقطاب «ولاة الاطراف» حول مركز الجهاد في دمشق. وربّما كان بعض هؤلاء «الولاة» – ومنهم زهر الدولة ابو العزّ كرامة بن بحتر في الغرب – قد تبع مجير الدين آبق في مهادنته للفرنجة عقيب الحملة «الصليبية» الثانية. فما كاد نور الدين ان يستولي على دمشق حتى «لاذ» زهر الدولة بخدمة الدولة الإسلامية الجديدة هناك و«اهمل» الفرنجة» (انظر صالح بن يحيى، تاريخ بيروت...، ص ٤٢ – ٤٣). واعترف نور الدين محمود بزهر الدولة كرامة أميراً على الغرب، وجعل قاعدته في حصن سرحمور (سَرَحْمول اليوم) المطلّ على ساحل بيروت. وأقطعه «غالب قرايا الغرب»، بالإضافة الى قرى أخرى في البقاع، ووادي التيم، وبعض مناطق الشوف الخارجة عن «سنيورية» صيدا – على ما يظهر – في ذلك الوقت، وهي المنطقة التي عرفت فيما بعد بإقليم الخرّوب. وتسلّم كرامة من نور الدين عام ١١٥٧ «مرسوماً مطلقاً» هذا نصّه:

ان الأمير النجيب زهر الدولة مفيد الملك أمير الغرب كرامة – ادام الله

تعالى عزّه وسلامه – مملوكنا وصاحبنا . ومن أطاعَه فقد أطاعنا . ومن عاونه في جهاد الكفّار فقد عمل برضانا وكان مشكوراً منّا . ومن خالفه في هذا الأمر وعصاه فقد خالف أمرنا واستحق المقابلة والسياسة على العصيان (المصدر ذاته ، ص ٤٣) .

ثمّ أصدر نور الدين لكرامة عام ١١٦١ م منشوراً يحدّد له إقطاعه . وقد جاء في مقدّمة هذا المنشور ما يلي :

لمّا هاجر الأمير زهر الدولة شجاع الملك جمال الأمراء أبو العزّ كرامة بن بحتر التنّوخي – ادام عزّه – الى الباب[38] – زيد علاه – ولاذ بالخدمة ، وتقرّب اليها ، وقصد الدولة العادلة[39] والتمس الخدمة بين يديها ، تقبّل سعيه وأُجيب الى ملتمسه . ورسم له إنشاء هذا المنشور مودعاً ذكر ما تأمّل له من الإرعاع والإحترام والإعزاز والإكرام ، معيشة يوضح ذكره من ديوان الاستيفاء المحروس – حماه الله . والعدّة أربعين فارساً وما أمكنه وقت المهمّات الشريفة (المصدر ذاته ، ص ٤٣) .

والظاهر من هذا النصّ ان نور الدين خصّص لكرامة بن بحتر معاشاً من « ديوان الاستيفاء » بالإضافة الى اقطاعه . وفرض عليه ، في المقابل ، ان يجهّز حامية في الغرب لا يقلّ عددها ، في الأوقات العادية ، عن أربعين فارساً يكون هو المسؤول عن معاشهم . ويبدو ان كرامة كان بالفعل اهلاً لثقة نور الدين من ناحية الجهاد ضد الفرنجة . فاستمرّت غاراته من حصن سرحمور على قرى ساحل بيروت حتّى ملّ آل بريزبار – وهم أصحاب سنيورية بيروت – من الوضع . فأعادوا سنيوريتهم الى ملك اورشليم ، واستعاضوا عنها بمبلغ من المال .[40] وأخذ ملوك اورشليم بعد ذلك يعيّنون حكّاماً من قبلهم على بيروت ، وذلك على الأرجح بسبب

٣٨ . أي الى مركز الدولة في دمشق .

٣٩ . نسبة الى « الملك العادل » ، وهو لقب الاتابك نور الدين محمود .

٤٠ . انظر E. Rey, "Les seigneurs de Barut", in *Revue de l'Orient latin*, IV (1896), p.15; Jean Richard, *Le royaume de Jérusalem* (Paris, 1953), p. 81.

تخوّف الأسر الاقطاعية من الفرنجة من تولّي هذه « السنيورية » الصغيرة المهدّدة .

وما لبث كرامة ان توفّي بعد ذلك . وهادن حاكم سنيوريّة بيروت ابناءه الثلاثة الكبار الذين خلفوه في حصن سرحمور ، « وتكرّر اجتماعهم معه في الصيد ، وهو يعطيهم ويحسن اليهم » (المصدر ذاته ، ص ٤٥) . ودعاهم بعد فترة الى حضور عرس ابنه في قلعة بيروت ، فلبّوا الدعوة مع نفر قليل من اتباعهم ، وكان ذلك « آخر العهد بهم » . وفي اليوم التالي أغار حاكم بيروت على حصن سرحمور وأخربه ، ولم يبق منه أثراً . والمرجّح ان الحاكم المذكور كان الأمير اندرونيكوس كومنينوس Andronikos Komnènos ، من أنسباء ملك الروم مانويل كومنينوس Manouel Komnènos (١١٤٣ – ١١٨٢ م) ، حفيد الملك ألكسيوس الأوّل المذكور آنفاً . وكان أندرونيكوس قد تسلّم اقطاع بيروت من الفرنجة لمدّة قصيرة في أواخر عهد الأتابك نور الدين محمود في دمشق .

ولم يبق من أبناء كرامة بن بحتر بعد هذا الحدث الّا ابنه الأصغر المدعو جمال الدين حِجى ، وكان في ذلك الوقت طفلاً . فهربت به أمّه مع من هرب من حصن سرحمور عندما أغار الفرنجة عليه ، وأقامت معه في قرية الدوير ، ثم في قرية طردلا . وكان لكرامة ايضاً أخ صغير السّن اسمه شرف الدولة علي بن بحتر ، فاستقرّ عليّ هذا فيما بعد في قرية عرامون ، وأصبح جدّ الأمراء من بني بحتر هناك . ويبدو أن الأتابك نور الدين أظهر العطف تجاه الطفل جمال الدين حجى بعد مصرع اخوته الثلاثة الكبار ، فأصدر منشوراً في ٣٠ رمضان عام ٥٦٥ هـ (١٧ حزيران ١١٧٠ م) باقطاع قرية واحدة هي « جبعة » (وهي غير معروفة اليوم) لحجى المذكور وثمانية أنفار من « اقاربه » (انظر المصدر ذاته ، ص ٤٦) . وقد يكون في ذلك ما يشير الى أن الفرنجة قضوا على اخوة حجى وأخربوا حصنهم قبل تاريخ هذا المنشور بوقت قصير .

٧

ولعلّ الأتابك نور الدين اهتمّ بأمر وادي التيم في الوقتَ ذاته الذي اهتمّ فيه بأمر الغرب. وقد ورد في التواريخ اللبنانية المتأخّرة التي وضعت في القرن التاسع عشر ان نور الدين جاء بآل شهاب وجعلهم امراء على وادي التيم عام ١١٧٣ م، اي قبل وفاته بعام واحد (انظر طنّوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ص ٤٤). وقد يكون في هذا الخبر قدر من الصحّة، على أن الأخبار الواردة في المصادر اللبنانية المتأخرة هي في احيان كثيرة أخبار موضوعة، لا تستند الى أساس تاريخيّ ثابت. وربّما اوكل نور الدين امارة وادي التيم بالفعل الى آل شهاب في ذلك الوقت بسبب طمع أملريق الأوّل Amaury I (١١٦٣–١١٧٤ م)، وهو ملك اورشليم آنذاك، بالتوسّع في تلك المنطقة المتاخمة لمملكته. ومما يشير الى ذلك أن آل شهاب كانت لهم امارة قديمة قائمة في وادي التيم في اواخر القرن الرابع عشر. وتفيد المصادر اللبنانية المتأخرة ايضاً ان الاتابك طغتكين في عهده كان هو الذي جاء بآل معن الى الشوف وأوكل اليهم امارة هذه المنطقة عام ١١٢٠ م لردّ فرنجة صيدا عن الجبل (انظر الشدياق، المصدر ذاته، ص ٢٤٧). والقول هذا فيه نظر، لأن الزعامة الدرزية في الشوف، او على الأقلّ في جزء منه، كانت في ذلك الوقت لآل جندل، كما سبق.[41] وليس هناك أي ذكر ثابت لآل معن في الشوف في الاصول التاريخية قبل القرن الخامس عشر.

٤١. انظر ص ٩٦.

٨

وتوفي الاتابك نور الدين محمود عام ١١٧٤. فتسلّم مملكته من بعده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب بن شاذي، مؤسّس الدولة الأيوبيّة في مصر. وكان أيّوب بن شاذي وأخوه شيركوه–وهما والد صلاح الدين وعمّه–من اكراد تكريت في العراق. فدخلا في خدمة الاتابك نور الدين في حلب، ثم في دمشق، واصبحا من كبار الامراء في دولته. وفي عام ١١٦٨ م ارسل نور الدين شيركوه وابن اخيه صلاح الدين يوسف الى مصر لمساعدة الخليفة الفاطمي العاضد (١١٦٠–١١٧١ م) في ضبط بلاده. وكان احد وزراء العاضد قد قام بثورة ضدّه آنذاك. فما ان تمّ قمع هذه الثورة على يد شيركوه وصلاح الدين حتى اوكل العاضد وزارة مصر الى شيركوه، وهو ما زال عميلاً للأتابك نور الدين. ثمّ توفي شيركوه في العام التالي، فتسلّم الوزارة في مصر ابن اخيه صلاح الدين، وتلقّب بـ«الملك الناصر». وفي عام ١١٧١ م خلع صلاح الدين الخليفة العاضد، ورفع شعارات الخلافة العبّاسية والدولة الزنكيّة الشاميّة في القاهرة. وهكذا تمّ القضاء على المذهب الاسماعيلي في مصر، وتثبّت مذهب السنّة هناك من جديد. وتوفّي نور الدين محمود بعد ذلك عام ١١٧٤ م، وخلفه في دمشق ابنه الملك الصالح اسماعيل. فخرج صلاح الدين يوسف من مصر، وخلع الصالح اسماعيل من ملكه، وتغلّب على دمشق. وهكذا اصبح صلاح الدين صاحب مصر والمناطق الشامية الخارجة عن حكم الفرنجة دون منازع. وكان مركز السلطنة في بلاد الإسلام قد شغر بعد وفاة السلطان سنجار بن ملكشاه عام ١١٥٧ م. فما ان تمّ لصلاح الدين التغلّب على بلاد دمشق، ثم على حلب عام ١١٨٣ م، حتى تلقّب بالسلطنة. واستمرت السلطنة من بعده لبني أيّوب حتى اواسط القرن الميلادي الثالث عشر.

وجعل صلاح الدين قاعدة ملكه بعد عام ١١٧٤ م في دمشق ، واتّبع سياسة سلفه نور الدين في الجهاد المستمرّ ضد الفرنجة ، فنجح في ذلك نجاحاً باهراً . وفي ٤ تموز عام ١١٨٧ م أنزل صلاح الدين الهزيمة الكبرى بالفرنجة في واقعة حطّين ، قرب طبريّة . وانهارت بالتالي مملكة اورشليم ، وتمكّن المسلمون من احتلال جميع مدنها وقلاعها فيما عدا ثغر صور . وقدم صلاح الدين بيروت لاحتلالها من الفرنجة في ٦ آب من ذلك العام ، فلقيه وفد من دروز الغرب ، وعلى رأسهم الأمير جمال الدين حجى بن كرامة ، في قرية خلده ، خارج المدينة :

> فلمّا فتح السلطان بيروت لمس بيده رأس حِجى وقال له : « هذا قد أخذنا ثأرك من الفرنج . طيّب قلبك . أنت مستمرّ مكان أبيك واخوتك » (صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت . . . ، ص ٤٥) .

وأصدر صلاح الدين على الفور منشوراً « باجراء الامير جمال الدولة حجى ابن كرامة على ما بيده من جبل بيروت من اعمال الدامور . . . وهو ملكه وارثه عن أبيه وجدّه ، وهي سرحمور ، عين كسور ، رمطون ، الدوير ، طردلا ، عندرافيل (عين درافيل) ، ومزارعهم ، وذلك حبساً منّا عليه وإحساناً اليه لمناصحته وخدمته ونهضته في العدو المثاغر له » (المصدر ذاته ، ص ٤٦) .

٩

وكانت هزيمة الفرنجة وسقوط مملكة اورشليم عام ١١٨٧ م حافزاً للفرنجة على ارسال حملة « صليبية » ثالثة الى بلاد المشرق عام ١١٩٠ م . وكان في جملة قادة هذه الحملة ملك انكلترا ريكاردوس الأوّل المعروف بـ« قلب الأسد » .[٤٢] وقامت الحروب على الأثر بين ريكاردوس والمسلمين ،

٤٢ . Richard Couer-de-Lion

فانتصر ريكاردوس في عدّة مواقع ، غير انّه لم يتمكّن من احتلال القدس وكسر شوكة صلاح الدين . وتوافق الفريقان اخيراً على أن تكون بينهما هدنة لمدة ثلاث سنين ابتداء بعام ١١٩٢ م ، على أن تكون البلاد الجبلية للمسلمين والساحلية للفرنجة ، فيما عدا صيدا وبيروت وجبيل . وأصبحت عكّا بالتالي قاعدة مملكة اورشليم ، وبقيت القدس (وهي « اورشليم » بالذات) في أيدي المسلمين . وعاد الملك ريكاردوس الى بلاده على الفور . وتوفّي صلاح الدين في العام التالي ، وتجزأت المملكة الأيوبيّة بعد ذلك بين أبنائه . وانتهت مدّة الهدنة بين المسلمين والفرنجة عام ١١٩٥ م ، فاستغلّ ملوك « اورشليم » في عكّا الخلاف القائم بين ابناء صلاح الدين وعادوا الى احتلال المدن الساحلية الباقية في ايدي المسلمين .

وكان صلاح الدين ، عند سماعه بقدوم الحملة « الصليبية » الثالثة ، قد خرّب اسوار صيدا وجبيل ونقل اهلهما من المسلمين الى بيروت . وقام بتحصين هذا الثغر تحسّباً للطوارىء ، وشحنه بالرجال والسلاح ، وولّى عليه المدعو عزّ الدين اسامة ، من كبار امرائه (وهو غير مؤيّد الدولة أسامة بن منقذ الشهير ، صاحب «كتاب الاعتبار »[٤٣] المتوفّى عام ١١٨٨ م ، كما يعتقد البعض خطأ) . فلما بلغ عز الدين اسامة استيلاء الفرنج على صيدا عام ١١٩٧ م خرج من بيروت « بجماعته وأهله » ، ودخلها الفرنجة من غير قتال . فلعن الناس اسامة « لتفريطه » ببيروت . وقال فيه أحدهم :

ان بيع الحصون من غير حرب   سنّة سنّها ببيروت سامه
لعن الله كلّ من باع ذا البيـ   ـع وأخزى بخزيه من سامه[٤٤]

٤٣ . حرّره ونشره فيليب حتّي ، وصدر عن مطبعة جامعة برنستون ، في الولايات المتحدة ، عام ١٩٣٠ .

٤٤ . عن ابن واصل ، مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج ٣ ، ص ٧٤ . وهناك رواية اخرى لهذين البيتين .

١٠

وأعاد ملوك عكّا تنظيم سنيورية بيروت بعد احتلالها من جديد ، واقطعوها الى آل ابلين Ibelin ، من الاسر الفرنجية القديمة النافذة في المملكة . وأحكم هؤلاء ضبط بيروت وجوارها كما لم يفعل آل بريزبار من قبل . ولم يطل الوقت حتى بدأ آل بحتر في الغرب يتعاملون معهم ، وان كان ذلك بشيء من الحذر . وعاد آل غرينيه ، اصحاب سنيورية صيدا ، يمدّون سيطرتهم على منطقة الشوف في تلك الأثناء ويجدّدون تحصين قلاعها . وكان ملوك بني أيّوب ، على وجه العموم ، يميلون الى مهادنة الفرنجة واقامة العلاقات الحسنة معهم ، وذلك على الأخصّ بداعٍ من المصالح التجارية المشتركة بين الفريقين.[٤٥] فاوعزوا الى أصحاب بيروت وصيدا بعدم التعرّض للأمير جمال الدين حجى في الغرب (انظر صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ... ، ص ٤٧).

ويبدو ان ملوك بني أيّوب تنافسوا فيما بينهم على مصادقة آل بحتر في الغرب . ففي عام ١١٩٦ م نشب الخلاف بين الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين ، صاحب دمشق ، وعمّه الملك العادل سيف الدين أبي بكر . فخلع الملك الأفضل عن دمشق ، وحلّ عمه الملك العادل مكانه . وأخذ الملك الأفضل يقوم بمحاولات يائسة لاسترجاع دمشق من عمه ، فكاتب الأمير جمال الدين حجى عام ١١٩٧ م «يرغّبه» ، و«يستعطفه» ، و«يحثّه على الجهاد» ، ويعده باقطاعه كامل منطقة الغرب . وفي عام ١٢٢٢ م اصدر الملك العزيز عماد الدين عثمان ، ابن الملك العادل ، منشوراً لحجى «على ما بيده من جبل بيروت من أعمال الدامور» . ويبدو أن الملك العزيز هذا ، وهو آنذاك صاحب بانياس ، كان طامعاً

---

٤٥ . كان الملوك الأيّوبيّون في مصر والشام يسهرون على مصالحهم التجارية مع المدن الايطالية ، كما كان يفعل الخلفاء الفاطميون من قبلهم ، وكما فعل المماليك من بعدهم .

بملك اخيه المعظم شرف الدين عيسى في دمشق (١٢١٨-١٢٢٧ م) ، فأخذ يحاول التقرّب من الامير حجى - وربّما من غيره من «ولاة الاطراف» - لهذا الغرض .

١١

وأخذ الملك العادل[٤٦] - اخو صلاح الدين - مصر عام ١١٩٩ م ، بالاضافة الى دمشق ، وتلقّب بالسلطنة . وخلفه فيها ابنه الملك الكامل (١٢١٨-١٢٣٨ م) ثم الملك العادل الثاني ابن الكامل (١٢٣٨-١٢٤٠ م) ، ومن بعده أخوه الملك الصالح أيّوب (١٢٤٠-١٢٤٩ م) ، ومن بعد هذا ابنه الملك المعظّم طوران شاه (١٢٤٩-١٢٥٠ م) . وصارت مصر ابتداءً بعهد الملك العادل الأوّل قاعدة السلطنة الأيوبية . امّا الممالك الأيوبيّة في الشام ، فبقيت في أيدي أصحابها من سلالة صلاح الدين ، او من سلالة أخيه الملك العادل . وكان سلاطين مصر ينجحون في بعض الأحيان في ضمّ دمشق الى مملكتهم ، ولا ينجحون في احيان أخرى . وفي العام الأخير من سلطنة الملك الصالح ايّوب في القاهرة خرج الملك لويس التاسع Louis IX ، ملك فرنسا ، الى بلاد المشرق على رأس الحملة «الصليبية» السابعة ، ونزل ساحل مصر ، ودخل ثغر دمياط . فتلاقى عسكر الفرنجة وعسكر المسلمين في المنصورة ، الى الجنوب من دمياط . وكسر الفرنجة شرّ كسرة ، ووقع الملك لويس التاسع بالذات في الأسر . واصرّ الملك الصالح ايّوب على ان يحمل الى ساحة القتال في محفّة ، وهو في أشدّ حالات المرض . فتوفّي اثناء المعركة ،

---

٤٦ . هو الملك العادل سيف الدين ابو بكر ، توفّي ١٢١٨ م .

وتسلّمت جاريته الارمنية المعروفة بشجر الدرّ[٤٧] زمام القيادة مكانه ، وتلقّبت بـ « السلطانة » و « ملكة المسلمين » .

وكان الملك الصالح في زمانه كثير الاعتماد على جنده وامرائه من المماليك الاتراك. وقد جعل لهم معسكراً خاصاً في جزيرة الروضة ، في « بحر » النيل (ولفظة « بحر » تستعمل في العرف المصري للنهر) ، فعرفوا بالمماليك « الصالحية » نسبة اليه ، وبالمماليك « البحرية » نسبة الى معسكرهم في الروضة . وكان كبير قادتهم يدعى الأمير عزّ الدين أَيْبَك . فلمّا توفّي الملك الصالح ، وقدم ابنه الملك المعظم طوران شاه من دمشق ليتسلّم السلطنة مكانه ، نشب الخلاف بين الامراء المماليك والسلطان الجديد . فخلع المعظم طوران شاه من السلطنة وقتل ، واستمرّ الحكم في يد الملكة شجر الدرّ . ثم تزوّج الامير عز الدين أَيْبَك من شجر الدرّ ، فأصبح اوّل السلاطين المماليك في مصر ، وتلقّب بـ « الملك المعزّ » . وهكذا حلّت دولة « المماليك » مكان الدولة الايوبية في القاهرة .

وكانت دمشق في عهد الصالح ايّوب تابعة للقاهرة . فلمّا تغلّب المماليك على السلطنة هناك ، خرج ملك الايوبية في حلب — وهو المدعو الملك الناصر يوسف ، من سلالة صلاح الدين — الى دمشق واستولى عليها . واظهر الملك الناصر هذا شديد الاستياء من أمر المماليك في القاهرة ، وأخذ يهدّد بالهجوم على مصر لخلع الملك المعزّ ايبك منها . واستمرّ النزاع بين الطرفين حتى تمّ الاتفاق بينهما عام ١٢٥٣ م ، ثم عام ١٢٥٦ م ،

٤٧ . كانت شجر الدرّ في الأصل جارية للخليفة المستنصر في بغداد ، فاهداها هذا الى الملك الصالح أيوب في مصر ، وصارت تعرف بِـ « شجر الدرّ المستنصريّة الصالحيّة » ، نسبة الى سيّدها الاوّل وسيّدها الثاني ، ثم تلقّبت بـ « عصمة الدين » عندما وليت الملك بعد وفاة صلاح أيّوب ؛ وتكنّت بـ « أم خليل » نسبة الى الإبن الذي ولد لها من الصالح أيّوب ، فتوفّي طفلاً . وكانت شجر الدرّ تدّعي الحق بالملك لكونها والدة خليل ، على الرغم من وفاة خليل قبل والده .

على أن تكون البلاد الشامية للناصر يوسف ، والبلاد المصرية للمعزّ ايبك . وكان ملوك الأيوبية في مصر ، قبل عهد ايبك ، قد درجوا على مكاتبة امراء الغرب من بني بحتر بتجديد اقطاعهم ، وذلك لضمان ولائهم ضد أنسبائهم من ملوك الأيوبية في دمشق (انظر صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ... ، ص ٤٩ — ٥٠) ، فحذا المعزّ ايبك حذوهم وأخذ يحاول استمالة امراء الغرب الى جانبه (انظر المصدر ذاته ، ص ٥٦ ، ٥٩) .

١٢

وكان الأمير جمال الدين حِجى قد توفّي في تلك الأثناء ، وخلفه في امارة الغرب ابناه نجم الدين محمد وشرف الدين علي . وكان نجم الدين محمّد ، على ما يبدو ، موالياً للملك الصالح أيوب في مصر . وقتل الاخوان — ربّما في غارة على بلاد كسروان — عام ١٢٤٢ . فخلّف نجم الدين محمد ابنين هما جمال الدين حجى الثاني (توفّي ١٢٩٨ م) وسعد الدين خضر (توفّي ١٣١٤ م) . وكان هذان الاميران معاصرين لنسيبهما الامير زين الدين صالح بن علي بن بحتر في عرامون (توفّي ١٢٩٦ م) ، وهو ابن عمّ الامير جمال الدين حجى الأول.[٤٨] وفي عهد هؤلاء الامراء الثلاثة من آل بحتر تغلّب المعزّ ايبك على الحكم في مصر ، وتسلّم الملك الناصر يوسف حكم المملكة الأيوبية في دمشق ، وقام الخلاف بين الفريقين ، كما ذكرنا . فتسلّم جمال الدين حجى الثاني منشوراً من الملك الناصر يوسف عام ١٢٥٢ م يقطعه قرى عديدة من الغرب . وتسلّم أخوه سعد الدين خضر عام ١٢٥٦ م منشوراً مماثلاً من الملك المعزّ ايبك في مصر (انظر المصدر ذاته ، ص ٥١ ، ٥٦) . وكان الملك الناصر في دمشق ،

٤٨ . انظر ص ١٠٥ .

على ما يبدو ، على علم بالاتّصالات القائمة بين بعض آل بحتر ودولة المماليك في مصر. فأرسل العساكر عام ١٢٥٥ لغزو بلاد الغرب ، وذلك بالتعاون مع عشائر البقاع وبلاد بعلبك. ووصل عسكر دمشق قرية عيتات ، فكسره الدروز هناك. وكان قائد الدروز في هذه الواقعة ، على ما يروى ، الأمير زين الدين صالح بن علي المذكور آنفاً.

وتخوّف آل بحتر من استمرار حقد الملك الناصر عليهم ، فتمّ الرأي على أن يقوم الامير جمال الدين حجى بزيارة لدمشق للتقرّب من صاحبها. وكان هولاكو ، ملك التتار ، قد احتلّ بلاد فارس (١٢٥٦ م) والعراق (١٢٥٨ م) في تلك الاثناء ، وأطاح بالخلافة العباسية في بغداد ، كما هو معروف.[٤٩] ثم ارسل جيوشه بقيادة الامير كِتْبُغا Ketbogha لغزو الشام واحتلالها في العام التالي. وما ان وصل جمال الدين حجى الى دمشق عام ١٢٦٠ م حتى كان التتار قد دخلوها وأنهوا حكم الملك الناصر يوسف فيها. فسارع جمال الدين حجى الى تقديم الطاعة الى كتبغا ، وتسلّم منه المنشور الآتي :

مالك بسيطة الأرض هولاكو خان زيدت عظمته

رسم بالأمر العالي المولى السلطاني الملكي السعيدي المجيري – زاد الله في علائه وضاعف مواد نفاذه ومضائه – ان يجري في اقطاع الامير الاجل الاوحد الأعز المختار ، جمال الدين ، عمدة الملوك والسلاطين حجى بن محمد بن أمير الغرب – ادام الله تعالى تأييده وتمكينه وتمهيده – ما رسم له به من الاقطاع ما تضمنه المنشور الناصري[٥٠] الذي بيده (المصدر ذاته ، ص ٥٢).

ولحق الامير زين الدين صالح بنسيبه جمال الدين حجى في دمشق

٤٩ . كان بدء ظهور امر التتار (او المغول) في عهد جنكز خان Tshinghiz-Khân (توفي ١٢٢٧ م) الذي أسّس دولة مغوليّة مترامية الأطراف قاعدتها مدينة بكين ، في الصين. وكان هولاكو Hülägü من احفاد جنكز خان. وقد قام بفتح بلاد فارس والعراق بامر من اخيه الملك منكو Möngkä ، رابع ملوك المغول في بكين ، وتلقّب بـ «الايلخان» ، اي «صاحب المقاطعة».

٥٠ . اي المنشور الصادر عن الملك الايوبي الناصر يوسف.

على الفور ، وبقي الأمير سعد الدين خضر وحده في بيروت. وكان الأمير سعد الدين خضر هذا معروفاً بصداقته للفرنجة (انظر المصدر ذاته ، ص ٥٦). وكان الملك المعزّ قد قتل في مصر عام ١٢٥٧ م ، وخلفه هناك في السلطنة الملك المظفّر قُطُز[٥١] (١٢٥٧–١٢٦٠ م) ، من قادة الامراء المماليك. فما كاد الاميران جمال الدين حجى وزين الدين صالح ان يلتقيا في دمشق حتّى وصل الخبر بخروج قطز من مصر بالجيوش الجرّارة لردّ التتار عن الشام. واحتار الاميران حجى وصالح فيما يجب عمله ، وتشاورا في الأمر. وتمّ الاتفاق بينهما على أن يبقى حجى عند التتار في دمشق ، وان يتوجّه صالح الى العسكر المصري ، «ليكون اي من انتصر من الفريقين كان أحدهما معه ، فيسدّ خلّة رفيقه وخلّة البلاد ، قصداً بذلك اصلاح الحال» (المصدر ذاته ، ص ٦٠).

وانتصر المماليك على التتار في واقعة عين جالوت ، قرب طبريّة ، في ٣ أيلول عام ١٢٦٠ م. وحضر زين الدين صالح المصاف الى جانب المماليك. «وكان يرمي عن قوس قويّ ، فأعجب مماليك السلطان رميه وصاروا يقدّمون له النشّاب من تراكيشهم». وهكذا نجحت الحيلة ، وشفع زين الدين صالح بنسيبه جمال الدين حجى ، وعاد كلاهما الى الغرب. وحلّ الملك الظاهر بَيْبَرْس مكان الملك المظفّر قطز في السلطنة بعد ان اغتاله في طريق العودة من الشام الى مصر. وكان المماليك قد احتلّوا المناطق الداخلية من الشام بعد هزيمتهم للتتار. فصار نوّاب الملك الظاهر بيبرس في دمشق يكاتبون آل بحتر في الغرب ، ويحثّونهم على الاستمرار في الجهاد ضد الفرنجة «والمطالعة بأخبار العدو المخذول». ولعلّهم جدّدوا لهم ما كان لديهم من الأقطاع القديم. وتفيد الوثائق التي يثبتها صالح بن يحيى في تاريخه بهذا الشأن ان «جموع» آل بحتر «تفرّقت» في عهد الظاهر بيبرس ، ولم تعد لهم قدرة بالتالي على القيام

٥١ . بالتركية Kutuz.

بالأعمال العسكرية المطلوبة منهم دون مساعدة. وكان الملك الظاهر «قد تعلّقت اماله بفتوح السواحل، وصار يتوقّع لسماع أخبار الفرنجة والاطّلاع على أحوالهم وكشف طبقاتهم» (المصدر المذكور، ص ٦١). فأخذ آل بحتر يوافون نوّاب السلطان في دمشق بأخبار الفرنجة في بيروت وصيدا وقبرس. ولعلّ «مناصحتهم» للدولة في تلك الفترة اقتصرت على مثل هذه الأعمال.

١٣

ولم ينس المماليك في عهد بيبرس موقف الذبذبة الذي وقفه آل بحتر عام ١٢٦٠ م بين المسلمين والتتار. وكان المماليك في الوقت ذاته يشكّون في امر آل بحتر بسبب العلاقات التي قامت بينهم وبين الفرنجة في بيروت وصيدا في زمن بني أيّوب. فجعلوا معهم في الغرب امراء من أسر محلّية اخرى. ومن هؤلاء بنو أبي الجيش، المعروفون ايضاً ببني سعدان، في عرامون. وكان الأمير زين الدين صالح، من آل بحتر، مقيماً في ذلك الوقت في عرامون. أمّا الأمير جمال الدين حِجى الثاني وأخوه سعد الدين خضر، فكانوا قد نقلوا مقرّهم من طردلا الى بلدة اعبيه (اي عبيه). وصار آل أبي الجيش ينافسون آل بحتر على الزعامة في الغرب ويقومون بالوشاية ضدّهم لدى نوّاب السلطنة في دمشق، فزادت شكوك الدولة في أمرهم.

وكان الملك الظاهر بيبرس في تلك الاثناء قد جدّد الجهاد ضدّ الفرنجة في قومسية طرابلس ومملكة عكّا عام ١٢٦٤ م، وتمكّن بعد ذلك من القضاء الكامل على امارة انطاكية عام ١٢٦٨ م. ثمّ ركّز اهتمامه على ثغور الساحل الباقية في أيدي الفرنجة. فدعته الشكوك المتزايدة في أمر آل بحتر – وهي الشكوك التي كان آل أبي الجيش يغذّونها بالدسائس

والوشايات – الى إصدار الأمر حوالي عام ١٢٧٠ م بالقبض على كلّ من جمال الدين حجى الثاني، وأخيه سعد الدين خضر، ونسيبهما زين الدين صالح، ووضعهم في السجن، وذلك دون ان يخرج اقطاعهم عنهم. ووضع زين الدين صالح في سجن مصر، وجمال الدين حجى في قلعة الكرك، وسعد الدين خضر في قلعة عجلون، ثم جمع الثلاثة منهم في سجن مصر. وتوسّط بعض امراء المماليك لدي بيبرس للافراج عنهم، على ما يروى، فكان جواب السلطان: «هؤلاء ما أفرج عنهم ولا آذيهم حتى أفتح طرابلس وصيدا وبيروت» (المصدر ذاته، ص ٦٤). وتوفّي بيبرس عام ١٢٧٧ م والأمراء الثلاثة ما زالوا في السجن، فتمّ الافراج عنهم في عهد السلطان بركة خان بن بيبرس (١٢٧٧–١٢٧٩ م).

وكان للأمير جمال الدين حجى ابن اسمه نجم الدين محمد، وهو سميّ جدّه نجم الدين محمد الاوّل الذي قتل مع اخيه في كسروان عام ١٢٤٢ م. فخرج نجم الدين هذا عن طاعة ابيه واستقرّ في عيناب، من قرى الغرب. وكان المدعو قطب الدين السعدي – ولعلّه من امراء المماليك في دمشق – قد استقطع قرية كفرعمّيه[٥٢] من امراء الغرب (وربّما كان ذلك بعد اعتقالهم)، وحضر الى هذه القرية لضبط خراجها، فوجد في اليوم التالي مقتولاً. ونسب قتله الى الامير نجم الدين محمد في عيناب، والى الامير شرف الدين علي بن زين الدين صالح في عبيه. ويقال ان غلام قطب الدين السعدي حمله ميتاً الى «دار السعادة» – وهي مقرّ نائب السلطنة في دمشق. فصدرت الاوامر لعسكر المماليك في بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت بالقيام بحملة تأديبية على الغرب عام ١٢٧٨ م، واشتركت عشائر بعلبك والبقاع في هذه الحملة:

> وأقاموا العساكر والعشران في الغرب سبعة ايام في نهب وأسر وحريق وهدم وخراب. وكان نجم الدين محمّد المذكور وشرف الدين علي بن زين الدين

٥٢. من قرى الغرب في وادي نهر الغابون المتّصل بنهر الدامور عند «جسر القاضي».

بن علي ، ومعهم رفقة ، قد هربوا الى شقيف كفراغوص فتحصّنوا به . فحضر اليهم بعض العساكر فانزلوهم ، واعتقلوا عليهم . وساروا بهم يتبعوا المنهزمين من الغرب حتى وصلوا الى كفرفاقود[53] ، فأفرجوا عن المذكورين في كفرفاقود (المصدر ذاته ، ص ٦٧ – ٦٨) .

وكان في مقتل قطب الدين السعدي في كفرعمّيه ما يدلّ على انتشار الفوضى وأعمال الشغب في منطقة الغرب عقيب وفاة الملك الظاهر بيبرس. ولم يكن من الامراء هناك من يستطيع ضبط الامور. فما ان انتهت الحملة التأديبية على المنطقة حتى اطلق السلطان بركة خان سراح الأمراء الثلاثة من آل بحتر المسجونين في مصر وسمح لهم بالرجوع الى بلادهم لاعادة ضبطها . وكان عساكر المماليك في غارتهم على القرى التابعة لآل بحتر قد أخذوا «حريم فلاحينهم وأطفالها. وشيء منهم ابيعوا ، وشيء أعيدوا اليهم بالبيع . واخذ الحريم وجعلوا جواري ، والاولاد وجعلوا مماليك. واخذت خيولهم ، واغنامهم ، وابقارهم ، وقماشهم» (المصدر ذاته ، ص ٦٨ – ٦٩) . فما ان تمّ الافراج عن الامراء البحتريين الثلاثة حتى التمس هؤلاء من الدولة اعادة «الحريم» و«الاولاد» وسائر مسلوبات الغرب الى أصحابها ، فصدر الامر الصارم من السلطان بركة خان بذلك .

١٤

وخُلع السلطان بركة خان عام ١٢٧٩ م ، وتسلطن اخوه بدر الدين سُلامِش مكانه مدّة قصيرة . ثمّ تغلّب الأمير سيف الدين قَلاوُون على السلطنة وتلقّب بـ«الملك المنصور» (١٢٧٩ – ١٢٩٠ م) . واستمرّ حكم مصر والممالك الشامية في بيت قلاوون هذا حتى عام ١٣٨٢ م . وما

٥٣ . من قرى الشوف المطلّة على وادي نهر الدامور ، والمقابلة للغرب .

كاد الملك المنصور ان يتسلّم السلطنة حتى بدأ يستعدّ للاطاحة بما تبقّى من حكم الفرنجة في الشام. وكانت قومسية طرابلس ما زالت قائمة بكاملها تقريباً ، فقرّر القضاء على هذه القومسية قبل التحرّك باتجاه عكّا وما يليها من مدن الساحل ، وهي آخر المواقع الباقية للفرنجة من «مملكة اورشليم» . وباشر قلاوون في غزو المناطق الجبلية من قومسية طرابلس واحتلال قلاعها وحصونها . وأوعز عام ١٢٨٣ م الى بعض عشائر التركمان في الشام بالاغارة على الحدث ، في جبّة بشرّي ، والقضاء على البطريرك الماروني المتحصّن فيها ، وهو لوقا البنهراني المذكور آنفاً.[54] وقد وصف محيي الدين بن عبد الظاهر ، واضع سيرة السلطان قلاوون ، هذه الغارة بقوله :

> اتفق أن في بلاد طرابلس بطركا عتا وتجبّر واستطال وتكبر وأخاف صاحب طرابلس وجميع الفرنجية ، واستغوى اهل تلك الجبال واهل تلك الأهوية من ذوي الظلال . واستمر أمره حتى خافه كل مجاور . وتحصّن في الحدث وشمخ بأنفه ، وما قدر أحد على التحيّل عليه من بين يديه ولا من خلفه . ولولا خوفه من سطوة مولانا السلطان لخرّب تلك البلاد ، وفعل ذلك او كاد . فاتفق ان النواب ترصدوه مرارا فما وجدوه . فقصده التركمان وتحيلوا عليه حتى أمسكوه وأحضروه أسيرا حسيرا . وكان من دعاة الكفر وطواغيهم واستراح المسلمون منه وأمنوا شرّه . وكان امساكه فتوحا عظيما أعظم من افتتاح حصن او قلعة وكفى الله مكره (ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٤٧) .

وبدأ قلاوون عام ١٢٨٨ م يتّخذ التدابير اللازمة لمهاجمة مدينة طرابلس بالذات . فنظّم حامية خاصة من «جند الحلقة» لتتسلّم مهام الدفاع عن المدينة بعد اخذها من الفرنجة . و«جند الحلقة» ، في عرف دولة المماليك ، هم رديف من الفرسان الاحرار (اي من غير المماليك) تنتقيهم الدولة من بين العناصر المحلّية في مختلف المناطق للمساعدة في

٥٤ . انظر ص ٩٥ .

الحفاظ عليها. وكان امراء «الحلقة» يتسلّمون الاقطاعات من «ديوان الجيش» مكافأة لهم على خدماتهم العسكرية، مثلهم مثل سائر امراء الجند النظاميّين من المماليك. وقضت الحاجة بأن يستولي قلاوون على اقطاعات «امراء الجبال» في لبنان، وربّما في سائر الشام، ليوزّعها على امراء «حلقة» طرابلس. فاستدعى هؤلاء الامراء الى مصر وأخذ منهم «أملاكهم واقطاعاتهم». وكان للسلطان الحق الكامل، عُرفاً، في استرجاع «الاقطاعات» من اصحابها. امّا استيلاؤه على «الاملاك» فكان مخالفاً للشرع.

وامتعض «امراء الجبال» من هذا التدبير من قبل السلطان. وأخذ بنو ثعلب (او ثعلبة) في مشغرا (انظر الفصل الأوّل، ص٣٢ – ٣٣) – ورئيسهم آنذاك الامير فارس الدين رُمَيْح (انظر ابن عبد الظاهر، تشريف العصور . . .، ص ١٢٢) – يثيرون الفتن في البقاع ضدّ الدولة. فألقى نائب دمشق القبض على وجهائهم، وألقى بهم في السجن وغرّمهم. وتمنّع بنو بحتر عن الحضور الى مصر، وكذلك غيرهم من امراء «جبل بيروت» و«جبل صيدا»، فأخرج قلاوون «أملاكهم واقطاعهم» عنوة. «وكانت املاكهم بمكاتيب مثبوتة على الشرع الشريف» (صالح بن يحيى، المصدر ذاته، ص ٧١). وفي عام ١٢٨٩ م حاصر قلاوون طرابلس وأخذها، فجعل الاقطاعات والاملاك المصادرة لأمراء الحلقة فيها، بما في ذلك اقطاعات بني بحتر واملاكهم. ولربّما كان قلاوون يشكّ في ولاء بني بحتر وغيرهم من «امراء الجبال» للدولة، كما كان يفعل الملك الظاهر بيبرس في زمانه.

وعاد قلاوون الى مصر بعد اخذه لطرابلس، وبدأ يستعدّ للهجوم على عكّا، فتوفّي عام ١٢٩٠ م وخلفه في السلطنة ابنه الملك الأشرف خليل (١٢٩٠–١٢٩٣ م). وخرج خليل الى الشام في العام التالي، فحاصر

عكّا وأخذها عام ١٢٩١ م، ثم استولى على صور وصيدا وبيروت. وكانت جبيل قد سقطت عسكرياً في أيدي المماليك بعد سقوط طرابلس، فسمح السلطان لآل امبرياتشي والجالية الجنويّة بالبقاء فيها. ولربّما كان ذلك بسبب المصالح التجارية التي استمرّت قائمة بين مصر والمدن الايطالية منذ العهد الفاطمي، وحتى في عهد صلاح الدين وبيبرس. ولم يخرج الجنويّة من جبيل نهائياً الاّ قرب عام ١٣٠٧ م، عندما لحقوا بغيرهم من الفرنجة في مملكة قبرس.

وبسقوط عكّا وخروج الفرنجة من صور وصيدا وبيروت عام ١٢٩١ م، اكتملت السيطرة لدولة المماليك «البحرية» من الاتراك على الشام. وقد أنشد احد الشعراء الملك الاشرف خليل بهذه المناسبة مهنّئاً:

الحمد لله ذلّت دولة الصلب   وعزّ بالترك دين المصطفى العربي[٥٥]

وما لبث المماليك ان اعادوا تنظيم المناطق الشامية، بما فيها المناطق اللبنانية، ووطّدوا حكمهم فيها. فخضع لهم الدروز في «الاشواف» كما خضع لهم الموارنة في «جبل لبنان». وابتدأ بالتالي عهد جديد في تاريخ البلاد.

---

٥٥. من قصيدة للقاضي شهاب الدين محمود الدمشقي الحلبي (توفي ١٣٢٥ م). الكتبي، فوات الوفيات (بيروت، ١٩٧٣ – ١٩٧٤)، ج ١، ص ٤١٠ – ٤١٣.

الفصل الرّابع

لبنان وجواره في عهد المماليك ١٢٩١-١٥١٦ م.

وكانت أيامه غرر الأيّام...، والزمان ساكن باهله، راقد عن الحوادث.....

صالح بن يحيى

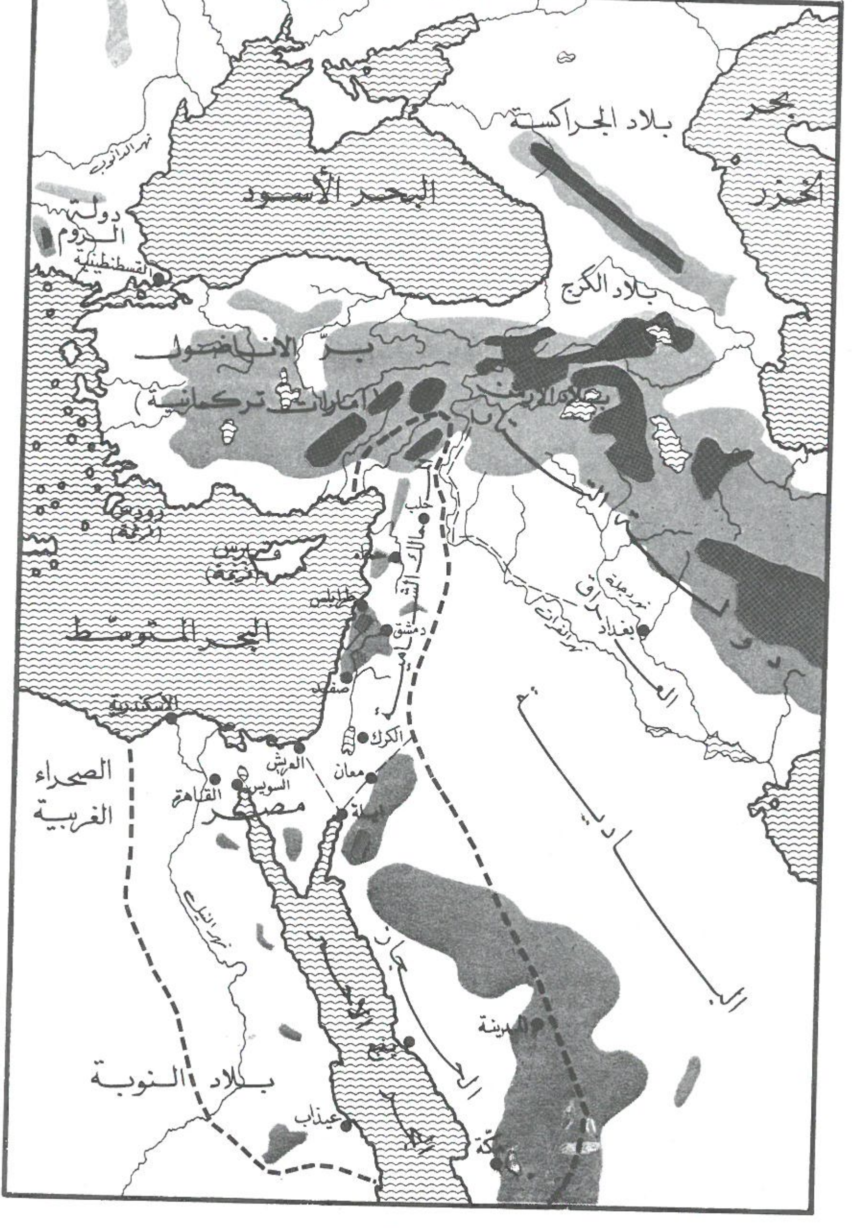
١

تميّزت دولة المماليك التي عرفت في زمانها بـ« دولة الاتراك » (١٢٥٠-١٣٨٢ م)، ثمّ بـ« دولة الجراكسة » (١٣٨٢-١٥١٧ م)، بتنظيمها الاداري المتقن. وقد أخذ سلاطينها الاوائل أسس هذا التنظيم عن الدولة الأيّوبية التي احسنت في زمانها الجمع بين التقاليد الادارية للدولة الفاطميّة من جهة، وللممالك السلجوقيّة والاتابكيّة من جهة أخرى. وكان على رأس الدولة في عهد المماليك السلطان المقيم في القاهرة. وكان الملك الظاهر بيبرس قد استقدم إليه أحد أفراد الأسرة العبّاسيّة بعد نكبة الخلافة في العراق على يد التتار، ونصّبه خليفة على المسلمين في القاهرة. فأضفى وجود هذا الخليفة ومن جاء بعده من الخلفاء العبّاسيين في مصر القدر المطلوب من الشرعية الاسلامية على السلطنة القائمة هناك، وذلك على ضعف شأن الخلافة العبّاسيّة في القاهرة، واقتصار صلاحياتها على بعض الأمور الرسمية – وأهمّها تثبيت السلطان في منصبه عند جلوسه.

وكان السلاطين الاوائل في « دولة الاتراك » من امراء المماليك « الصالحية » (أي مماليك الملك الصالح أيّوب)، وهم المعروفون بالمماليك « البحرية »، كما سبق.[1] ومن هؤلاء المعزّ أَيْبَك، والمظفَّر قُطُز، والظاهر بَيْبَرس، والمنصور قَلاوون. ثم تتابع اولاد قلاوون، وأحفاده، وأبناء أحفاده وأحفادهم على العرش من بعده حتى جاء دور « الجراكسة »، من المماليك « البرجية »، عام ١٣٨٢ م. وكان السلطان قلاوون في زمانه اوّل من استقدم المماليك الجراكسة الى مصر، وجعل لهم معسكراً في أحد أبراج قلعة القاهرة (وهي مركز السلطنة)، ولذلك عُرفوا بالمماليك « البرجية ». والجراكسة مجموعة قبائل من بلاد القفقاس Caucasus،

---

١. انظر ص ١١٢.



٩ . دولة المماليك

بين بحر الخزر (اي بحر قزوين) والبحر الأسود، ولغتهم قريبة من التركية. ولعلّهم في الأصل مزيج من العشائر المقيمة منذ القدم في تلك المنطقة، ومن قبائل التركمان التي حلّت فيها ابتداء بالقرن الميلادي الحادي عشر.[2] وكان اوّل من تسلّم السلطنة من المماليك «البرجية» الملك الظاهر برْقوق (١٣٨٢–١٣٩٩ م). وخلف الظاهر برقوق ابنه الملك الناصر فرج (١٣٩٩–١٤١٢ م). ثمّ بطلت عادة انتقال الملك عن طريق التوارث او كادت. وأصبحت السلطنة بعد الناصر فرج لمن تغلّب عليها من الأمراء «البرجية». ومن أبرز هؤلاء المؤيّد شيخ (١٤١٢–١٤٢١ م)، والاشرف برْسباي (١٤٢٢–١٤٣٨ م)، والظاهر جَقْمَق (١٤٣٨–١٤٥٣ م)، والاشرف إينال (١٤٥٣–١٤٦٠ م)، والظاهر خُشْقَدَم الرومي (١٤٦١–١٤٦٧ م)، والاشرف قايْتباي (١٤٦٨–١٤٩٥ م)، والأشرف قانصوه الغوري (١٥٠٠–١٥١٦ م).

وكان لكلّ من هؤلاء السلاطين، سواء في الدولة «البحرية» او «البرجية»، جيش خاص من الاجناد المماليك يعرفون بـ«مماليك السلطان». ومنهم «الخاصكية»، وهم نخبة من هؤلاء الجند. وكان لكلّ من الأمراء المماليك أجناده، وهؤلاء يعرفون بـ«اجناد الامراء». وكان الجندي من مماليك السلطان يعتق شرعاً ان هو ترقّى الى درجة «الامارة» (اي القيادة العسكرية). وكانت هذه «الامارة» على ثلاث رتب: أرفعها رتبة «أمير مئة»، او «امير كبير»، وأوسطها رتبة «امير أربعين»، او «امير طبلخاناه»، وادناها رتبة «امير عشرة». والعدد المذكور في كلّ من الرتب يشير الى عدد الفرسان التابعين للأمير، دون المشاة. وكان للامراء من الرتبة الأولى والثانية، دون الثالثة، الحق بـ«طبلخاناه»، اي بتنظيم فرقة موسيقية ملحقة بجندهم. ولذلك سمّي «امير الاربعين» بـ«الطبلخاناه» لتمييزه عن «امير العشرة».

---

٢ . انظر ص ٧٢ .

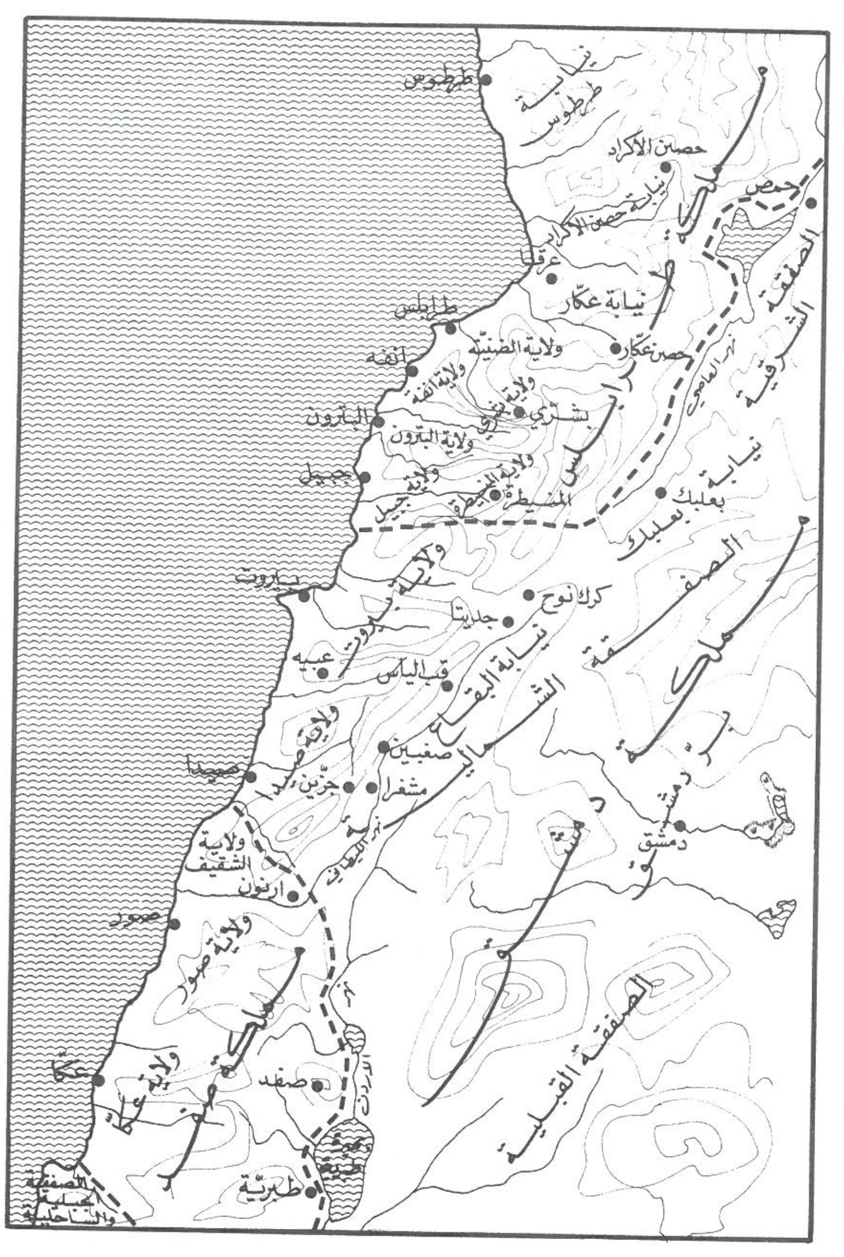
١٠. التقسيمات الاداريّة في الشام في عهد المماليك

واما «جند الحلقة» او «اجناد الحلقة» — وهم، كما ذكرنا في الفصل السابق،[3] الرديف من الفرسان المحليّين من غير المماليك، الملحقين بعسكر السلطان في مختلف المناطق — فكان لهم «امراء أربعين»، و«امراء عشرة»، و«امراء خمسة». ولم يكن منهم «امراء مئة». و«امراء الاربعين» بينهم قلائل. وقد أُبطلت «الحلقة» في اواخر دولة المماليك «البحرية»، ولم يبق منها بعد ذلك — على ما يظهر — الّا بعض التعيينات العسكرية في المناطق الجبلية النائية من الشام، وبين عرب البادية.

وكان السلاطين المماليك يوكلون المناصب السياسية في الدولة الى كبار الامراء، وهم «ارباب السيوف». أمّا الوظائف الادارية، او «الديوانية»، فكانوا يوكلونها الى أصحاب الكفاءة من أبناء الشعب، وهؤلاء «أرباب الاقلام». ومن أهم هذه الوظائف «الديوانية» منصب «ناظر الجيش» المسؤول عن «ديوان الجيش»، وبالتالي عن «الاقطاع»، وكذلك منصب «كاتب السرّ» المسؤول عن «ديوان الانشاء والمكاتبات»، وبالتالي عن كافة المكاتبات الرسمية، بما في ذلك المكاتبات الخارجية. وكانت الوظائف الشرعية والدينية — كالقضاء، والافتاء، والخطابة، والتدريس، والمشيخات الصوفية — محصورة في طبقة «العلماء»، ومعظم هؤلاء من أعيان مصر والشام. ومن هذه الوظائف الشرعية نظارة «بيت المال» التي كان يوكل أمرها الى رجل من كبار «العلماء».

وقسم المماليك بلاد الشام، بعد أن تمّت لهم السيطرة عليها، إلى ست «ممالك»، تضاف إليها بعض «النيابات» المستقلّة (كغزّة وحمص وملطية) عندما تدعو الحاجة. و«الممالك» الشامية العادية هي دمشق، وحلب، وطرابلس، وحماه، وصفد، والكرك. وجعل المماليك على رأس كلٍّ من هذه الممالك «نائب سلطنة» قابلاً للعزل، يعيّنه السلطان من بين الامراء الكبار في القاهرة. اما التنظيم العسكري والاداري في

٣. انظر ص ١١٩ — ١٢٠.



١١ . لبنان وجواره في عهد المماليك

المماليك الشامية ، فلم يختلف عن التنظيم القائم في مصر الّا بالحجم . فكان لكلّ « مملكة » في الشام عسكرها الخاص ، ودواوينها الخاصة . وكانت القرارات السياسية تصدر من القاهرة ، فيطبّقها « نوّاب السلطنة » في الشام كلّ في مملكته .

وكانت « مملكة » دمشق كبرى الممالك الشامية وأوسعها رقعة . وقد قسمها المماليك لهذا السبب الى أربع مناطق ادارية عرفت بـ « الصفقات » . فجعلوا « الصفقة الساحلية والجبلية » تشمل المرتفعات والساحل من بلاد فلسطين الى الغرب من نهر الاردن ، وقاعدتها غزّة . وجعلوا « الصفقة القبلية » تشمل حوران ومرتفعات الجولان وعجلون والبلقاء بالاضافة الى غور الاردن ، وقاعدتها بلدة أذَرعات (وهي اليوم درعا) . وجعلوا « الصفقة الشرقية » تشمل المنطقة الممتدّة من جبل القلمون ، الى الشمال من دمشق ، حتّى بلاد حماه وسلمية ، وقاعدة هذه الصفقة مدينة حمص . أما « الصفقة الشمالية » وهي الصفقة الرابعة ، وقاعدتها بعلبك ، فكانت تشمل نيابة « البقاع البعلبكي » (وقاعدتها بعلبك) ، ونيابة « البقاع العزيزي » (وقاعدتها كرك نوح ، وهي اليوم الكرك) ، وولاية صيدا (بما فيها جبل الشوف) ، وولاية بيروت (بما فيها جبل الغرب والمتن والجزء الأكبر من جبل كسروان) . وكانت كلٌ من الصفقات الأربع من مملكة دمشق تقسم الى « نيابات » و« ولايات » . و« النيابة » (وعلى رأسها « النائب ») اكبر شأناً من « الولاية » (وعلى رأسها « الوالي » او « المتولّي ») . وكان « برّ دمشق » ، المشتمل على « الغوطة » وجوارها ، تابعاً مباشرة لنائب السلطنة في دمشق .

وشملت « مملكة » طرابلس كامل الرقعة التي كانت لـ « قومسية » طرابلس في زمن الفرنجة وهي شمال لبنان ، وجبل بهراء ، وثغور الساحل من جبيل الى اللاذقية . وكانت المنطقة اللبنانية من هذه « المملكة » تتألّف من عدّة ولايات ، وهي « بلاد الضنّيين » (اي الضنّية) ، و« بشرّيه »

(اي جبّة بشرّي)، وأنفه (اي ساحل طرابلس وما يليه من الكورة)، وجبيل، وجبّة المنيطرة، «وما لعلّ في تلك ممّا له ولاية» (ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢ هـ، ص ١٨٢). وكان حصن عكّار («عكّار العتيقة» اليوم)، الى الشمال من ولاية الضنّية، يصنّف من القلاع الهامة التابعة لطرابلس. وقد جعل في زمن المماليك «البرجية» قاعدة لنيابة «حصن عكّار»، من نيابات المملكة (انظر القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، القاهرة، ١٩١٤، ج ٤، ص ٢٣٥).

أمّا «مملكة» صفد، وقاعدتها مدينة صفد في الجليل الأسفل، فكانت تشمل كامل الجليل، من غور الاردن الى البحر، ومن مجرى نهر «ليطا» (اي الليطاني) الى مرتفعات فلسطين. ومن ولايات هذه «المملكة» في الجليل الأعلى – وهو جبل عاملة – ولاية «شقيف ارنون»[4] (قرب بلدة النبطية)، وولاية صور.

٢

ما ان تمّ اخراج الفرنجة من عكّا وصور وصيدا وبيروت عام ١٢٩١ م حتّى جرّد الملك الاشرف خليل بن قلاوون العساكر الى جبل كسروان، لكسر شوكة العشائر المتمنّعة عن قبول سلطة الدولة هناك. وكان اهالي كسروان، ومعظمهم من الشيعة الأمامية (وهم «الرافضة» على حد تعبير أهل السنّة في ذلك العصر)، قد بقوا حتى ذلك الوقت خارج سطوة ملوك دمشق وحكّامها، وفي الوقت نفسه يبدو انهم لم يدخلوا مباشرة تحت

٤. يعرف هذا الحصن اليوم سياحياً باسم «قلعة بوفور» Beaufort، وهو الاسم الذي أطلقه عليه الفرنجة في زمانهم. والجدير بالملاحظة ان ولاية شقيف أرنون كانت تقع الى الشمال من نهر الليطاني، دون ان تتّصل بالساحل.

حكم الفرنجة. وكان الجهاد الناجح ضد الفرنجة في فترة الحروب «الصليبية» قد اقتصر على الدول السنّية وحلفائها من «الباطنية» في وادي التيم، ثمّ من الدروز في «جبل بيروت». وقد تمّ هذا النجاح للجهاد السنّي ضدّ الفرنجة بعد الاخفاق الذي باءت به محاولات الدولة الفاطمية الاسماعيلية في مصر، والدويلات الشيعية الاسماعيلية والامامية في الشام (ومنها دولة بني عمّار في طرابلس)، في مقاومة غزوات الفرنجة واحتلالهم لمعظم الشام، فيما عدا المناطق الخاضعة للمالك السنّية في الداخل. وربّما كان في ذلك ما يفسّر اقدام الدولة السنّية، في عهد المماليك، على ضرب اهل الشيعة في الشام بعد ان تمّ لها النصر على الفرنجة.

ومهما يكن واقع الامر فيما يختصّ بشيعة الشام على وجه العموم آنذاك، فمن الواضح أن شيعة كسروان كانوا يعتبرون من الخارجين على الدولة. ولربّما حاول ملوك دمشق من الآيّوبية كسر شوكتهم من قبل بمساعدة دروز الغرب، فنتج عن ذلك – كما سبق – مقتل اثنين من آل بحتر في كسروان عام ١٢٤٢ م.[5] وثار الشيعة هناك ضدّ المماليك في عهد الملك المنصور قلاوون، على ما يظهر. فاستعدّ نائب السلطنة في دمشق، وهو الامير حسام الدين لاجين المنصوري، لمحاربة اهالي «كسروان والجردين»[6] و«استئصال شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم وأنفسهم». وكاتب امراء الغرب بهذا المعنى عام ١٢٨٧ م (صالح بن يحيى، تاريخ بيروت...، ص ٥٣). ولربّما حدثت غارة على كسروان في ذلك الوقت، والدليل على ذلك ان «جماعة» من أهالي المنطقة «كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم» في اواخر عهد قلاوون (المصدر ذاته، ص ٢٥). وما ان توفّي السلطان قلاوون، وخلفه ابنه

٥. انظر ص ١١٣.

٦. ربّما المعني هنا جرد «الخارجة» وجرد «الداخلة» من كسروان. و«الجرود» في لبنان هي المناطق الجبلية العالية الوعرة.

الاشرف خليل، حتى عاد نائب السلطنة في دمشق – وهو الأمير لاجين بالذات – يكاتب امراء الغرب من آل بحتر ويدعوهم للحضور الى دمشق «طيّبي القلوب، منشرحي الصدور، ليجدّدوا الايمان على نفوسهم للسلطان كما جدّدها الامراء ومقدّمو الحلقة، وان لا يتأخروا، ولا يسبقهم الى الطاعة الشريفة غيرهم» (المصدر ذاته، ص ٥٣–٥٤). وهكذا أعيد الاعتبار لآل بحتر في اوائل عهد الاشرف خليل، بعد نكبتهم في عهد ابيه عام ١٢٨٨ م. فأمن السلطان جانبهم عند افتتاحه لمدن الساحل، وكذلك عندما قرّر الاغارة من جديد على كسروان.

وجرّدت العساكر على كسروان في صيف عام ١٢٩١ م، وعلى رأسها الأمير بدر الدين بيدرا، وهو في ذلك الوقت نائب السلطنة في مصر:

> وخرج الامير بدر الدين بيدرا... ومعه معظم العسكر الى جبال كسروان من جهة الساحل، فلقيهم اهل الجبال وعاد بيدرا شبه المهزوم. واضطرب العسكر اضطرابا عظيما، فطمع اهل الجبال فيهم. وتشوّش الامراء من ذلك، وحقدوا على بيدرا ونسبوه انه اخذ منهم الرشوة. فلمّا عاد الى دمشق تلقّاه السلطان و ترجّل له عند السلام عليه، وعاتبه سرّا فيما كان منه (المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، القاهرة، ١٩٣٩، ص ٧٧٩).

وهكذا أخفقت دولة المماليك في محاولتها الأولى للسيطرة على كسروان. وهناك في زجلية ابن القلاعي ما يفيد بأن المماليك هُزموا آنذاك على يد «المقدّمين» الموارنة في بلاد جبيل (انظر ابن القلاعي، حروب المقدّمين...، ص ٥١–٥٤). ولعلّ حملة بيدرا شملت المناطق الجبلية المارونية في بلاد جبيل بالاضافة الى المناطق الشيعية في كسروان. غير ان المصادر الاسلامية المعروفة (بما فيها التواريخ الدرزية) لا تذكر ذلك.

واستمرّ الشيعة في كسروان وغيرها من مناطق جبل لبنان في مقاومتهم للدولة بعد اخفاق حملة بيدرا عام ١٢٩١ م. فزاد استياء المماليك وأهل السنّة في الشام منهم. امّا الدروز في الغرب، فأظهروا للمماليك الولاء

التام. وكانت دولة التتار في بلاد فارس والعراق في اوج عزّها في ذلك الوقت. وكان التتار قد أغاروا على الشام مرّة ثانية عام ١٢٨١ م. ثم اغاروا عليها مرّة ثالثة عام ١٣٠٠ م، وذلك في الدورة الثانية من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة (١٢٩٣ – ١٢٩٤، ١٢٩٨–١٣٠٨، ١٣٠٩ – ١٣٤٠ م)، وكسروا جيش المماليك خارج حمص. وهرب «عساكر الناصر محمد» الى الجبال وتفرّقوا فيها، «فحصل لهم الأذيّة من المفسدين، خصوصاً من أهل كسروان وجزّين. وأكثرهم اذية للهاربين اهل كسروان – بالغوا الى انهم امسكوا بعض الهاربين وباعوهم للفرنج. واما التشليح والقتل فكان كثيرا» (صالح بن يحيى، تاريخ بيروت...، ص ٧٧–٧٨). وكان آل بحتر في الغرب في تلك الأثناء يستضيفون الهاربين من عسكر المماليك ويحسنون اليهم، وكذلك فعل آل صُبح، من امراء البقاع السنّيين في قرية جديتا (المصدر ذاته، ص ٧٨). فلما انهزم التتار آخر الأمر، وخرجوا مجدّداً من الشام، خلع السلطان على الامير علي بن حسن بن صبح في البقاع، وعلى الأمير ناهض الدين بحتر بن زين الدين صالح في الغرب، وجعل كلّا منهما «أمير طبلخاناه» في «الحلقة الشامية». وكان نائب السلطنة في دمشق آنذاك الامير جمال الدين آقّوش الافرم، فجرّد العساكر على الفور – وفي العام ذاته – لغزو كسروان بمساعدة زملائه من نوّاب السلطنة في صفد وطرابلس:

> فاستعد (اهالي كسروان)[7] لقتالهم، وامتنعوا بجبلهم وهو صعب المرتقى، وصاروا في نحو اثني عشر الف رام. فزحفت العساكر عليهم، فلم تطقهم وجرح كثير منهم. فافترقت العساكر عليهم من عدّة جهات، وقاتلوهم ستّة ايام قتالا شديدا الى الغاية، فلم يثبت اهل الجبال وانهزموا. وصعد العسكر

---

٧. يدعوهم المقريزي هنا «الدرزية»، وهو خطأ واضح يعود الى قلّة معرفة المؤرخين المصريين في ذلك الوقت بشؤون الشام الداخلية. هذا مع العلم بأن بعض الدروز كانوا مقيمين آنذاك في قرى من «الخارجة».

الجبل ... ووضع السيف فيهم ، فألقوا السلاح ونادوا « الأمان » ، فكفّوا عن قتالهم واستدعوا مشايخهم والزموهم باحضار جميع ما اخذ من العسكر وقت الهزيمة ، فاحضروا من السلاح والقماش شيئا كثيرا ، وحلفوا انهم لم يخفوا شيئا . فقرّر عليهم الامير آقوش الافرم مبلغ مائة الف درهم جبوها ، واخذ عدّة من مشايخهم وأكابرهم ، وعاد الى دمشق ... وبعث البريد بالخبر الى السلطان (المقريزي ، كتاب السلوك ... ، ج ١ ، ص ٩٠٣) .

غير ان النجاح الذي حققته هذه الحملة لم يؤمّن لدولة المماليك سيطرة ثابتة وكاملة على جرود كسروان . ولم تمض سنوات قليلة حتى عاد أهالي المنطقة الى تحدّي النظام القائم . وكان كبير ائمة السنّة في الشام في حينه تقي الدين احمد ابن تيمية ، وهو شيخ المذهب الحنبلي في دمشق .[8] فقدم ابن تيميّة الى كسروان عام ١٣٠٤ م على رأس وفد من الأمراء لمفاوضة الشيعة هناك في الرجوع الى الطاعة ، فلم ينجح في مهمّته . وعاد الى دمشق بعد ذلك ، وأخذ يدعو في جميع انحاء الشام الى حملة جديدة ضدّ « أهل كسروان »[9] تقضي عليهم قضاء نهائياً .

وفي ٢٥ تموز عام ١٣٠٥ م « سار الامير جمال الدين آقوش الافرم ... من دمشق في عساكرها لقتال اهل جبال كسروان ، ونادى بالمدينة من تأخّر من الأجناد والرّجالة شنق ، فاجتمع له نحو خمسين الف راجل » (المقريزي ، كتاب السلوك ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٤١ ، ص ١٤ — ١٥) . وتوجّه آل بحتر برجالهم من الغرب لمساعدة عسكر دمشق . فانكسر

٨ . راجع دراسة المستشرق هنري لاووست عن ابن تيميّة

Henri Laoust, *Essai sur les dectrines sociales et politiques de Taki-Din Ahmad B. Taimiya, canoniste hanbalite*, Le Caire, 1939.

والجدير بالملاحظة ان تقي الدين ابن تيميّة كان يعتبر كبير أئمة السنّة في زمانه ، على ان اتباع مذهبه الحنبلي لم يكونوا في الشام الاّ قلّة ، ومعظمهم في المدن الكبرى الداخلية .

٩ . من مؤلفات ابن تيميّة مجلدان في « الردّ على أهل كسروان » . انظر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٧٧ .

اهل كسروان في عين صوفر[10] وانهزموا ، فلحقهم آقوش الافرم الى جبالهم « ونازلهم ، وخرّب ضياعهم ، وقطّع كرومهم ، ومزّقهم بعد ما قاتلهم احد عشر يوماً ... ، ووضع فيهم السيف ، وأسر ستمائة رجل ، وغنمت العساكر منهم مالاً عظيماً » (المصدر ذاته ، ص ١٥) . وكانت الواقعة الكبرى بين عسكر دمشق والكسروانيين في قرية نِيْبَيْه ، فقتل هناك اثنان من امراء آل بحتر وثلاثة وعشرون نفراً من اتباعهم . وكان عدد الكسروانيين في تلك الواقعة اربعة الاف رجل ، على حدّ قول صالح بن يحيى . « فراح تحت السيف منهم خلق كثير ، والسالم منهم تفرّقوا في جزّين وبلادها ، والبقاع ، وبلاد بعلبك . وبعضهم اعطوا الدولة امانهم » (صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ... ، ص ٩٦) .

وهكذا تمّ أخيراً استيلاء دولة المماليك على كسروان . فأُقطعت قرى المنطقة أوّل الامر لبعض امراء المماليك في دمشق وبعلبك . ثم جاءت الدولة بعشائر من التركمان في اوائل عام ١٣٠٦ م وأسكنتهم في « ازواق » (اي مستوطنات عشائرية) على ضفتي نهر الكلب . وأوكل الى هؤلاء التركمان المحافظة على كامل المنطقة . وقد عُرف زعماؤهم هناك بـ « اولاد الاعمى » . ولعلّ هذا الاسم ترجمة عربيّة للاسم التركي « كور أوغلو Köroghlu (اي « ابن الاعمى ») ، وهو من اسماء العلم الشهيرة عند العشائر التركمانية ، وقد كان في الاصل اسما لأحد ابطالهم القدماء ، كما تدّعي اساطيرهم .

وتذكر المصادر المارونية القديمة (ومنها تاريخ « تادرس مطران حماه »[11] — انظر ملحق ابن القلاعي ، حروب المقدّمين ... ، ص ٨٥ — ٨٨) ان عسكر دمشق اخرب كنائس واديرة كثيرة للموارنة في كسروان في

١٠ . هي بلدة صوفر اليوم ، على الطريق من بيروت الى دمشق .

١١ . المرجع ان « مطرانية حماة » المارونية كانت في ذلك الوقت مطرانية اسمية . والواضح من نص تاريخ المطران تادرس المذكور انه كان مقيما في زمانه في لبنان ، وليس في حماة .

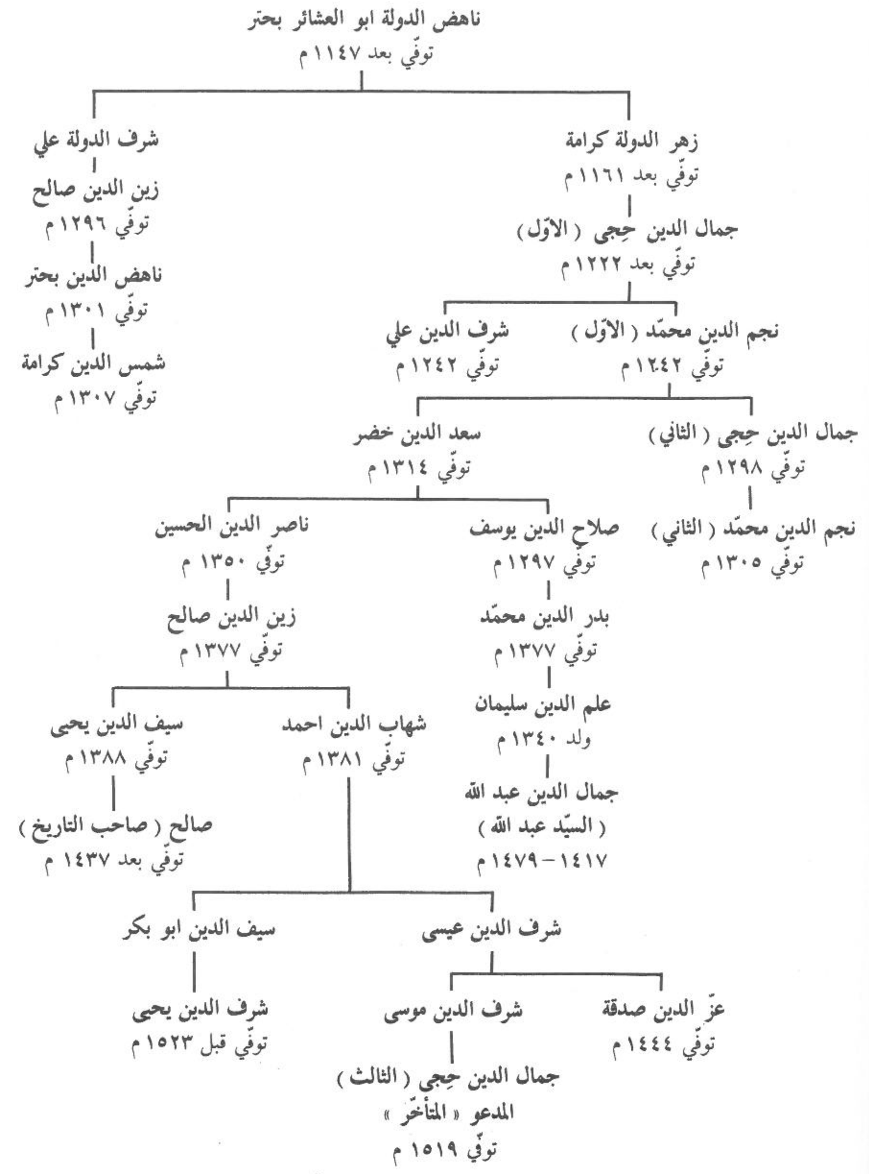
حملة عام ١٣٠٥ م ، ومنها دير مار شلّيطا بقرية مِقْبِس ، قرب بلدة غُسطا . وقد اعتبر ابن القلاعي ، في زجليته الشهيرة ، أن نكبة كسروان في ذلك العام كانت نكبة للموارنة في المنطقة ، لا لغيرهم . ولعلّ الموارنة كان لهم بالفعل وجود في كسروان في ذلك الوقت ، فاخرب عسكر دمشق كنائسهم واديرتهم وقراهم كما اخرب قرى الشيعة . ثم عاد الامان الى المنطقة بعد ذلك ، فرجع اليها سكّانها من الشيعة وكذلك سكّانها من الموارنة ، على حدّ قول « تادرس مطران حماه » المذكور .

٣

وكان في جملة امراء الغرب الذين اشتركوا في الحملة على كسروان عام ١٣٠٥ م الامير ناصر الدين الحسين ، وهو ابن الامير سعد الدين خضر المذكور في الفصل السابق . وكان نسيبه ناهض الدين بحتر بن زين الدين صالح قد توفّي في دمشق بداء « الزنطارية » عام ١٣٠١ م ، بعد أشهر قليلة من تسلّمه « امارة الطبلخاناه » من الدولة ، كما سبق ،[12] فافسحت وفاته المجال لناصر الدين الحسين بأن يتسلّم زعامة آل بحتر من بعده . وكان الملك الاشرف خليل قد باشر عام ١٢٩٢ م بإعادة الاعتبار والاقطاع لامراء الغرب . وحذا اخوه الناصر محمد حذوه ، فأعاد الى آل بحتر ما بقي مصادراً من اقطاعهم عام ١٢٩٤ م . والحقهم في الوقت ذاته بحلقة بعلبك ، وجعل الكبار منهم « امراء خمسة » . فلما صدرت الاوامر عام ١٣٠٠ م بترقية الامير ناهض الدين بحتر الى رتبة « امير اربعين » جمعت له الاقطاعات المبعثرة من هنا وهناك « حتى صارت امرية طبلخاناه » (صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ... ، ص ٧٩) .
وتسلّم ناصر الدين الحسين منشوره الاوّل بالاقطاع من الاشرف

١٢ . انظر ص ١٣٥ .

اعيان الامراء من آل بحتر في الغرب
في عهد الفرنجة والمماليك



خليل عام ١٢٩٢ م، وذلك برتبة ادنى من «امير خمسة»—اي برتبة دون «الامرية». واستمرّ كذلك حتى توفي احد انسبائه عام ١٣٠٧ م، وكان هذا «امير عشرة»، فأخذ ناصر الدين هذه «الامرية» عنه بموجب منشور من الملك الناصر محمد. وأصبحت رتبته في «الحلقة الشامية» بالتالي أعلى رتبة بين امراء الغرب. ثم زيد في اقطاعه عام ١٣١٤ م وأصبح «امير عشرين» (انظر المصدر ذاته، ص ٨٢–٨٤)، وذلك على الرغم من عدم وجود مثل هذه الرتبة آنذاك في العرف العسكري المألوف.

وكانت الدولة قد باشرت في تلك الاثناء باعادة تنظيم الاقطاع في الشام عن طريق «الروك»[١٣]. وتمّ «كشف البلاد» عن طريق المساحة عام ١٣١٣ م، فجعلت بعض مناطقها مناطق «خاصّ»، اي مناطق أميرية يذهب خراجها الى الخزينة السلطانية. وجعلت المناطق الباقية مناطق «اقطاع»، فقسّمت الى اجزاء متناسبة قدر الامكان، ووزّعت هذه الأجزاء على امراء المماليك وامراء «الحلقة» بالقرعة، كلّ حسب رتبته. وأدخلت الدولة منطقة الغرب في هذا «الروك»، فأخذت من امرائها اقطاعاتهم المحليّة وعوضتهم عنها باقطاعات في مناطق اخرى من الشام عن طريق القرعة. فاستاء امراء الغرب من هذا التدبير شديد الاستياء. وقام ناصر الدين الحسين يطالب الدولة بابقاء آل بحتر وغيرهم من امراء «الحلقة الشامية» في الغرب على اقطاعاتهم المحليّة الموروثة عن آبائهم واجدادهم. ومن هذه الاقطاعات ما كان ملكاً لهم «بمحاضر شرعية مثبوتة منفذة من قاض الى قاض» (المصدر ذاته، ص ٨٦). وتوجّه ناصر الدين لهذه الغاية الى دمشق، وأوجز القضية كتابة الى الامير سيف الدين تنكز—وهو نائب السلطنة هناك (١٣١٢–١٣٤٠ م)—كما يلي:

١٣. انظر ص ٥٥.

المملوك الحسين بن امير الغرب يقبّل الارض، وينهي ان المملوك[١٤] واقاربه ملتزمين بحفظ ثغر بيروت... وغالب اقطاعهم الذي يخدمون عليه املاكهم الثابتة بالشرع الشريف.... ولما رسم بكشف البلاد تميّز فيها الذي كان المماليك[١٥] يوفّرونه علي الدولة بسبب الرجال (اي الرجال المحليين) الذين يساعدونهم على على حفظ الثغر. ومتى دخلت هذه الملكيات الروك هلك المماليك[١٦]، وما ينتفعوا بغيرها، لأنها مساكنهم، وبها رجالهم وعشيرتهم... (المصدر ذاته، ص ٨٦).

واقتنع نائب السلطنة في دمشق بحجّة ناصر الدين الحسين، وكتب «مطالعة الى السلطان ذكر فيها قدم املاك امراء الغرب، فرسم السلطان انها تستمر بايديهم» (المصدر ذاته، ص ٨٧). فاخرجت منطقة الغرب بالتالي من الروك، وبقي امراء الغرب فيها يتوارثون اقطاعاتهم حتى آخر عهد المماليك—او على الأقلّ حتى ابطلت «الحلقة» في ايام المماليك «البرجية». فكان في ذلك ما عزّز مكانة آل بحتر محلّياً وميّزهم عن غيرهم من أمراء الأطراف الشاميّة منذ ذلك الزمن.

٤

وأكملت دولة المماليك التدابير اللازمة لحماية ثغر بيروت في غضون القرن الميلادي الرابع عشر، وذلك بسبب الغارات المتكرّرة على هذا الثغر وغيره من ثغور الشام ومصر من قبل ملوك الفرنجة في قبرس، والقراصنة من «الجنويّة» (اي أهالي جنوة في ايطاليا)[١٧] وسواهم (المصدر

١٤. اي الامير ناصر الدين الحسين ذاته.
١٥. اي الامراء من آل بحتر.
١٦. اي الامراء من آل بحتر.
١٧. انظر ص ٨٨، ١٢١. ولعلّ الجنويّة هؤلاء أخذوا يشنّون الغارات على الموانيء الشاميّة بعد خروج آل أمبرياتشي من جبيل نهائياً قبل عام ١٣٠٧ م. انظر ص ١٢١.

١٢ . الغرب وجواره في عهد المماليك

ذاته ، ص ٣٤–٣٨) . فجعلوا أجناد « حلقة » بعلبك « تتجرّد » الى بيروت ابدالا ، فيقيم كل بدل منهم فيها شهراً واحداً . وخصّص لهؤلاء الأجناد برجاً على البحر ينزلون فيه ، عرف بـ « البرج الصّغير » او « برج البعلبكية » . وكان جملة اجناد امراء الغرب من آل بحتر ، وآل ابي الجيش ، وغيرهم ، تسعين فارساً ، فجعلت الدولة منهم ثلاثة ابدال تتناوب على مساعدة اجناد بعلبك في المحافظة على الثغر . وكان احد ملوك بني ايوب « قد اوقف وقفاً على جماعة خيّالة ورجّالة برسم الجهاد ... واشرط عليهم بأن يكونوا في أقرب الموانيء الى دمشق » ، فجعلت الدولة هؤلاء « الخيّالة والرجّالة » في بيروت بعد خروج الفرنجة منها . وقد استقرّ هؤلاء المجاهدون المتطوّعون فيما بعد في « البرج الكبير » الذي بني خصّيصاً لهم في عهد الملك الظاهر برقوق « على قاعدة برج من ابراج القلعة الخراب » . وجعلت الدولة بين بيروت ودمشق بريداً منتظماً لنقل الاخبار ، وذلك بالاضافة الى « حمام البطاقة » ، اي الحمام الزاجل . فإذا طرأ حادث يستوجب الانذار السريع ، نقل هذا الانذار في ليلة واحدة عن طريق نار تشعل في ظاهر بيروت ، فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة (وهي تلّة دير القلعة ، قرب بيت مري) ، ثم في جبل بوارش (او بوارج ، وهو جبل الكنيسة) ، ثم في جبل يبّوس (وهو قمة متّصلة بجبل حرمون ، على طريق دمشق) ، ثم في جبل الصالحية (اي جبل قاسيون ، خارج دمشق) ومنه الى قلعة دمشق بالذات .

وأشرك المماليك تركمان كسروان في التدابير المتّخذة لحماية بيروت . وكان عددهم ثلاثمئة فارس ، فجعلوهم ثلاثة ابدال شهرية ، وأوكلوا اليهم « الدرك » على « دربند » (اي عقبة) نهر الكلب . « وكانوا يمنعون من يستنكرونه من التعدّي في دربند نهر الكلب الّا بورقة طريق من المتولّي (اي متولّي بيروت) او من امراء الغرب » . ولربّما جعل المماليك من زعماء التركمان هؤلاء – وهم « اولاد الأعمى » – امراء في « حلقة » بعلبك ،

اسوة بأمراء الغرب ، ولذلك قام التنافس الشديد بينهم وبين آل بحتر فيما بعد .

وتوقّفت تجارة بيروت فترة من الزمن بعد خروج الفرنجة منها ، وتضاءل عدد سكّانها . «فكان المسلمون يجتمعون لصلاة الجمعة ، فلا يكملوا أربعين . فيصلّي بهم الخطيب ظهراً في بعض الأوقات ، وفي بعضها يكملوا بمن يحضرهم من الضواحي ، فيصلّي بهم جمعة»[18] (المصدر ذاته ، ص ٣٤–٣٥) . ثم عادت السفن تتردّد اليها بـ«المتاجر» من البندقية ، وقبرس ، وغيرها من بلاد الفرنجة ، واستقرّت بها جالية من التّجار القبارسة فترة من الزمن . فازدهرت تجارتها من جديد ، وعلى الأخصّ تجارة البهار الوارد اليها والى غيرها من الموانيء الشامية والمصرية من بلاد الشرق ، والصادر منها الى البندقية وسائر بلاد الغرب . وظهرت «الحانات والخمامير» في البلدة على الأثر ، «ثم بطل ذلك» . ولم يطل الوقت حتى أخذ آل بحتر يهتمّون بالتجارة ، وذلك ابتداء بعهد الأمير ناصر الدين الحسين ، حتى انقطع بعضهم اليها على ما يظهر . وربّما كانت لهم مداخلات في شؤون ميناء بيروت حيث «جميع الموجبات الواردة والصادرة تؤخذ ، وعلى باب الميناء دواوين ، وعامل ، وناظر ، ومشارف ، وشاد يتولّون من دمشق... وكان ارتفاعها جملة مستكثرة... من البدل والديون على الصادر من البهار... والخارج عن البهار» (المصدر ذاته ، ص ٣٥–٣٦) .

---

١٨ . تقام صلاة الجمعة ظهراً ، وتتألف من ركعتين تسبقهما «الخطبة» . اما صلاة الظهر العادية ، وعدد ركعاتها اربع ، فتجوز اقامتها يوم الجمعة اذا تعذّرت اقامة صلاة الجمعة لسبب ما . ولا تقام صلاة الجمعة الا بحضور اربعين من المصلّين على الاقل ، حسب المذهبين الشافعي والحنبلي . وفي كلام صالح بن يحيى ما يدل على ان مسلمي بيروت كانوا آنذاك (وما زالوا) على المذهب الشافعي ، نظرا الى ان الحنابلة في الشام لم يكونوا الاّ قلّة . انظر ص ١٣٦ ، حاشية ٨ .

ولعلّ ناصر الدين الحسين ذاته استفاد من هذا الانتعاش التجاري في بيروت . ولا بدّ ان المكانة البارزة التي كان يتمتّع بها –وهو كبير أمراء الغرب– ساعدته على ذلك . فتعاظمت ثروته ، وبنى لنفسه داراً كبيرة في بيروت ، واستملك فيها «الزقاق المعروف بزقاق الخيّالة» . وبنى داراً أخرى كبيرة في بلدة عبيه ، وهي قاعدته في الغرب . فـ«كانت ايّامه غرر الايّام وزمانه زايد الابتسام ، موافقة لأيّام الملك الناصر محمد بن قلاوون ونائبه بالشام تنكز ، والزمان ساكن بأهله ، راقد عن الحوادث» (المصدر ذاته ، ص ٨٢ ، وفيه ترجمة وافية للمذكور ، مع منتخبات من نظمه ، ص ٨٢–١٣٥) . وكان ناصر الدين محبّاً للأدب ، وله نظم ركيك في الشعر ، وجمع كتباً كثيرة «غالبها دواوين شعر وتواريخ» . وقصده بعض شعراء عصره ومدحوه . وتخلّى عن «الامرية» لولده زين الدين صالح (وهو جدّ المؤرخ صالح بن يحيى) عام ١٣٤٨ م ، بعد أن تقدّم في السنّ ، وتوفّي عام ١٣٥٠ م . وكان اسمه قد اشتهر في الشام ومصر في حياته . واستمرّ له ذكر بعد وفاته ، فوضع له ابن حجر العسقلاني ترجمة مقتضبة في طبقاته المعروفة بـ«الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» (حيدراباد الدكن ، ١٣٤٨–١٣٥٠ هـ ، ج ٢ ، ص ٥٤–٥٥) . وهو الوحيد بين زعماء جبل لبنان وجواره الذي ترجم له في كتب الطبقات في عصر المماليك ، على ما يتبيّن .

واستمرّ آل بحتر ، ابتداء بعهد ناصر الدين الحسين ، يقومون بخدمة الدولة خير قيام . واشتركوا مراراً في ردّ غارات الفرنجة (ومعظمها غارات «حراميّة» ، أي قراصنة) عن بيروت وصيدا ، وكذلك في مهمّات عسكرية أخرى في مناطق مختلفة من الشام . وفي عام ١٤٢٥ م اشترك آل بحتر –ومنهم المؤرّخ صالح بن يحيى ذاته– في فتوح قبرس وفرض سيطرة دولة المماليك على مملكة الفرنجة هناك . وقد بقيت مملكة الفرنجة في قبرس تحت سيطرة المماليك حتى احتلال البنادقة للجزيرة عام ١٤٨٩ م .

٥

وظهرت المنافسة في تلك الأثناء بين آل بحتر ، من امراء الغرب ، و«أولاد الأعمى» امراء التركمان في كسروان . ففي عام ١٣٦٥ م أغار فرنجة قبرس على ثغر الاسكندرية في مصر ، وأعملوا فيه القتل والنهب . فبدأت دولة المماليك تستعدّ للردّ على هذه الغارة . وهمّ نائب السلطنة في دمشق ، وهو آنذاك الأمير سيف الدين بَيْدَمُر الخوارزمي (١٣٦٠–١٣٨٦ م) الى اتّخاذ التدابير اللّازمة في بيروت لبناء «الحمّالات والشواني» (أي السفن الحربية) هناك لهذه الغاية . وشدّد «الدرك» على بيروت ، فألزم أمراء الغرب بالسكنى فيها «والركوب ليلاً نهاراً ، فوجدوا بذلك مشقّة كبيرة» (صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت... ، ص ١٧٩) . وربّما تلكّأ آل بحتر في القيام بواجباتهم العسكرية في تلك الظروف الاستثنائية ، فتقدّم «أولاد الأعمى» بعرض على بيدمر الخوارزمي بأن يقدّموا له «ألف رجل معدّة تدخل الى قبرس» لقاء تحويل اقطاعات امراء الغرب اليهم . وقبل بيدمر بهذا العرض ، وأخذ اقطاعات آل بحتر منهم عام ١٣٦٦ م وحوّلها الى امراء التركمان في كسروان . فهرع كبار امراء آل بحتر آنذاك الى القاهرة طالبين المساعدة من ابن فضل الله العمري الشهير (صاحب كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» المذكور آنفاً)[19] ، وهو في ذلك الوقت كاتب السرّ (اي رئيس ديوان الانشاء والمكاتبات) في مصر . وكان «المتكلّم» عن السلطان آنذاك الأمير يِلْبُغا الخاصّكي الناصري (توفّي ١٣٦٦ م) . فتوسّط ابن فضل الله العمري لديه بشأن آل بحتر قائلاً : «هؤلاء من غرس الملوك الأوائل[20] ، ان كان فيهم نفع فقد استحقّوا به

١٩ . انظر ص ١٣٢ .

٢٠ . اي الملوك الزنكية والايوبية ، وهم مؤسسو الدولة التي أصبحت فيما بعد للمماليك . انظر الفصل السابق .

إقطاعهم ، وان لم يكن فيهم نفع فحاشا الله أن يكون معروف أسدوه الملوك الاوائل يبطل في أيام الأمير الكبير» (المصدر ذاته ، ص ١٧٩) .

وقبل الأمير يلبغا وساطة كاتب السرّ ، وأمر بتمزيق «مثالات التركمان» واعادة اقطاعات آل بحتر إليهم . ثم ظهر من تركمان كسروان عجز في القيام بواجباتهم في بيروت ، فنقم بيدمر الخوارزمي عليهم ، ممّا جعلهم «يهربون» في حينه «الى الروم» (اي الى الدويلات التركمانية القائمة آنذاك في برّ الاناضول ، ومنها امارة بني عثمان التي اصبحت فيما بعد السلطنة العثمانية) .

وما ان جاء عام ١٣٨٢ م حتى انتهت «دولة الاتراك» من المماليك «البحرية» ، وتسلّم السلطنة الملك الظاهر برقوق ، وهو أوّل السلاطين «الجراكسة» ، او«البرجية» ، كما سبق.[21] وانقسمت الفئات السياسية والعسكرية في مصر والشام بين مؤيّد للسلطان الجديد ، ومعارض له . فكان آل بحتر في الغرب في جملة الفئات المؤيدة ، و«اولاد الاعمى» في كسروان في جملة الفئات المعارضة . وقامت ثورة على برقوق عام ١٣٨٩ م ، فخلع من السلطنة وسجن في قلعة الكرك ، وهي قاعدة «مملكة» الكرك ، من الممالك الشامية . فاستغلّ علي بن الأعمى ، زعيم تركمان كسروان ، هذا الظرف المؤاتي له وأغار على الغرب وبيروت ، حيث نهب ممتلكات آل بحتر وبضائعهم التجارية من «زيت وصابون وقماش» ، وقتل أربعين نفراً من أتباعهم . وكان السلطان برقوق قد خرج في تلك الأثناء من سجن الكرك ، وحضر لمحاصرة اخصامه في دمشق . فالتفّ حوله مؤيّدوه من زعماء العشائر في الشام ، ومنهم آل بحتر الذين وافوا السلطان بـ«رصاص منجنيق كان في بيروت» وبـ«النجّارين الذين ببيروت» لمساعدته في صناعة ما يلزم من الابراج الخشبية والسلالم اللازمة للحصار .

٢١ . انظر ص ١٢٥–١٢٧ .

وتمّ النصر لبرقوق في واقعة شقحب، خارج دمشق، عام ١٣٩٠ م، فقضى على أخصامه، وعاد الى مصر. وهاجم مؤيّدوه من عشائر البقاع «ازواق» التركمان في كسروان، حيث قتلوا الامير علي بن الاعمى، وألقوا القبض على أخيه عمر مدّة من الزمن ثم اطلقوا سراحه (انظر المصدر ذاته، ص ٢١٤–٢١٥). ولم يعد لـ«اولاد الاعمى» ذكر بعد ذلك حتى آخر عهد المماليك. امّا آل بحتر، فنالوا الجزاء الحسن على ولائهم لبرقوق، وصفت لهم الزعامة على الغرب منذ ذلك الوقت، وحتى نهاية الدولة «البرجية». وابتداءً بالقرن الميلادي الخامس عشر تسلّم اثنان من امراء آل بحتر على الأقلّ—وهما عزّ الدين صدقة في عهد الاشرف برسباي، وجمال الدين حِجى الثالث (المدعو «المتأخّر») في عهد الاشرف قانصوه الغوري—ولاية بيروت من الدولة، واحياناً ولاية صيدا بالاضافة الى بيروت.

وبرز في تلك الاثناء، من بين ابناء الأسرة البحترية، الامير جمال الدين عبد الله الشهير بـ«السيّد عبد الله التنوخي» (توفّي ١٤٧٩ م). وكان رجلاً ضالعاً في الدين، درس العلوم الفقهيّة على مختلف مذاهب السنّة، وتعمّق في قراءة الكتب الدرزية وتفسيرها. فذاع صيته بين ابناء طائفته، واصبح له تلاميذ وأتباع في مختلف المناطق الدرزية، ولا سيّما في الغرب والشوف. والواضح ان «السيّد» عبد الله كان رائداً لنهضة دينية بين الدروز، وأنّه أعاد تنظيم الطائفة بعد فترة من التضعضع والانحلال، ووحّد صفوفها من جديد. فتسلّم تلاميذه الزعامة الدينية للطائفة من بعده، وأحسنوا تدبير شؤونها (انظر سيرته في تاريخ ابن سباط، مخطوطة الجامعة الأميركية في بيروت، ص ٣٨٥ – ٤٠٦).

٦

ولم يكن آل بحتر وحدهم أصحاب الزعامة في المناطق الدرزية من جبل لبنان في عهد المماليك. وقد مرّ ذكر منافسيهم في الغرب من آل أبي الجيش في عرامون. ويبدو أن هؤلاء «دثروا وخربت مساكنهم» في أوائل عهد السلاطين الجراكسة (انظر صالح بن يحيى، ص ٩٤)، وتحوّل اقطاعهم الى آل بحتر (المصدر ذاته، ص ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٨). وكان آل أبي الجيش «قد فرغوا» في زمن صالح بن يحيى الذي وضع تاريخه عام ١٤٣٧ م (انظر المصدر ذاته، ص ١٩٨، ٧٤). وكان منهم أمير اسمه رسلان (انظر المصدر ذاته، ص ١٨٠، ٢١٥)، فنسب بعض المؤرّخين المتأخرين امراء الشويفات من بني أرسلان اليهم (انظر طنوس الشدياق، أخبار الأعيان....، ص ٦٦٨ وما بعدها). ولعلّ آل ارسلان الذين اشتهروا بهذا الاسم في العهد العثماني كانوا في الاصل من فروع آل بحتر. وممّا يشير الى ذلك ان «العمروسية» والقرى المجاورة لها التي عرفت فيما بعد بـ«الشويفات» (اي «المرتفعات الصغيرة»، او «التلال») كانت في عهد الفرنجة والمماليك داخلة في جملة أملاك آل بحتر واقطاعاتهم، كما يتّضح من مضمون المناشير وغيرها من الوثائق الوارد نصّها في تاريخ صالح بن يحيى. وكان هناك في الغرب، بالاضافة الى بني بحتر وبني أبي الجيش، امراء رمطون، قرب عبيه، من بني غلّاب. ورمطون اليوم من القرى الدارسة. وقد برز من امرائها في عهد المماليك «البحرية» الأمير علم الدين سليمان بن غلّاب الذي تسلّم «امارة خمسة» من الملك الناصر محمد عام ١٣١٤ م. ثم تزاوج آل غلّاب وآل بحتر، فأصبحوا يعتبرون اسرة واحدة (انظر تاريخ ابن سباط، ص ٣٧٥–٣٧٧).

أمّا زعماء الدروز في الشوف، فكان منهم «بنو العدس» و«بنو

السويزاني » قائمين على حراسة « ميناء الدامور » في عهد الناصر محمد . (صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ... ، ص ٩٥) . ومن الواضح ان « بني السويزاني » هم الاسرة التي اطلق اسمها فيما بعد على « الشوف السويجاني » ، وهو منطقة المختارة وعمّاطور وباتر ونيحا من « الشوف » . ومن زعماء الشوف الأفراد الواردة أسمائهم في تاريخ صالح بن يحيى « الشيخ العلم » (وهو علم الدين علم بن سابق بن حسّان بن طارق « من اصول بني عبد الله » . اي من انسباء آل بحتر) من كفرفاقود ، الذي « رزق دين ودنيا واسعة وحرمة وافرة » في أواخر العهد الأيوبي واوائل عهد المماليك (انظر المصدر ذاته ، ص ٥٧ ، ٦٨ ، ١٦٧ – ١٧٥)[٢٢] . وقد نشأ « الشيخ العلم » في طردلا ، وتزوّج من كفرفاقود ، ورحل اليها . وكان « الامير والمقدّم » على « الاشواف » في زمانه قريبه فارس الدين معضاد بن عزّ الدين فضائل بن معضاد ، ومقامه كذلك في كفرفاقود (المصدر ذاته ، ص ٥٧ ، ١٨٥) . وفي أواخر دولة المماليك « البرجية » ظهر بنو معن في منطقة الشوف ،[٢٣] وقاعدتهم في دير القمر . وأوّل من ذكر منهم في كتب الاخبار « الامير فخر الدين عثمان بن الحاج يونس بن معن » الذي سعى في بناء جامع دير القمر عام ١٤٩٣ م (كما يستخلص من النقش الموجود في أسفل المئذنة من هذا الجامع) وتوفّي عام ١٥٠٦ م (انظر تاريخ ابن سباط ، ص ٤٢١) . وكان فخر الدين عثمان يعرف في زمانه بـ « أمير الاشواف » . وتسلّم هذه « الامارة » بعده « الامير يونس ابن معن » ، ولعلّه ابنه ، فتوفّي يونس هذا شاباً عام ١٥١١ م (المصدر ذاته ، ص ٤٢٣ م) ، وخلفه في « امارة » الشوف ابنه الأمير قرقماس

٢٢ . « الشيخ العلم » هذا من اجداد السيّد جمال الدين عبد الله التنوخي المذكور آنفاً ، وذلك عن طريق ابنته ، وهي جدّة جدّ جمال الدين عبد الله المذكور ، على حدّ قول ابن سباط . والملاحظ ان معظم الامراء البحتريين من سلالة بنت « الشيخ العلم » كانوا من اهل الدين .

٢٣ . قابل مع ص ١٠٦ ، ١٥٣ .

(او قرقماز) بن يونس (قابل المصدر ذاته ، ص ٣٧٣ ، والدويهي ، تاريخ الأزمنة ، بيروت ، ١٩٥٢ ، ص ٢٣٦) ، وأمير آخر من آل معن اسمه علم الدين سليمان (انظر تاريخ ابن سباط ، ص ٣٧٣ – ٣٧٤) . وكان هذان الأميران يقومان معاً بـ « امارة شوف صيدا » في الأعوام الأخيرة من عهد المماليك .

٧

أمّا في المناطق المجاورة لجبل لبنان من الشرق والجنوب ، فكانت هناك عدّة أسر من رؤساء العشائر وزعماء القرى في ذلك الوقت . وقد سبق وذكرنا منهم « بني ثعلبة » في مشغرا ، و« بني صبح » في جديتا ، من قرى البقاع . ومن زعماء البقاع الافراد الوارد ذكرهم في تاريخ صالح بن يحيى « ملّي ، مقدّم جبّ جنّين » في اواخر الدولة « البحرية » واوائل الدولة « البرجية » (صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ... ، ص ١٩٤) .

وفي زمن الملك الظاهر برقوق ، اوّل السلاطين « البرجية » ، تعاظم امر « بني الحنش » في تلك الجهات . وكان رئيسهم في ذلك الوقت ، وهو علاء الدين علي بن الحنش ، قد انتصر لبرقوق ضد أخصامه عام ١٣٨٩ – ١٣٩٠ م ، وأغار على تركمان كسروان ، وقتل زعيمهم علي بن الأعمى ، وقد مرّ ذكر هذه الحادثة[٢٤] . فكافأ برقوق علاء الدين ابن الحنش بـ « امرية طبلخاناه » (المصدر ذاته ، ص ٢١٥ ، ٢١٦) . وكان برقوق قد عيّن قبل ذلك والد علاء الدين علي نائباً على بعلبك ، فقتله أخصام السلطان عام ١٣٩٠ م ، ثم قتلوا ابنه بعد ذلك .[٢٥]

٢٤ . انظر ص ١٤٨ .

٢٥ . انظر تاريخ ابن صصره الدمشقي :
Ibn Ṣaṣra, *A chronicle of Damascus, 1388–1397*, edited and translated by William Brinner (Berkeley, 1963), II, pp. 7, 28, 57–59.

وضعف شأن بني الحنش بعد مقتل الأمير علاء الدين علي ووالده في ذلك العام. وكانت قاعدتهم، على ما يظهر، في قرية مشغرا. فظهرت على الاثر زعامة جديدة في البقاع، هي زعامة بني الحمرا، من صغبين— وهي قرية قريبة من مشغرا، الى الشمال منها. وكان بنو الحمرا، مثل بني الحنش، رؤساء عشائر من السنّة. وأوّل من اشتهر منهم سيف الدين ابو بكر بن الحمرا المعروف بـ«شعث»، وهو أيضاً أول من تسلّم الاقطاع من أسرته بجهات بيروت، «والغالب عليها من جهات امراء الغرب» (انظر صالح بن يحيى، تاريخ بيروت...، ص ٢٤٧—٢٤٨). وكان ذلك بعد عام ٨١٠ هـ/١٤٠٧—١٤٠٨ م. واشترك «شعث» هذا في فتوح المماليك لقبرس عام ١٤٢٥ م، ثم قُتل عقيب ذلك في القاهرة. فنهض أخوه المعروف بـ«امير حاج»، وقام بثورة ضد الدولة في البقاع، وأغار على بيروت، وهاجم دار الامير عزّ الدين صدقة من آل بحتر، وهو «المتولّي» على ولاية بيروت في ذلك الوقت.[26] وقتل أمير حاج بن الحمرا فيما بعد على يد أحد امراء بني الحنش، وهو علاء الدين علي الثاني—ولعلّه حفيد علاء الدين علي بن حنش الأوّل (المصدر ذاته، ٢٤٨—٢٤٩).

وكان بنو الحمرا في عهد شعث قد اشتروا كنيسة خربة قرب «البرج الكبير»، عند السور الشرقي من البلدة، وبنوا من حجارتها «مدرسة»[27] عرفت باسمهم (المصدر ذاته، ص ١٠٦). وربّما كان من اقطاعهم بعض القرى والمزارع في رأس بيروت، الى الغرب من البلدة. وما زال زقاق الحمرا (وهو حالياً «شارع الحمرا» في رأس بيروت) يحمل اسم هذه الأسرة البقاعية الى اليوم. ولعلّ بنو الحمرا استقدموا بعض الفلاحين

٢٦. انظر ص ١٤٨.

٢٧. «المدرسة» في عرف ذلك الزمن كانت مركزا للعلوم الدينية والفقهية، وفي كثير من الأحيان «زاوية» تستعمل أيضاً للعبادة الصوفيّة.

من سنّة البقاع ووادي التيم وأسكنوهم بين الدروز في الضواحي الغربية من بيروت، فنشأت بالتالي أسر من السنّة هناك ما زالت تحمل اسماء القرى البقاعية والتيمانية التي جاءت منها في الأصل.

وما كاد بنو الحنش يقضون على سطوة بني الحمرا في البقاع، بعد مقتل «امير حاج»، حتى عادت لهم السيطرة على كامل المنطقة دون منازع. وقد برز منهم في اواخر القرن الخامس عشر الامير عسّاف بن الحنش الذي تعيّن «متولّياً» على ولايتي بيروت وصيدا، ثم وجد مقتولاً في أحد أزقّة دمشق عام ١٤٩٦ م (ابن طولون، مفاكهة الخلّان في تاريخ حوادث الزمان، القاهرة، ١٩٦٢—١٩٦٤ م، ج ١، ص ١٦٧—١٦٨). وخلف الأمير عسّاف في «مقدّمية» البقاع الأمير شهاب الدين أحمد بن الحنش (توفّي عام ١٤٩٨)، ومن بعده ابنه ناصر الدين محمد بن الحنش (١٤٩٨ — ١٥١٨). وكان هذا الأخير تارة يتعاون مع نوّاب السلطنة في دمشق، وتارة يتمرّد عليهم، فيقوم هؤلاء بحملات تأديبية ضدّه. وتعاون فخر الدين عثمان بن معن، أمير «شوف صيدا» المذكور آنفاً، مع ناصر الدين بن الحنش، واشترك معه في العصيان ضد الدولة عام ١٥٠٥ م، فقبض عليه وسجن في دمشق فترة قصيرة. أما الأمير جمال الدين حجى الثالث (توفّي ١٥١٩)، وهو في ذلك الوقت «المتولّي» على بيروت من آل بحتر، فكان من ألدّ أعدائه، وكذلك المدعو عبد الساتر بن بشارة، وهو آنذاك كبير زعماء الشيعة في جبل عامل (اي جبل عاملة). وفي فصل الشتاء من عام ١٥٠٣—١٥٠٤ م قام ابن الحنش بهجوم واسع النطاق على بلاد ابن بشاره في جبل عامل، في محاولة لمدّ سيطرته على تلك المنطقة، فباءت محاولته بالفشل. ثم أغار في العام التالي على بيروت، ونهب رجاله مخازن «المتولّي» جمال الدين حجى بحتر من «الصابون»—ولعلّه الصابون المعدّ للتصدير. فأصاب «المتولّي» الاذى الكثير من ذلك.

وحاول نوّاب السلطنة في دمشق بعد ذلك التقرّب من ناصر الدين محمد بن الحنش، فاعترفوا بسطوته على كامل البقاع، وعيّنوه عام ١٥١٢ م «والياً» او«متولّياً» على صيدا. واستمرّت هذه العلاقات الحسنة بين ابن الحنش و«دولة الجراكسة» حتى نهاية عهدها عام ١٥١٦.

٨

وكانت المناطق المارونية في شمال لبنان، كما ذكرنا، داخلة في تلك الاثناء ضمن «مملكة طرابلس». ويبدو ان نوّاب السلطنة هناك أحكموا ضبطها، على الأقلّ بعد عام ١٣٠٥ م، ونجحوا في اخضاع رؤساء العشائر ومقدّمي القرى فيها لحكمهم. وضعفت العلاقة بين الكنيسة المارونية والكنيسة اللاتينية بطبيعة الحال بعد خروج الفرنجة نهائياً من بلاد الشام، ولم يعد بإمكان بطاركة الموارنة أن يحصلوا على «التثبيت» من أحبار رومية، كما كانت العادة في عهد الفرنجة. فتضعضعت بالتالي أحوال الطائفة، وتضاءل شأنها بالنسبة الى غيرها من الطوائف المسيحية في الشام. وأخذ اليعاقبة، بشكل خاص، يقومون بمحاولات لاجتذاب ما أمكن من ابنائها—ومنهم بعض الكهنة—الى جانبهم، ممّا اقلق البطاركة الموارنة وجعلهم يشعرون بالخطر.

واستمرّ أحبار رومية في اهتمامهم بأمر الموارنة على صعوبة الاتّصال المستمرّ بهم بعد عام ١٢٩١ م، فأوكلوا الى الرهبان «الفرنسيسكان» Francescani المعروفين بـ«الاخوة الصغار» Frati Minori مهمّة السهر على شؤون كنيستهم. وكانت رهبنة «الإخوة الصغار» قد تأسّست في ايطاليا في غضون القرن الثالث عشر على يد فرنسيس الأسّيسي Francesco d'Assisi الذي طوّب قدّيساً فيما بعد. وتخصّص أتباع القدّيس فرنسيس الأسّيسي بأعمال التبشير، وقدموا بلاد المشرق منذ أوّل

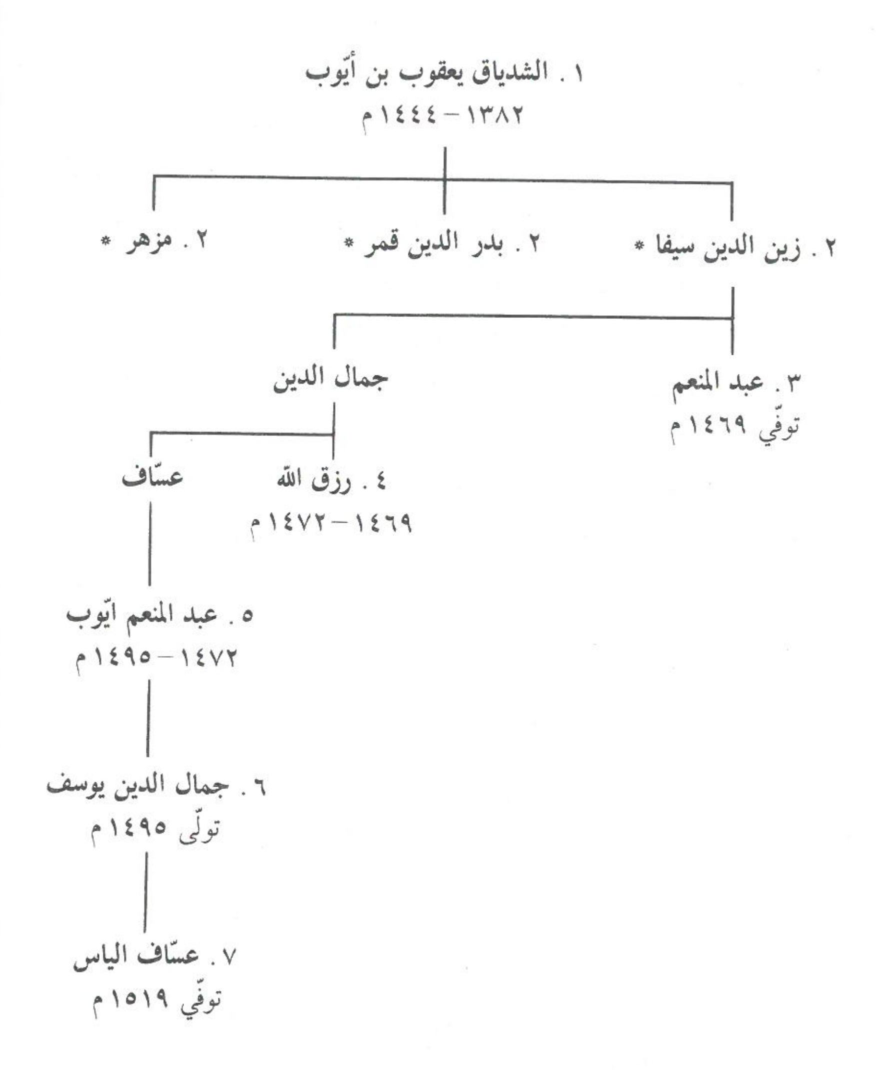
نشأتهم، واستقرّوا في بيروت في دير خاص بهم تابع لـ«كنيسة المخلّص» (حيث يقوم جامع الأمير منصور بن عسّاف اليوم). فقتل عدد منهم هناك عندما أخذ المماليك بيروت من الفرنجة، وأصبح ديرهم بعد ذلك خراباً، وكذلك كنيستهم. والجدير بالذكر ان الكنيسة الخربة التي اشتراها بنو الحمرا في اوائل القرن الخامس عشر—كما سبق—كانت كنيسة الفرنسيسكان هذه بالذات.[٢٨] وهذا ما يؤكده صالح بن يحيى في تاريخه. وكان الفرنسيسكان في بيروت تابعين منذ البدء للارسالية الفرنسيسكانية في «الارض المقدّسة» Terra Santa، ومركزها في القدس. ولم تمض فترة من الزمن حتى أخذ المماليك يسمحون للمرسلين الفرنسيسكان بالعودة الى «الأرض المقدّسة»—وذلك، ولا شكّ، تمشّياً مع سياسة السلطنة آنذاك في تقوية علاقاتها التجارية مع المدن الايطالية. فرجع بعضهم الى بيروت، وأنشأوا ديراً جديداً لهم هناك قرب السور الغربي للمدينة، حيث تقع كنيسة «الكبّوشية» اليوم.[٢٩] وما ان عاد «الاخوة الصغار» الى بيروت حتى بدأوا يقيمون الاتصال مع بطاركة الموارنة—ومقرّهم آنذاك في قرية ميفوق، من بلاد البترون—[٣٠] ويقدّمون لهم المساعدة والارشاد كلّما اقتضت الحاجة.

٢٨. انظر ص ١٥٢.

٢٩. «الكبّوشيّون» Capuccini هم اتباع حركة اصلاحية في الرهبنة الفرنسيسكانية ظهرت عام ١٥٢٥ م. وقد عرفوا بهذا الاسم نسبة الى القلنسوة المميزة capuccino التي يرتدونها.

٣٠. انظر ص ٩٤.

المقدّمون الموارنة في بشرّي
في عهد المماليك



* تولّوا المقدمية معاً بعد وفاة والدهم .

٩

وأغار فرنجة قبرس عام ١٣٦٥ م على ثغر الاسكندرية في مصر ، كما سبق ، [٣١] وقتلوا ما قتلوا من المسلمين هناك . فأثارت غارتهم هذه نقمة شديدة ضدّ النصارى في مصر والشام ، وتعرّض هؤلاء على الأثر لموجة عارمة من الاضطهاد دامت سنتين على الأقلّ . ولم ينج الموارنة من هذا الاضطهاد الذي لحق بهم كما لحق بغيرهم من الطوائف المسيحية المحلّية . وفي عام ١٣٦٧ م قبض على بطريركهم المدعو جبرائيل الحجولاوي ، وحوكم في طرابلس بتهمة الزنا (على ما يبدو) ، وأعدم حرقاً خارج جامع طيلان ، في الضاحية الجنوبية من المدينة . وقد قال جبرائيل ابن القلاعي في ذلك (ابن القلاعي ، حروب المقدّمين... ، ص ٦٠) :

أربعين نصراني شهدوا فيه   انه كفر بدين هو فيه :
قالوا عنه شي ما هو فيه   عن المطالب والنسوان .

والظاهر ان الموارنة استمرّوا على أسوأ حال حتى آخر دولة المماليك «البحرية» . ويعزو ابن القلاعي سوء حالهم في تلك الفترة الى شهادة الزور التي ادّاها بعض أبناء الطائفة عام ١٣٦٧ م ضد بطريركهم (المصدر ذاته ، ص ٦٠) :

ولأجله غضب الله اشعل   في السواحل والجبال :
اسلمهم بيد اسماعيل ، [٣٢]   وزنوا جوالي في ديوان . [٣٣]

---

٣١ . انظر ص ١٤٦ .

٣٢ . اي المسلمين ، وهي تسمية مأخوذة عن اللغات الفرنجية ، نسبة الى اسماعيل بن ابراهيم ، جد العرب العدنانية .

٣٣ . الجوالي هي الضرائب التي لا ينص عليها الشرع الاسلامي ، وهي من نوع «المكوس» . و «الديوان» المذكور هو ديوان القاضي في طرابلس ، حيث كان يتمّ استيفاء الاموال الاميرية ، كما يتّضح من تاريخ الدويهي .

١٠

وعادت اوضاع الموارنة الى التحسّن بعد زوال دولة المماليك «البحرية». ففي عام ١٣٨٢ م—وهو العام ذاته الذي تسلطن فيه الملك الظاهر برقوق، رائد الدولة «البرجية»—تسلّم «المقدّمية» في بلدة بشرّي رجل اسمه يعقوب بن أيوب. وما لبث يعقوب هذا ان فرض سيطرته على كامل جبّة بشرّي، وأصبح أقوى زعماء الموارنة في المملكة الطرابلسية. وربّما كان «المقدّم» يعقوب من الزعماء المحليّين في الشام الذين انتصروا للظاهر برقوق عندما خلعه اخصامه من الحكم عام ١٣٨٩—١٣٩٠ م. فكوفيء على موقفه هذا بعد عودة برقوق الى السلطنة، وجعل «كاشفاً» (اي جابياً للضرائب) على جبّة بشرّي، فأحسن تدبيرها. وارتاح بطاركة الموارنة الى حسن سياسته، فخلعوا عليه رتبة «الشدياق» hypodiakonos، وهي رتبة كهنوتيّة ادنى من رتبة الشمّاس diakonos، وكثيراً ما كانت تعطى بصفة فخريّة للزعماء من العلمانيين لتوثيق العلاقة بينهم وبين الكنيسة. ولعلّ «المقدّم» يعقوب هو «الشدياق الكاشف» المذكور في هذه الأبيات من زجليه ابن القلاعي (المصدر ذاته، ص ٤٤—٤٥):

واقامـــوا مقـــدّم فـــي بشري	عـلى الديـــاري والنهـــري،[٣٤]
ضـــد الطغيـــان[٣٥] والمصري[٣٦]	يقيم حرّاس ويكون سهران....

---

٣٤ . لعلّ المعني هنا هو «ديار» قرى جبّة بشري من جهة، وما يتبعها من المزارع في وادي «نهر» قاديشا من جهة اخرى.

٣٥ . معنى «الطغيان» هنا الخروج عن الايمان الصحيح، وهو في مفهوم ابن القلاعي ايمان الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

٣٦ . أي دولة المماليك، والواضح هنا اختلاط الامر على ابن القلاعي، لان «الكاشف» كان صاحب وظيفة في الدولة المذكورة.

١٣ . جبّة بشرّي في عهد المماليك

من قرن حردين الى قرن أيطو[37]	يكون حاكم ونافذ خطه ،
وبيته واصله يتوطّوا	ان زاغ عن شرف الايمان ....
حاكم بدبّوس دنياني	وبعصاة شدياق روحاني
طايع الاسقف وسلطاني[38]	بِشَرَف الكنيسة والايمان .
اقتبل منهم اسم الكاشف ،	وسيف العزّ عليه حالف ،
وفي حياته ليس خالف ،	ولا انجهر على أيّامه طغيان .

وتصرّ المصادر المارونية على أن الملك الظاهر برقوق مرّ في جبّة بشرّي « بزيّ درويش » (اي بلباس فقير متصوّف) بعد هربه من سجن الكرك ، فاستضافه هناك المقدّم يعقوب بن أيّوب . وكتب له السلطان على الأثر مرسوماً بالمقدّمية على « صفحة من نحاس » . ثم نزل السلطان الى وادي قاديشا ، في أسفل الجبّة ، فاستضافه هناك « القس بطرس » ، رئيس دير سيّدة قنّوبين هناك (والدير هذا يرجع عهده الى القرن الميلادي الرابع ، واسمه في العربية تحريف للفظة اليونانية Koinobion ، بمعنى « الحياة المشتركة » ، او « الدير ») . فحرّر السلطان « صفحة » للقس بطرس « بأن ديره يكون معاف ، وان تكون له الرئاسة على كافة الأديرة بتلك الجهات » (الدويهي ، تاريخ الأزمنة ... ، ص ١٩٠) . ويستفاد من زجلية ابن القلاعي بأن السلطان برقوق اوقف أموالاً على دير قنّوبين وسائر أديرة وادي قاديشا بعد عودته الى السلطنة . ولعلّ الذي أوقف هذه الأموال هو أحد نوّاب السلطنة او كبار الأمراء المماليك في طرابلس في ذلك الوقت . ويؤكّد ابن القلاعي ان هذه الوقفية كانت السبب الأساسي في

٣٧ . تمتدّ جبّة بشرّي من قرية حردين في الجنوب الى قرية ايطو في الشمال ، وتشرف على كل من القريتين قمّة جبلية على شكل « القرن » . والتشابه بين « القرنين » (اي « قرن » حردين و « قرن » ايطو) يلفت النظر في تلك المنطقة .

٣٨ . اي السلطان ، او الدولة .

ازدهار وادي قاديشا في ذلك الزمن ، حيث قال (ابن القلاعي ، حروب المقدّمين ... ، ص ٤٣) :

وادي على نهر قاديشا :	سلطان عابر يتمشّى ،
عزمه راهب يتعشّى ،	تعجّب من حيوة الرهبان .
أعطاه الله في تلك الحين ،	رجع لكرسيه مثل السلاطين ،
بعث مال وابني قنوبين	تذكار الى احسان الرهبان .
في ذا السبب تعمر الوادي	وعملوا صلح مع الاعادي ...

ومهما تكن حقيقة الأمر ، فمن الواضح ان علاقة وثيقة قامت في عهد السلطان برقوق بين الدولة وموارنة جبّة بشري ، وعلى رأسهم المقدّم يعقوب بن أيّوب ، ممّا جعل هذه المنطقة تتمتّع في عهد المماليك « البرجية » بوضع مميّز . وتوفّي المقدّم يعقوب عام ١٤٤٤ م ، وتسلّم مقدّمية جبّة بشرّي من بعده اولاده وأحفاده ، فبقوا على علاقة ممتازة مع نوّاب السلطنة في طرابلس . وكان الكثيرون منهم يتسمّون باسماء المسلمين ويتلقّبون بألقابهم ، على الرغم من بقاء جميعهم على النصرانية . وقد استمرّت « مقدّمية » بشرّي في سلالة يعقوب بن أيّوب عن طريق الذكور ، ثم عن طريق الإناث ، حتى قضي عليها اخيراً عام ١٦٢١ م.[39]

وكانت دولة بني عثمان قد ظهرت في برّ الأناضول في غضون القرن الرابع عشر ، وبدأت تتوسّع بسرعة على حساب دولة الروم في القسطنطينية . فأخذ ملوك الروم يستنجدون بأحبار رومية وبالدول الكاثوليكية في أوروبا الغربية ضد الخطر الجديد . وزادت طلبات النجدة هذه عندما بدأ العثمانيّون يهدّدون القسطنطينية بالذات في عهد السلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١ م) ، فطلبت رومية في مقابل النجدة اعتراف الروم بسلطة أحبارها كرؤساء على الكنيسة المسيحية « المسكونيّة » الجامعة . ولهذا السبب

٣٩ . انظر مقال المؤلف "The *Muqaddams* of Bšarrī..." .

دعا البابا اوجانيوس الرابع Eugenius IV (١٤٣١ – ١٤٤٧ م) الى مجمع كنسي عام يعقد في مدينة فلورنسا، في ايطاليا، عام ١٤٣٩ م ويحضره ملك الروم وبطريرك القسطنطينية، وممثّلون عن سائر البيع المسيحية في الشرق. وكان رئيس «الاخوة الصغار» في بيروت، وهو آنذاك المدعو الاخ جوان Fra Juan، في جملة الذين تسلّموا الدعوة لحضور هذا المجمع. فطلب منه البطريرك الماروني يوحنا الجاجي (١٤٠٤–١٤٤٥ م) ان يقوم بتمثيله هناك، وان يؤكّد للحبر الأعظم بالمناسبة بقاء الموارنة على اتحادهم مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وان يعود اليه من المجمع بالتثبيت.

واستمرّ مجمع فلورنسا في الانعقاد مدّة خمس سنوات، ولم يسفر عن ايّة نتيجة ايجابية بالنسبة الى عودة الاتحاد بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة رومية. ورجع الأخ جوان الى بلاد الشام في أواخر عام ١٤٣٩ م، بعد حضور الجلسات الافتتاحية للمجمع، حاملاً معه رسالة التثبيت من البابا اوجانيوس الرابع الى البطريرك الماروني، مع «درع الرئاسة وتاج وبدلة جميلة» (الدويهي، تاريخ الازمنة، ص ٢٠٥). وعادت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، بعد فشل مجمع فلورنسا، الى الاهتمام الجدّي بالكنيسة المارونية، وقد تبيّن لها بما لا يقبل الشكّ ثبات هذه الكنيسة وحدها من بين الكنائس الشرقية في طاعة رومية. وكان احبار رومية حتى ذلك الوقت قد درجوا على مسايرة الروم، على ما يظهر، بحصر لقب «بطريرك أنطاكية» في بطريرك الملكيّة الموالي للقسطنطينية في الشام. فلمّا يئسوا من أمر كنيسة القسطنطينيّة بعد مجمع فلورنسا، بداوا يطلقون لقب «بطريرك انطاكية» Patriarcha Antiochiensis على بطاركة الموارنة، وقد كانوا يلقّبونهم في الأصل «بطريرك الموارنة» Patriarcha Maronitarum، دون أن يذكروا اسم الكرسي.
وشدّد أحبار رومية على «الاخوة الصغار» بعد مجمع فلورنسا بضرورة

العناية الفائقة بالموارنة. فعيّن هؤلاء عام ١٤٥٠ مرشداً خاصاً للطائفة المارونية من بينهم، اسمه الاخ غريفون Fra Gryphon. فاحسن هذا السهر على شؤون الموارنة، واستمرّ مقيماً عندهم حتى استبدل عام ١٤٧٥ بزميل له اسمه الاخ بطرس النابوليتاني Fra Pietro di Napoli[٤٠].

١١

وارتبكت دولة المماليك، على ما قيل، في امر انعقاد مجمع فلورنسا عام ١٤٣٩، وتوهّمت ان «ملك الروم ما دخل بلاد الفرنج، ولا صار المجمع، الاّ ليكون مشدّهم واحد لاستخلاص البلاد المقدّسة من سلطان مصر». فلما عاد الاخ جوان ومن معه من «الاخوة الصغار» من المجمع، وحطّت بهم السفينة في ميناء طرابلس، ألقي القبض عليهم. ثم أُطلق سراحهم بكفالة من بعض وجهاء الموارنة حتى يقوموا بزيارة البطريرك يوحنا الجاجي في ميفوق، شرط أن يعودوا بعد ذلك الى طرابلس ليتمّ استجوابهم هناك. فذهب الاخ جوان ورفاقه الى ميفوق، واوصلوا رسالة التثبيت البابوي الى البطريرك الماروني، ثم توجّهوا الى بيروت. وارسل نائب السلطنة في طرابلس بطلبهم، فلم يحضروا. فغضب نائب السلطنة من ذلك، و«ارسل نكب الدير» (اي دير ميفوق)، ومسك الرهبان، وقبض على الكفلاء، نهب بيوتهم وأحرقها، وغرّمهم وقتل اناسا منهم، وكانوا من اعيان الطائفة» (الدويهي، تاريخ الازمنة...، ص ٢٠٦).
وتخوّف يوحنا الجاجي بعد هذه الحادثة من البقاء في ميفوق،

٤٠. راجع المصادر المذكورة بهذا الشأن في مقال المؤلّف
"The Maronite church in the Middle Ages and its union with Rome"

فانتقل في العام التالي الى جبّة بشرّي ، « وأخذ السكنى بها تحت حماية المقدّم يعقوب وأولاده » (المصدر ذاته) . واستقر في دير سيدة قنوبين ، في وادي قاديشا . وبقي هذا الدير مقرّ البطاركة الموارنة من ذلك الوقت حتى اواسط القرن التاسع عشر . وتوفيّ يوحنا الجاجي في قنّوبين عام ١٤٤٥ ، فخلفه هناك البطريرك يعقوب الحدثي (١٤٤٥–١٤٥٨ م) ، ثم البطريرك بطرس الحدثي الشهير بـ « ابن حسّان » (١٤٥٨ – ١٤٩٢ م) . وربّما كان هذا الأخير أول بطريرك ماروني تسلّم رسالة من رومية بلقب « بطريرك انطاكية » ، وذلك عام ١٤٦٩ م (انظر نصّ الرسالة في مجموعة « الرسائل المارونية » لطوبيا العنيسي) .

وفي تلك الاثناء قدم الاخ غريفون الى قنوبين ، واخذ يهتم – كما ذكرنا – بشؤون الموارنة من شتّى النواحي ، ويسهر بشكل خاص على ترسيخ الكنيسة المارونية في مذهب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وتقاليدها . وانتقى ثلاثة من الشبّان الموارنة ، وارسلهم الى القدس ليلتحقوا هناك بالرهبنة الفرنسيسكانيّة . وفي عام ١٤٧٠ م أرسل هؤلاء الشبّان الثلاثة الى ايطاليا ليتلقّوا علومهم هناك . وكان من بينهم المدعو جبرائيل ابن القلاعي ، من قرية لِحْفِد ، في بلاد جبيل . فعاد ابن القلاعي هذا الى لبنان عام ١٤٩٣ م ، وعُيِّن أوّل الأمر مرشدا للبطريرك الماروني شمعون ابن حسّان الحدثي (١٤٩٢ – ١٥٢٤ م) في قنّوبين . ثم نقل عام ١٤٩٦ م الى قبرس حيث تسلّم رئاسة الرهبنة الفرنسيسكانيّة . وتعيّن عام ١٥٠٧ م مطرانا مارونياً على قبرس[41] ، فتوفّي في هذا المنصب عام ١٥١٦ م .

٤١ . كانت جاليات من الموارنة تقطن قبرس قبل احتلال الفرنجة للجزيرة بوقت طويل . وقد ازدادت الهجرة المارونيّة الى قبرس عقيب خروج الفرنجة من الشام عام ١٢٩١ ، ثم بعد أخذ البنادقة للجزيرة عام ١٤٨٩ .

١٢

وكانت جبّة بشري في ذلك الوقت اكثر المناطق المارونية ازدهارا ، وذلك بسبب الاستقرار الذي نعمت به تحت حكم المقدّمين من سلالة يعقوب بن أيّوب . فقدم الجبة جماعة من اليعاقبة من مختلف المناطق الشامية ، من كهنة ورهبان وعلمانيّين . وربّما كان بعض هؤلاء اليعاقبة القادمين على جانب من الثراء ، فأخذوا يتملّكون الاديرة والارزاق في المنطقة ، وذلك بتشجيع من المقدّمين . وقد كان هؤلاء يستفيدون ، ولا شك من عمليات البيع والشراء في منطقتهم . وتكاثر اليعاقبة في الجبّة بشكل خاص في عهد المقدّم عبد المنعم أيّوب (١٤٧٢ – ١٤٩٥ م) . وكان هذا المقدم يظهر الميل الشديد لمذهب اليعاقبة ، فسمح لهم ببناء كنيسة قرب منزله في بشرّي ، واحاطهم بكل مظاهر العناية . واخذ جماعة من الموارنة يترددون على كنائس اليعاقبة وأديرتهم ، ويتأثّرون بمذهبهم . ومن هؤلاء من دخل في صفوف كهنوتهم وترقّى الى درجة الاسقفيّة . وقد أصبح واحد من هؤلاء – وهو المدعو نوح البْقوفاني (نسبة الى قرية بْقوفا ، وهي آنذاك من قرى جبّة بشرّي) بطريركا لليعاقبة على الكرسي الانطاكي فيما بعد (١٤٩٣ – ١٥٠٩ م) . والجدير بالذكر هنا ان اليعاقبة كانوا الطائفة الوحيدة بين نصارى الشام التي لم يكن لها علاقة بالخارج ، ولذلك كان المسلمون يأمنون اليهم أكثر من غيرهم . فلما انقطعت العلاقة المباشرة بين الموارنة ورومية بعد خروج الفرنجة من الشام ، ثم انقطع تأثير كنيسة القسطنطينية على الكنيسة الملكية بعد ان أخذ بنو عثمان القسطنطينيّة عام ١٤٥٣ م وقضوا نهائيا على دولة الروم هناك ، قويت مكانة اليعاقبة بين نصارى البلاد ، خصوصا بالنسبة الى ضعف الاخرين . ولعلّ المماليك عمدوا الى تقوية شأن اليعاقبة في الشام ، فاوعزوا الى النصارى الاقباط في مصر – وهم على مذهب واحد مع

١٤ . الكنافات الطائفيّة في لبنان وجواره في عهد المماليك (بعد عام ١٣٠٦ م)

اليعاقبة – الى ارسال بعثات كنسيّة الى الممالك الشاميّة لدعم مركز اليعاقبة فيها . وربّما كان في ذلك ما يفسّر وجود جماعة من الرهبان « الأحباش » (وهم من الأقباط) في « دير مار يعقوب » ، قرب اهدن ، بين عام ١٤٧٠ و ١٤٨٨ م (الدويهي ، تاريخ الأزمنة ، ص ٢١٤ ، ٢١٨) . وربّما كان في سياسة المماليك هذه أيضاً ما يفسّر اصرار المقدّم عبد المنعم ايوب – وهو الممثل لسلطة الدولة في جبة بشري – على دعم اليعاقبة و « الاحباش » في المنطقة ، على الرغم من مقاومة الكنيسة المارونية لهذا الدعم .

ويبدو ان فريقا كبيرا من الموارنة في جبّة بشري لم يأنس لتكاثر اليعاقبة هناك . ولعلّ هؤلاء الموارنة استاؤوا بوجه خاص من استملاك الاثرياء من اليعاقبة للاديرة والاراضي الزراعية في المنطقة . وكانت الكنيسة المارونية في الوقت ذاته – بمساعدة الرهبان الفرنسيسكان من « الاخوة الصغار » – تحاول وضع حد لامتداد النفوذ الديني لليعاقبة و « الاحباش » بين ابناء الطائفة . وكان اشدّ الموارنة استياء من اليعاقبة اهالي اهدن . وقد حصل بينهم وبين الرهبان « الاحباش » في جوارهم نزاع حاد ادى الى تدخل المقدّم عبد المنعم ايوب في الامر . وفي عام ١٤٨٨ م استقدم عبد المنعم جماعة من مسلمي منطقة الضنّية ، المجاورة لجبّة بشرّي ، لمساعدته في حسم النزاع القائم في اهدن لمصلحة « الاحباش » . فتواقع اهالي اهدن مع أهالي الضنية وهزموهم في « مرجة تولا » ، خارج البلدة . وما كاد « الاحباش » يسمعون بهزيمة انصارهم في هذه الواقعة حتى فرّوا هاربين من ناحية اهدن . وخاف سائر اليعاقبة في جبّة بشرّي من النقمة المارونيّة المتزايدة عليهم ، فلم يلبثوا ان نزحوا عن المنطقة – خصوصاً بعد وفاة المقدّم عبد المنعم ١٤٩٥ م . وصفت الجبّة للموارنة بعد ذلك من جديد .

وتسلّم جبرائيل ابن القلاعي – بصفته عضواً في رهبنة « الاخوة

الصغار » – مهمّة « ارشاد » الكنيسة المارونية في تلك الاثناء ، بين عام ١٤٩٣ و ١٤٩٦ م ، ونشط في مقاومة ما تبقى من نفوذ اليعاقبة بين الموارنة بعد هزيمة « الأحباش » في ناحية اهدن . فاصطدم بالمقدّم عبد المنعم ايوب حتى هدده هذا بالقتل (على حدّ زعمه) . وأخذ ابن القلاعي يراسل المنحازين الى المذهب اليعقوبي من الاساقفة والكهنة والزعماء الموارنة ، ويدعوهم الى العودة الى ما اعتبره المذهب الماروني الأصلي الصحيح – وهو مذهب الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة . ووضع زجليته الشهيرة « مديحة على جبل لبنان » كسجلّ تاريخي لما أسماه بـ« عهد مارون في جبل لبنان » (حروب المقدّمين ، ص ٧٢) . وقد صوّر الموارنة في هذه الزجلية على أنهم شعب خاص اصطفاه الله من بين نصارى الشرق للمحافظة على الايمان المسيحي الصحيح في حصنه اللبناني المنيع (حروب المقدّمين . . . ، ص ١٠ – ١١) :

كان ملوك منهم وأبطال — احموا السواحل والاجبال ،
وذكروا عنهم الاجيال ، — وقالوا في جبل الله سكان .
والله كان معهم ساكن ، — ويحمي القرايا والمواطن ،
ويرفع لمن هو متكامن — ويعطيه حكم على الاعوان ،
ويغضب سكان السواحل — يعطون الطاعة عاجل ،
ويأتون في من هو غافل ، — وعاصي يحضر في الليوان . . . .
والبطرك كان له سطوه ، — والحاكم كان له نخوه ،
وكانوا الاثنين اخوه — في العفّة وفي الايمان :
امانه واحدة مجهورة ، — وآيات صادقة منظورة ،
وأسرار وأحكام مستورة — ما يعلم فيها انسان . . . .

وبقي ابن القلاعي مقيماً في دير قنّوبين حتى توفّي عبد المنعم أيوب ، وخلفه في مقدّمية بشرّي ابنه جمال الدين يوسف . وكان المقدّم جمال الدين هذا « مستقيم الديانة » (الدويهي ، تاريخ الازمنة . . . ، ص ٢٢١) ، فتعاون

مع البطريرك شمعون ابن حسّان الحدثي في تصفية ما تبقّى من نفوذ اليعاقبة بين الموارنة . واستمرّ ابن القلاعي ، بعد انتقاله الى قبرس ، وحتى وفاته ، يراسل زعماء الطائفة المارونية ، ويحثّهم على المحافظة على وحدة الصفّ والثبات في طاعة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . فتوطّدت العلاقة بين الموارنة ورومية في زمانه باجماع لم يسبق له مثيل ، وذلك للمرّة الأولى منذ أن بدأ بطاركة الموارنة يتقرّبون من الكنيسة اللاتينية في عهد الفرنجة . وفي عام ١٥١٥ م ، بعث البابا لاون العاشر Leo X (١٥١٣ – ١٥٢١ م) برسالة الى البطريرك شمعون الحدثي يمتدح فيها ولاء الشعب الماروني لرومية ويقول : « نشكر القدر الالهي اذ شاء ، بحلمه العظيم ، ان يبقي عبيده المؤمنين ، من بين الكنائس الشرقية ، مصانين في وسط الكفر والبدع كالوردة بين الاشواك » (انظر الاصل اللاتيني في مجموعة « الرسائل المارونية » لطوبيا العنيسي) .

١٣

وهكذا انتهى عهد المماليك والموارنة في شمال لبنان على اتمّ وفاق مع رومية . وقد توحّدت صفوفهم على يد جبرائيل ابن القلاعي منذ اواخر القرن الخامس عشر ، كما توحّدت صفوف الدروز في « الاشواف » – على الأقلّ من الناحية الدينية – قبل ذلك بقليل على يد السيّد جمال الدين عبد الله التنوخي المذكور آنفاً[٤٢] . ووضع كلّ من الطائفتين مستقرّ ، على وجه العموم ، تبعاً للاستقرار الذي ساد معظم الانحاء الشامية في ظلّ دولة الجراكسة . وقد جاء هذا الاستقرار في نمط العيش في الارياف اللبنانية آنذاك ، بالفعل ، متمّماً لاستقرار مماثل على الاقلّ في اوضاع دمشق وغيرها من المدن الشامية الداخلية ، حيث نشأت في ذلك الوقت بالذات

٤٢ . انظر ص ١٤٨ .

تلك المؤسسات الاجتماعية والتقاليد المحلّية المميّزة التي بقيت قائمة في هذه المدن طوال القرون الثلاثة الاولى من العهد العثماني. والواقع ان الجزء المدوّن والمعروف من تاريخ بلاد الشام في تلك الفترة يكاد ان يقتصر على تاريخ هذه المدن، وعلى تاريخ الريف اللبناني حيث برز دور الموارنة والدروز بعد القرن الرابع عشر بشكل واضح، وبقي طاغياً بعد الفتح العثماني للبلاد على معظم الادوار الباقية.

خاتمة

جمعته مجتهداً فيه على الصحّة.... فمن اراد التذييل... ومن رأى فيما قد جمعته خللاً واصلحه في واجب الاصلاح فأجره على الله عزّ وجلّ كما شرطنا اوّلاً، وهو ان لا يحرّف ولا يبدّل ولا يميل الى غرض....

صالح بن يحيى

ليس هناك ما يحتّم اعتبار الفتح العثماني لبلاد الشام عام ١٥١٦ م حدّاً فاصلاً اكثر من غيره في تاريخها ، وبالتالي في تاريخ لبنان . فالاحداث التاريخية في أي جزء من العالم لا تشكّل بحدّ ذاتها قصّة ذات موضوع واضح ثابت ، لها بداية ونهاية . فالمؤرخ هو الذي يحدّد لنفسه موضوع القصّة في كلّ حال من الاحوال ، فينتقي من الأحداث ما يبرز معالم هذه القصّة ، ويقسمها الى فصول زمنية بالشكل الذي يراه مناسباً لتسهيل فهمها .

وقد اجمع المؤرّخون ، ابتداءً من القرن التاسع عشر ، على اعتبار الفتح العثماني لبلاد المشرق العربي بداية لمرحلة جديدة في تاريخها . وليس هناك من داع خاص يسوّغ الخروج عن هذا الاجماع في رواية التاريخ الخاص بلبنان . ولذلك رأيت من الأفضل ان انهي روايتي لقصّة لبنان في «العصور الوسطى» مع زوال دولة المماليك ودخول بلاد الشام ومصر تحت حكم بني عثمان . هذا مع العلم بأن أوضاع المناطق اللبنانية من الشام في الفترة الاولى من العهد العثماني ، وحتى الربع الاخير من القرن السادس عشر على الاقلّ ، لم تختلف كثيراً عن أوضاع هذه المناطق – وربّما غيرها من المناطق الشاميّة – في عهد المماليك الجراكسة الذي انتهى عام ١٥١٦ م .

والواضح من الكلام الوارد في الفصول السابقة ان تاريخ لبنان بين الفتح الاسلامي الأوّل في القرن الميلادي السابع ، والفتح العثماني في القرن السادس عشر ، لا يمكن فصله عن تاريخ بلاد الشام والمشرق الّا عن طريق التحديد المصطنع . ولو لم تقم في لبنان وجواره ، ابتداءً بأواسط العهد العثماني ، أوضاع سياسية واجتماعية خاصة ، ممّا جعل التاريخ

اللبناني بعد ذلك ينتهج نهجاً خاصاً متميّزاً الى حدّ كبير عن تاريخ سائر المناطق الشامية ، لما كان هناك ما يدعو الى العودة الى «العصور الوسطى» لتقصّي الجذور التي ربّما كانت مسؤولة عن تأسيس الكيان التاريخي للبنان.

وما ينطبق على موضوع تاريخ لبنان من هذه الناحية ينطبق ايضاً ، وبالطريقة ذاتها ، على غيره من الموضوعات التاريخية. فتاريخ فرنسا والمانيا وايطاليا في «العصور الوسطى» ، مثلاً ، لم يكن تاريخاً فرنسياً والمانياً وايطالياً بقدر ما كان تاريخاً «فرنجيّاً» مشتركاً من جهة ، ومجموعة من التواريخ الاقطاعية والمحليّة من جهة أخرى. وتاريخ العرب والفرس والأتراك في ذلك الزمن بالذات لم يكن تاريخاً عربياً وفارسياً وتركياً بقدر ما كان تاريخاً اسلامياً من ناحية ، ومجموعة من التواريخ الاقليمية والعشائرية من ناحية أخرى. وواقع العصر الحاضر ، حيث ينقسم العالم الى كيانات تنطلق في أحيان كثيرة من مفاهيم قوميّة وعنصرية حديثة العهد ، هو الذي يضطرّنا أن نعود الى الماضي لتقصّي الجذور التاريخية لهذه الكيانات ، ومنها ما لم يكن له وجود الّا في أزمنة متأخّرة. وفي ذلك القدر ذاته من التحديد المصطنع الذي نضطرّ اليه في المعالجة التاريخية لموضوع لبنان قبل ظهور معالم الكيان اللبناني بمفهومه الحاضر.

والجدير بالملاحظة هنا أن تاريخ لبنان في «العصور الوسطى» يشكّل على وجه الإجمال قصّة قابلة للرواية ، وان لم تكن قصّة مترابطة الاجزاء. والواقع أن تاريخ الريف اللبناني وحده ، من بين الارياف الشامية ، هو التاريخ القابل للرواية بشكل متسلسل متكامل بالنسبة الى ذلك الزمن. ويعود الفضل في ذلك الى اهتمام بعض الدروز والموارنة آنذاك ، كلّ فريق من ناحيته ، بتدوين بعض الوقائع المختصّة بطائفته من هذا التاريخ. وهذا ما لم يفعله غير الدروز والموارنة من بين ابناء الارياف الشامية ، سواءً في «العصور الوسطى» او في الأزمنة اللاحقة.

وقد تبيّن ممّا اوردناه في الفصول السابقة ان المناطق اللبنانية في «العصور الوسطى» كانت مسرحاً لتطوّرات اجتماعية هامة ، منها ما يتعلّق بظهور الطائفة المارونية وتطوّر علاقاتها مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من جهة ، ومع الدول الاسلامية القائمة من جهة أخرى ، ومنها ما يتعلّق بظهور طائفة الدروز ، ونجاح بعض زعماء هذه الطائفة في خلق مؤسسات اقطاعية وراثية في مناطقهم ، ممّا ضمن الاستمرار التاريخي لزعاماتهم فيما بعد. أضف الى ذلك التطوّرات الأخرى في البلاد التي مررنا على ذكرها ، والتي لم تختلف بمجملها عن واقع الاوضاع في سائر المناطق الشامية ، على عكس الاوضاع المختصّة بالموارنة والدروز.

ولم يكن بروز الكيان التاريخي اللبناني خلال الفترة العثمانية الّا نتيجة للّقاء الذي تمّ بين المسيرة التاريخية المارونية التي تعقّبناها من ناحية ، والمسيرة التاريخية الدرزية من الناحية الثانية ، وذلك في بداية القرن السابع عشر ، وضمن اوضاع داخلية وخارجية لا مجال لذكرها هنا. فجاء تاريخ هذا الكيان ، انطلاقاً من ذلك اللقاء ، استمراراً للأحداث والتطوّرات السابقة. وهل التاريخ في نهاية الأمر الّا الاستمرار ؟

مَراحِل تاريخيّة

٦١٠ – ١٥١٦ م

٦١٠م – جلوس هرقل على عرش الروم
– بداية الدعوة الى الاسلام في مكّة

٦٢٢م/١هـ – الهجرة النبوية من مكّة الى المدينة

٦٢٨ م/٧–٨ هـ – انتصار الروم في حربهم الاخيرة ضد الفرس

٦٣٢ م/١١ هـ – وفاة الرسول في المدينة وقيام مؤسسة الخلافة

٦٣٤م/١٣هـ – بداية الفتح الاسلامي للشام

٦٣٨م/١٧هـ – تولية معاوية بن أبي سفيان على الشام
– اعلان الملك هرقل لمذهب « المشيئة الواحدة » في المسيح كحل وسط في المعتقد بين الروم واليعاقبة

٦٤١م/٢٠هـ – اكتمال الفتح الاسلامي للشام
– وفاة هرقل ملك الروم

٦٦١م/٤١هـ – مقتل علي بن ابي طالب في الكوفة في العراق ، وتفرّد معاوية بالخلافة في دمشق

٦٨٠م/٦٠–٦١هـ – مقتل الحسين بن علي في واقعة كربلاء في العراق
– ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز
– تكفير المجمع المسكوني السادس ، في القسطنطينية ، لمذهب « المشيئة الواحدة »
– الانفصال في الكرسي الانطاكي بين الملكية والموارنة ، وانتخاب يوحنا مارون بطريركا على الكنيسة المارونية (؟)

٦٨٥م/٦٥–٦٦هـ – معاهدة الصلح بين يوستنيانوس الثاني ملك الروم والخليفة عبد الملك بن مروان
– اخراج الروم للجراجمة (وهم « المردة ») من جبل اللكام
– حملة عسكر الروم على دير مارون في وادي العاصي ، ولجوء البطريرك يوحنا مارون الى كفرحي في لبنان (؟)
– واقعة اميون بين عسكر الروم والموارنة في لبنان (؟)

٧٥٠م/١٣٢ه – زوال ملك بني اميّة في دمشق وقيام الخلافة العباسية في العراق

٧٤٠م–٧٧٥م/١٢٢–١٥٨ه – ملك قسطنطين الخامس في القسطنطينية واعادة تنظيم مواقع الروم العسكرية على حدود بلاد الاسلام

٧٥٤–٧٧٥م/١٣٦–١٥٨ ه – خلافة المنصور في بغداد ومحاولاته لاعادة تنظيم الاجناد الشامية

٧٥٩–٧٦٠م/١٤٢–١٤٣ه – ثورة « الملك بندار » في جبّة المنيطرة في لبنان

٧٦٥م/١٤٨ه – وفاة الامام جعفر الصادق وبداية انقسام الشيعة بين الاسماعلية والامامية

٨١٩ او ٨٢٠م/٢٠٤ ه – قيام دولة بني زياد في اليمن

حوالي ٨٤٠م/٢٢٥ه – بداية استقلال البندقية ، في ايطاليا ، عن دولة الروم

٨٦٨م/٢٥٤ه – قيام دولة بني طولون في مصر والشام

٨٧٤م/٢٦٠ه او ٨٧٩م/٢٦٥ه – دخول الامام محمد بن حسن في الغيبة ، وهو الامام الثاني عشر والمهدي المنتظر عند الشيعة الامامية

٩٠٢م/٢٨٩ه – بداية غارات القرامطة على الشام

٩٠٥م/٢٩٢ه – زوال دولة بني طولون في مصر والشام

٩٠٩م/٢٩٧ه – قيام الخلافة الفاطمية الاسماعلية في المهديّة في افريقية

٩١١م/٢٩٨ه – بداية استقرار النورمانديّين في البلاد الفرنسية

٩١٣م/٣٠٠ه – تلقب ملوك الاندلس من بني اميّة بالخلافة

٩٢٤م/٣١٤ه – تنصيب اول ملك من الاسرة السكسونية على بلاد الالمان

٩٣٥م/٣٢٣ه – قيام الدولة الاخشيدية في مصر ودمشق

٩٥١م/٣٤٠ه – الاعتراف بأوتو الاول ، ملك الالمان ، ملكا على ايطاليا

٩٥٤ م/٣٤٢–٣٤٣ ه – توحيد ممالك انكلترا للمرّة الاولى في مملكة واحدة

٩٥٨ /٣٤٧ه – استقلال دوقية ملف (امالفي) ، في ايطاليا ، عن دولة الروم

٩٦٢م/٣٥٠ه – تتويج اوتو الاول ، ملك الالمان وايطاليا ، امبراطوراً على بلاد الفرنجة (الغرب المسيحي)

٩٦٩م/٣٥٨ه – استيلاء الروم على انطاكية وبداية غاراتهم المتكررة على وادي العاصي وجواره في الشام

– بداية جلاء الموارنة نهائيا عن وادي العاصي (؟)

– اطاحة الفاطميين بالدولة الاخشيدية في مصر

٩٧٣م/٣٦٢ه – انتقال مركز الخلافة الفاطمية من المهدية في افريقية الى القاهرة في مصر ، وبداية التوسع الفاطمي في الشام

٩٧٧م/٣٦٧ه – خروج القرامطة نهائيا من الشام

٩٨٩ م/٣٧٨–٣٧٩ ه – قيام دولة الملوك الكابيتيّين في باريس ، وبداية تاريخ المملكة الفرنسية

٩٩٧/٣٨٧ ه – ثورة « الامير علاّقة » في صور ضد الفاطميين ، وبمساعدة من الروم

١٠١٦م/٤٠٦ه – استيلاء بيزا وجنوة (من مدن ايطاليا) على جزيرة سردانية ونهاية حكم المسلمين فيها

– توحيد مملكة انكلترا مجددا على يد الملك كنوت Canute ، من الاسرة الدانيماركية الفاتحة

– زوال الدولة الحمدانية في حلب ودخولها تحت حكم الفاطميين

١٠١٧م/٤٠٨ ه – ظهور الدعوة الدرزية في القاهرة في عهد الحاكم بامر الله الفاطمي

١٠٢٧م/٤١٨ه – تسلّم امير البيرة ، في جبل بيروت ، للدعوة الدرزية

١٠٣٠ م/٤٢١ ه – بداية امر النورمانديّين في جنوب ايطاليا ، ثم في جزيرة صقلّية

١٠٣١ م/٤٢٢ ه – نهاية الخلافة الاموية في الاندلس وظهور دول « ملوك الطوائف » فيها

١٠٤٨م/٤٤٠ه – قيام امارة بني عمّار في طرابلس

١٠٥٤ م/٤٤٦ ه – الانفصال النهائي بين كنيسة الروم في القسطنطينية والكنيسة اللاتينية في رومية

١٠٥٥م/٤٤٧ه – دخول آل سلجوق الى بغداد بدعوة من الخليفة العباسي

١٠٥٨م/٤٥٠ ه – بداية سلطنة آل سلجوق (وبالتالي مؤسسة السلطنة) في ديار الخلافة العباسية

١٠٦٦ م/٤٥٨ ه – تغلب النورمانديّين على مملكة انكلترا

١٠٧٠م/٤٦٢–٤٦٣ه – استقلال امارة بني عمّار في طرابلس

– قيام امارة بني ابي عقيل في صور

– استيلاء اتسز التركماني على دمشق وخروج الفاطميين من الشام

١٠٧١م/٤٦٣ه – هزيمة السلاجقة للروم في واقعة ملاذكرد في ارمينية ، وبداية اجتياح الترك لبرّ الاناضول

التاريخ	الحدث
١٠٧٨ م/٤٧١ هـ	– استيلاء تاج الملوك تتش ، من آل سلجوق ، على دمشق ومقتل اتسز بن اوق فيها
١٠٨١ م/٤٧٤ هـ	– جلوس الكسيوس كومنينوس على عرش الروم ، واستنجاده بعد ذلك بالفرنجة لرد الترك عن بر الاناضول
١٠٨٥ م/٤٧٧ هـ	– استيلاء آل سلجوق على انطاكية وخروج الروم منها
١٠٨٩ م/٤٨٢ هـ	– عودة السيطرة الفاطميّة على الساحل الشامي حتى ثغر جبيل
١٠٩٥ م/٤٨٨ هـ	– نداء البابا اوربانوس الثاني بشأن الحملة «الصليبية» الاولى
	– مقتل تاج الملوك تتش ، صاحب الشام ، في واقعة الريّ في بلاد فارس ، وانقسام مملكة آل سلجوق في الشام من بعده
١٠٩٧ م/٤٩٠ هـ	– وصول جيوش الفرنجة الى الشام
١٠٩٨ م/٤٩١ هـ	– استيلاء الفرنجة على انطاكية والرها
	– استيلاء الفاطميين مجددا على القدس
١٠٩٩ م/٤٩٢ هـ	– اللقاء الاول بين الموارنة والفرنجة في عرقا
	– استيلاء الفرنجة على القدس
١١٠٠ م/٤٩٣ هـ	– الاتصال الاول ، عن طريق الفرنجة ، بين الكنيسة المارونية واحبار رومية
١١٠٤ م/٤٩٧ هـ	– استيلاء الفرنجة على جبيل
١١٠٩ م/٥٠٢ هـ	– استيلاء الفرنجة على طرابلس
١١١٠ م/٥٠٣ هـ	– استيلاء الفرنجة على بيروت وصيدا
١١٢١ م/٥١٥ هـ	– اوّل ذكر لوجود جالية مارونيّة في قبرس
١١٢٤ م/٥١٨ هـ	– استيلاء الفرنجة على صور
١١٢٨ م/٥٢٢ هـ	– مقتل برق بن جندل في وادي التيم على يد بهرام الباطني ، وثأر ضحّاك بن جندل من بهرام
١١٣٣ م/٥٢٨ هـ	– غارة اتابك دمشق على جبل صيدا وانتزاعه لشقيف تيرون في الشوف من يد ضحاك بن جندل
١١٣٧ م/٥٣١ هـ	– حملة فرنجة طرابلس على العشائر المارونية في الجرود اللبنانية
١١٣٩ م/٥٣٣ هـ	– اللقاء الاول بين اعيان الموارنة والقاصد البابوي في طرابلس (؟)
١١٤٤ م/٥٣٩ هـ	– استيلاء عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل وحلب ، على الرها ، وبداية النداء للحملة «الصليبية» الثانية

التاريخ	الحدث
١١٤٧ م/٥٤٢ هـ	– منشور اتابك دمشق بتولية ناهض الدولة بحتر بن علي على امارة الغرب في جبل بيروت
١١٤٨ م/٥٤٣ هـ	– ردّ الحملة «الصليبية» الثانية عن دمشق
١١٤٩ م/٥٤٣ هـ	– مقتل ضحّاك بن جندل في وادي التيم على يد الباطنية
١١٥٤ م/٥٤٩ هـ	– استيلاء نور الدين محمود بن زنكي ، صاحب حلب ، على دمشق ونهاية الدولة الاتابكية البورية فيها
	– مرسوم نور الدين محمود بتولية زهر الدولة كرامة بن بحتر على امارة الغرب
١١٥٧ م/٥٥٢ هـ	– وفاة السلطان سنجار في بلاد فارس وزوال سلطنة آل سلجوق في ديار الخلافة العباسية
١١٦١ م/٥٥٦ هـ	– اعتراف اباطرة الغرب المسيحي بامتيازات سياسية خاصة لمدينة جنوة في ايطاليا
١١٧١ م/٥٦٧ هـ	– اطاحة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب بالخلافة الفاطمية في مصر
١١٧٤ م/٥٦٩ هـ	– وفاة نور الدين محمود بن زنكي واحتلال صلاح الدين لدمشق
حوالي ١١٨٠ م/٥٧٥ هـ	– دخول الكنيسة المارونية نهائيا في طاعة احبار رومية
١١٨٣ م/٥٧٩ هـ	– احتلال صلاح الدين لحلب وتلقبه بالسلطنة
١١٨٦ م/٥٨٣ هـ	– هزيمة صلاح الدين للفرنجة في واقعة حطّين
١١٨٧ م/٥٨٣ هـ	– اللقاء بين صلاح الدين وحجى بن كرامة ، أمير الغرب ، في خلدة ، خارج بيروت
	– استيلاء صلاح الدين على بيروت
١١٩١ م/٥٨٧ هـ	– استيلاء الفرنجة على جزيرة قبرس
١١٩٣ م/٥٨٩ هـ	– وفاة صلاح الدين وتفكك الدولة الايوبية من بعده
١١٩٧ م/٥٩٣ هـ	– عودة الفرنجة الى احتلال بيروت
١٢٠٣ م/٥٩٩ هـ	– اللقاء الثاني في طرابلس بين اعيان الموارنة والقاصد البابوي وتثبيت اتحاد الكنيسة المارونية مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية
١٢١٥ م/٦١٢ هـ	– زيارة البطريرك الماروني ارميا العمشيتي لرومية
١٢٤٩ م/٦٤٧ هـ	– تجريد الحملة «الصليبية» السابعة الى مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا
١٢٥٠ م/٦٤٨ هـ	– نهاية السلطنة الايوبية في مصر وتسلّم المماليك للحكم في القاهرة

التاريخ	الحدث
١٢٥٥م/٦٥٣هـ	– واقعة عيتات ، في الغرب ، بين عسكر الدولة الايوبية في دمشق وانصار دولة المماليك من دروز جبل بيروت
١٢٥٨م/٦٥٦هـ	– دخول هولاكو ، ملك التتار في بلاد فارس ، الى بغداد واطاحته بالخلافة العباسية فيها
١٢٦٠م/٦٥٨هـ	– احتلال التتار للممالك الايوبية في الشام
	– هزيمة المماليك للتتار في واقعة عين جالوت ، وبداية حكم المماليك في الشام
١٢٦٢م/٦٦١هـ	– بعث الخلافة العباسية في القاهرة وتلقب ملوك المماليك رسميا بالسلطنة
١٢٦٨م/٦٦٦هـ	– استيلاء الملك الظاهر بيبرس على انطاكية
حوالي ١٢٧٠م/٦٦٨هـ	– اعتقال بيبرس لقادة آل بحتر من امراء الغرب
١٢٨١م/٦٨٠هـ	– ردّ المماليك لحملة التتار الثانية على الشام
١٢٨٢م/٦٨١هـ	– الانشقاق في الكنيسة المارونية بين اتباع البطريرك ارميا الدملصاوي الموالي للفرنجة ولرومية ، واتباع البطريرك لوقا البنهراني المعارض للاتحاد مع رومية
١٢٨٣م/٦٨٢هـ	– غارة المماليك على الحدث في جبّة بشري ، والقبض على البطريرك لوقا المتحصّن هناك
١٢٨٨م/٦٨٧هـ	– اخراج الاقطاع عن آل بحتر في الغرب ، وعن غيرهم من «الامراء الجبلية»
١٢٨٩م/٦٨٨هـ	– استيلاء الملك منصور قلاوون على طرابلس
١٢٩١م/٦٩٠هـ	– استيلاء الملك الاشرف خليل بن قلاوون على عكا ، ونهاية ملك الفرنجة في الشام
	– استعادة آل بحتر لاقطاعاتهم القديمة في الغرب
	– حملة المماليك الاولى على الشيعة في كسروان
١٣٠٠م/٦٩٩هـ	– ردّ المماليك لحملة التتار الثالثة على الشام
	– حملة المماليك الثانية على الشيعة في كسروان
١٣٠٥م/٧٠٤–٧٠٥هـ	– اخفاق مهمّة ابن تيمية بين الشيعة في كسروان
	– نكبة كسروان في حملة المماليك الثالثة على الشيعة هناك
١٣٠٦م/٧٠٦هـ	– تسلّم التركمان لاقطاع المناطق الساحلية من كسروان
	– اخراج المماليك للجنويّين من ثغر جبيل (؟)
١٣١٣–١٣١٤م/٧١٣هـ	– روك المماليك لبلاد الشام ونجاح آل بحتر في الاحتفاظ باقطاعاتهم القديمة في الغرب

التاريخ	الحدث
	– اشراك آل بحتر وتركمان كسروان في مهام الحفاظ على ثغر بيروت
١٣٣٤م/٧٣٤هـ	– اول غارة مذكورة للجنويّن على ثغر بيروت
١٣٣٩م/٧٣٩هـ	– انتخاب اول دوق Doge على مدينة جنوة في ايطاليا
١٣٦٥م/٧٦٦هـ	– غارة فرنجة قبرس على ثغر الاسكندرية في مصر ، والنقمة على النصارى في مصر والشام
١٣٦٧م/٧٦٨هـ	– اعدام المماليك في طرابلس للبطريرك الماروني جبرائيل الحجولاوي
١٣٨٢م/٧٨٤هـ	– تسلّم برقوق للسلطنة في القاهرة وبداية عهد المماليك الجراكسة
	– تسلّم يعقوب بن ايوب الماروني لمقدّمية جبّة بشرّي
١٣٨٩م/٧٩١هـ	– الثورة على برقوق في الشام ومصر ، وخلعه من السلطنة ، وسجنه في الكرك
	– اغارة تركمان كسروان على ممتلكات آل بحتر الموالين لبرقوق في بيروت والغرب
١٣٩٠م/٧٩٢هـ	– عودة برقوق الى السلطنة
	– تثبيت يعقوب بن ايوب في مقدّمية بشرّي
	– اعادة بناء دير قنّوبين ، في جبّة بشرّي ، باهتمام من دولة المماليك
	– اقتصاص برقوق من تركمان كسروان لمصلحة آل بحتر في الغرب
١٤٢٥م/٨٢٨هـ	– استيلاء المماليك على قبرس ، واشتراك آل بحتر في الحملة على الفرنجة هناك
	– غارة بني الحمرا ، من امراء البقاع ، على بيروت
١٤٣٩م/٨٤٣هـ	– انعقاد مجمع فلورنسا في ايطاليا بحضور ممثل عن البطريرك الماروني يوحنا الجاجي
١٤٤٠م/٨٤٤هـ	– نكبة مركز البطريركية المارونية في ميفوق ، في بلاد البترون ، وانتقال البطريرك يوحنا الجاجي الى دير قنّوبين ، في حمى مقدّمي بشرّي
١٤٥٠م/٨٥٤هـ	– تعيين اول مرشد من الرهبان الفرنسيسكان للبطريرك الماروني في قنّوبين

١٤٥٣م/٨٥٧هـ – استيلاء آل عثمان على القسطنطينية ونهاية دولة الروم هناك

١٤٧٩م/٨٨٤هـ – وفاة السيد جمال الدين عبد الله التنوخي في عبيه، في الغرب

١٤٨٨م/٨٩٣هـ – نكبة اليعاقبة في جبّة بشرّي على يد موارنة اهدن

١٤٨٩م/٨٩٤هـ – استيلاء البنادقة على جزيرة قبرس وازدياد الهجرة المارونية اليها

١٤٩٣م/٨٩٨هـ – عودة جبرائيل ابن القلاعي من ايطاليا وتعيينه مرشدا فرنسيسكانيا للبطريرك الماروني في قنّوبين

١٤٩٩م/٩٠٤هـ – بداية امر المقدم ناصر الدين محمد بن الحنش في البقاع

١٥٠٥م/٩١١هـ – قمع المماليك لثورة ابن الحنش في البقاع، واعتقال حليفه فخر الدين عثمان بن معن، امير الشوف

١٥٠٦م/٩١٢هـ – وفاة فخر الدين عثمان بن معن، امير الشوف

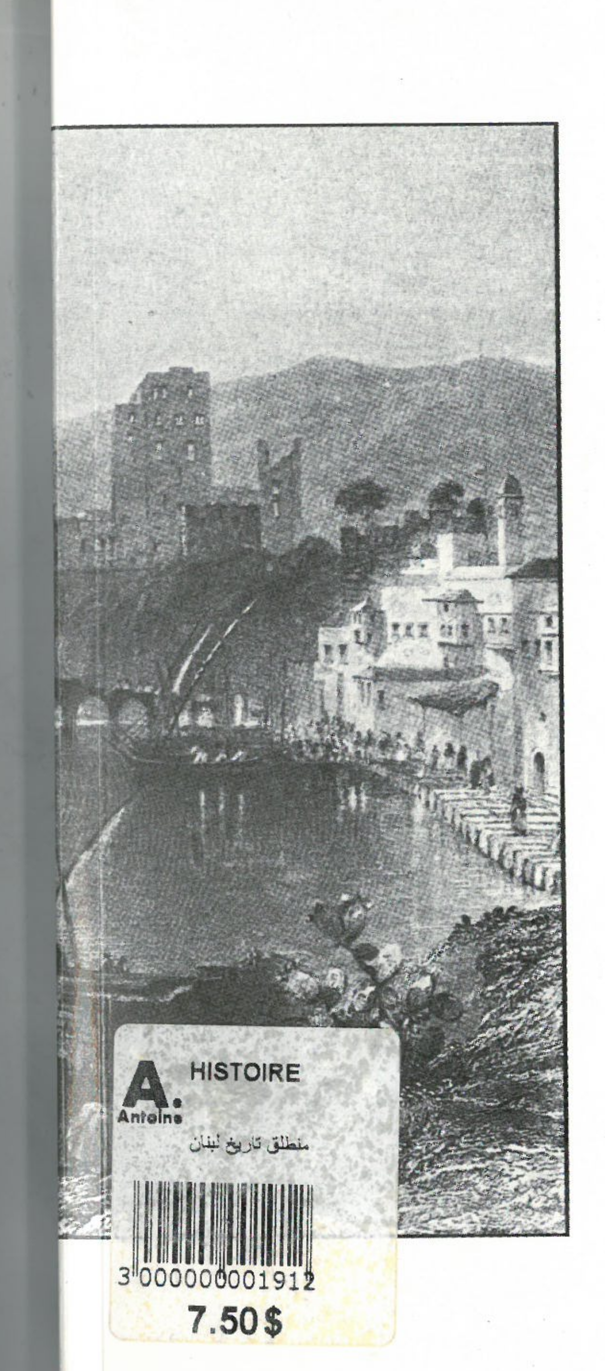
١٥٠٧م/٩١٣هـ – تعيين جبرائيل ابن القلاعي مطرانا على الموارنة في قبرس

١٥١١م/٩١٧هـ – وفاة يونس بن معن، امير الشوف

١٥١٦م/٩٢٢هـ – وفاة جبرائيل ابن القلاعي في قبرس

– دخول آل عثمان الى الشام ونهاية عهد المماليك فيها

فهرس



منطلق تاريخ لبنان

« ... أبدأ برواية القصة اللبنانية من القرن الميلادي السابع ، عندما تم انهيار الاوضاع التاريخية القديمة في بلاد المشرق على أثر الفتوحات الاسلامية ، وقامت فيها اوضاع تاريخية جديدة ... »

وهذا الكتاب يعالج « فترة 'العصور الوسطى' ، اي الفترة التي تبتدىء في بلاد المشرق مع ظهور الاسلام ، وتنتهي بزوال دولة المماليك في بلاد الشام ومصر على أثر الفتح العثماني لهذين القطرين في أوائل القرن السادس عشر.. والمعروف ان هذه القرون الستة في تاريخ لبنان هي اكثر الفترات غموضاً ، وذلك بسبب ضآلة المعلومات الثابتة المتوفرة لدينا عنها ، مما جعل اصحاب الخيال ينسجون حولها من القصص ما لا يمت الى الواقع بصلة » .